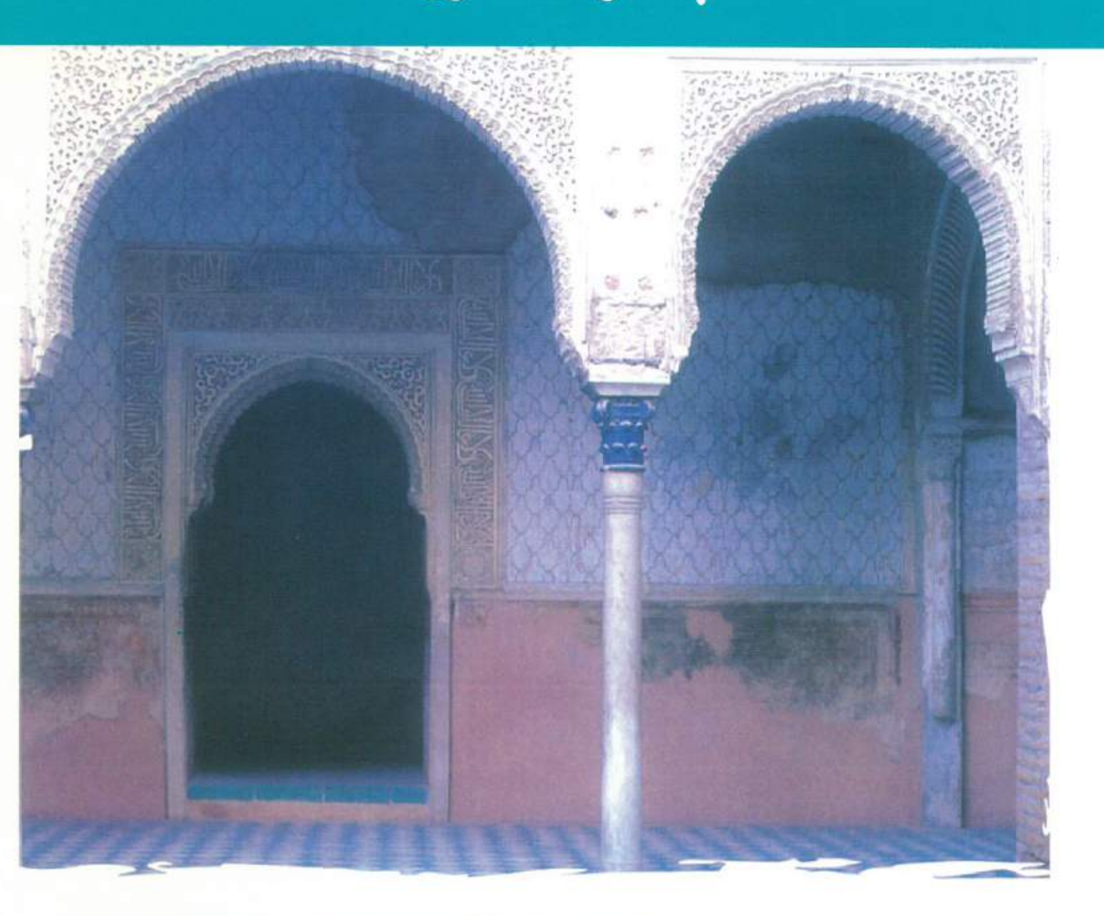
الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق

الأستاذ الدكتور
عبد الواحد ذنون طه





الرحلات المتبادلة
بين
الغرب الإسلامي والمشرق

تأليف
الدكتور عبد الواحد ذنون طه

دار المدار الإسلامي

الطبعة الأولى

كانون الثاني/يناير/أي النار 2005 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 5932/ 2004
ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-216-9
دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دار المدار الإسلامي

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5،
خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 ـ بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb
ص.ب. 14/6703 ـ بيروت ـ لبنان
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498،
هاتف: 00218 . 21 . 3407010 – 00218 . 21 . 3407012 – 00218 . 21 . 3407013 – 00218 – فاكس: 00218 . 21 . 3407011
طرابلس ـ الجماهيرية العظمى ـ oeabooks@yahoo.com

الإهداء

إلى الأخ الصديق

الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي عضو أكاديمية المملكة المغربية، عرفاناً لفضله وعلمه واهتمامه الجاد بدراسة الرحلات المغربية

المقدمة

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من الدراسات الخاصة لنماذج من الرحلات بين الغرب الإسلامي والمشرق. كتبت في مناسبات مختلفة، بعضها نشر في مجلات عربية، أو في محاضر الندوات التي أُلقيت فيها هذه الأبحاث، وبعضها الآخر لم ينشر، ويظهر هنا لأول مرة. وبالنظر إلى أهمية الرحلة التي تمثل مظهراً من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية، وإلى دورها في الربط بين ثقافة المشرق والمغرب، جاءت الفكرة لجمع هذه الأبحاث، ونشرها ضمن كتاب واحد.

وكمثال لتنوع أهداف الرحلة في العالم الإسلامي عبر العصور، جاء تنوع هذه الأبحاث، التي تشير إلى مختلف الأسباب الرئيسية التي دفعت العلماء إلى الرحلة، كأداء فريضة الحج مثلاً، وزيارة الأماكن الشهيرة في المشرق، التي تشد المسلم شداً لكونها مهد الحضارة، ومهبط الوحي، وهذه هي الرحلات الحجازية. أما الرحلات الخاصة بطلب العلم والاستزادة منه، فهي الرحلات الدراسية التي يهدف أصحابها إلى لقاء المشايخ الكبار والأخذ عنهم، والرجوع بالإجازات التي تخولهم رواية الحديث النبوي الشريف، ومختلف فروع العلوم العربية والإسلامية. وإلى جانب هذه الرحلات يمكن الإشارة إلى الرحلات السياحية التي تكون غايتها الوقوف على الأماكن، ووجوب الآفاق، والتعرف إلى أخلاق

الشعوب وعوائدها. وهناك نوع آخر من الرحلات، يمكن أن يشمل أهدافاً متعددة، وهي الرحلات العامة التي جمعت أغراضاً كثيرة، مثل الحج، والسياحة، والتعلم، والتجارة، وخير مثال عليها، رحلة ابن بطوطة.

وتغلب الصفة العلمية والدينية على بعض الرحلات التي تمت معالجتها في هذا الكتاب، ولا سيما في البحثين الخاصين بالصلات العلمية بين القدس والأندلس، والصفحات المشرقة من التواصل الثقافي بين القدس والغرب الإسلامي. ففي هذين البحثين يتجلى بوضوح مدى التبادل الثقافي بين الجانبين. ولكن يجب ألاّ ننسى بأن كفة اهتمام الأندلسيين والمغاربة، في لهفتهم وتوجههم إلى القدس، كانت أرجح بكثير. وهذا أمر طبيعي جداً، لأن القدس والمسجد الأقصى. لا بد من أن يكونا مقصداً لكثير من الزوار، بالقياس إلى غيرهما من أماكن العالم الإسلامي، بالنظر إلى المكانة الدينية السامية التي احتلتها القدس لدى المسلمين كافة، فهي أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، وهي أرض الإسراء والمعراج، وفضل الصلاة في مسجدها كبير، وإليه يُشَدّ الرحال. وقد تم تناول الصلات العلمية بين القدس والأندلس من خلال دراسة العلماء الذين تبادلوا الزيارات، منذ أن فتحت القدس، حتى تم تحريرها من الاحتلال الصليبي. أما البحث الثاني، فقد أكد على التواصل الثقافي بين القدس والغرب الإسلامي، منذ تحريرها من الصليبيين سنة 583هـ/ 1188م، وحتى قرون متأخرة، تمتد إلى العصر المريني في المغرب، بل حتى إلى بعض حقب عهد السعديين.

وأجريت دراسة التأثير العلمي لهذه الرحلات بشكل أكثر تفصيلاً، ليكون أنموذجاً لهذه الرحلات، في بحثين آخرين؛ الأول، تناول صوراً من هذا التأثير بين الموصل والأندلس، والثاني جاء بعنوان: الرحلة ودورها في توثيق الصلات العلمية بين المشرق والأندلس. وكانت مدينة

الموصل أيضاً الأنموذج الذي تم اختياره لهذه الدراسة، لما وجدناه من كثرة الأمثلة، والإشارات، والزيارات المتبادلة بين علماء هذه المدينة والأندلس. وليس معنى هذا أن الموصل كانت الوحيدة في هذا الشأن، بل يتساوى معها الكثير من المدن الكبيرة الأخرى في المشرق، وربما يزيد عليها. ولكنها موطني، والمدينة المحببة إلى قلبي، هي والأندلس، ولهذا خُصّتْ بهذه الدراسة. وتشكل الموصل مع حلب، سلسلة في حلقة كبيرة بدايتها الأندلس، ونهايتها هاتان المدينتان، كما توصلت إلى ذلك دراسة أخرى، أجريت من قبلي، أُعدت لندوة عن العلاقات بين الموصل وحلب والأندلس، ستعقد في وقت لاحق بجامعة حلب.

وتأكيداً لقولنا أعلاه، على أن هذه الرحلات لم تكن مقتصرة على مدينة واحدة، بل شائعة بين الأندلس، ومختلف العالم الإسلامي، جاء البحث الخامس، الذي تطرّق إلى الرحلات العلمية والتواصل بين الأندلس وبلاد إيران وما وراء النهر. ولم يمنع البعد الجغرافي الشاسع بين أقصى المشرق الإسلامي، وأقصى المغرب، حصول هذا التلاقح الفكري من خلال الرحلة. وقد نجم عن هذا التواصل الكثير من التلاحم، ليس على الصعيد الثقافي فحسب، بل حتى على الصعيد الاجتماعي، والاندماج في المجتمع الآخر، بحيث أحجم العديد من هؤلاء الراحلين عن العودة إلى بلادهم، وفضلوا البقاء في البيئة الجديدة التي تأقلموا معها.

وبالنظر إلى ما تتمتع به رحلة ابن جبير من مكانة عالية بين الرحلات المغربية، فقد توجه إليها الاهتمام لدراسة أكثر من موقع في المشرق الإسلامي، ولا سيما أن هذه الرحلة تعد رواية شاهد عيان للأحداث التي جاءت فيها. وشهادة العيان هي قمة ما يصبو إليه المؤرخ لتسجيل الروايات التاريخية. والواقع أن رحلة ابن جبير، تعد من المصادر الأساسية لتاريخ أي بلد مرّ به هذا الرحالة، لأنه كان دقيق الملاحظة،

صائب النظر، يهتم بتسجيل كل ما يراه بأسلوب سهل صادق يبعث على الثقة. ومن هنا جاءت أهمية البحث السادس: الرحلات الأندلسية مصدراً لتاريخ بلاد الشام/ دراسة تحليلية مقارنة لنص ابن جبير. فضلاً عن فائدة هذه الرحلة في تقوية الصلات بين الجانبين، أي الغرب الإسلامي وبلاد الشام، فقد كانت لملاحظاته، ومشاهداته، أهمية كبيرة في تاريخ هذه البلاد. التي حظيت بزيارته، لأنها قدمت لنا وصفاً حياً لبلاد الشام، حين بدأت فيها حركة التحرير الإسلامية ضد الصليبيين.

وينطبق الأمر نفسه على البحث السابع: بغداد من خلال رحلة ابن جبير، التي تمت في سنة 580هـ/ 1184م. فقد تناولت روايته مختلف جوانب الحياة فيها، ولا سيما خطط المدينة، ومحلاتها، ومساجدها، ومجالسها العلمية. وتم التركيز في البحث على إبراز أهم الملامح الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والثقافية من خلال مشاهدات ابن جبير. أما البحث الثامن: تكريت من خلال رحلات المغاربة والأندلسيين، فقد تمت معالجته من خلال دراسة أكثر من رحلة واحدة، وذلك لصغر هذه المدينة التي تقع بين بغداد والموصل. لكنها مع ذلك حظيت بزيارة العديد من الرحالة، أمثال ابن الرومية، وابن جبير، وأبي حامد الغرناطي، وابن بطوطة. وعلى الرغم من تنوع اهتمامات هؤلاء الرحالة، فإننا استطعنا أن نكوّن من خلال رواياتهم صورة جيدة عن هذه المدينة العراقية التي نالت اهتمام أكثر من رحالة مغربي وأندلسي.

وفي البحث التاسع، تم تناول رواية الرحالة المغربي المعروف ابن بطوطة، عن اليمن. وهي رواية على درجة كبيرة من الأهمية، لأن هذا الرحالة عُرف بشدة اهتمامه بكل صغيرة وكبيرة من شؤون الحياة العامة للبلاد التي يزورها. وقد دوّن لنا معلومات فريدة أحياناً، لا يمكن أن نجد لها مثيلاً في بقية كتب التاريخ الخاصة باليمن في عهد الرسوليين. وبهذا

البحث الأخير، نكون قد أعطينا أنموذجاً للرحلات المغربية إلى شبه الجزيرة العربية، وتكون بذلك قد تمت تغطية هذه النماذج المختارة للرحلات، وبيان أثرها وفائدتها لدراسة التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي للبلدان التي تمت تغطيتها. ونرجو أن نكون بعملنا هذا، قد أدينا جزءاً من واجبنا أمام التراث العربي الإسلامي بعامة، والتراث المغربي والأندلسي بخاصة، وبيّنا عوامل التواصل الثقافي والحضاري بين المشرق والمغرب، الأمر الذي بدا لنا واضحاً من خلال هذه الرحلات التي جرت بين الطرفين. وأود في الختام أن أقول، إن دراسة الرحلات وأثرها، ما هي إلا إضافة لما سبق أن أنجزه العديد من الأساتذة النابهين في هذا الميدان. وعملي في التركيز على هذه النماذج المدروسة، ما هو إلا اجتهاد مني في هذا المجال. أرجو أن أكون قد وفقت في ما هدفت إليه، وإن قصّرت، فإن الكمال لله وحده.

عبد الواحد ذنون طه

الموصل في: 14/ ربيع الأول/ 1425هـ

4/ أيار/ 2004م

الصلات العلمية بين القدس العربية والإسلامية من الفتح حتى التحرير من الاحتلال الصليبي

نشر هذا البحث ضمن محاضر يوم القدس الندوة السادسة
هوية القدس العربية والإسلامية
عمان 1995

تمهيد:

كانت رحلة العلماء إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي بجناحيه الشرقي والغربي من المظاهر الحضارية الواضحة في مختلف العصور الإسلامية. ولم تقف الخلافات السياسية في أي وقت من الأوقات حائلاً أمام مثل هذا التواصل. وكان طلب العلم والاستزادة منه، أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت العلماء إلى الرحلة، فضلاً عن أداء فريضة الحج، وزيارة الأماكن الشهيرة في المشرق، التي كانت تمثل مراكز جذب رئيسية للعلماء. وكان من الطبيعي أن تكون القدس والمسجد الأقصى في طليعة الأماكن التي يتوجه إليها الزائرون بعد أداء فريضة الحج، ولهذا نجد أن الزيارات والصلاة كانت أكثر شيوعاً إلى هذه المراكز المقدسة، بالقياس

إلى غيرها من أماكن العالم الإسلامي. وقد شكل الغرب الإسلامي رافداً متميزاً في مجال تقديم العناصر البشرية التي تزور هذه المناطق. وقد تم التركيز في هذا البحث على أحد أجزاء هذا الغرب: الأندلس، التي تزخر كتب التراث العربية بأسماء أبنائها الذين توافدوا على القدس العربية الإسلامية، بالنظر إلى المكانة الدينية التي احتلتها هذه المدينة لدى المسلمين كافة، فهي أولى القبلتين، وثالث الحرمين، وهي موقع الإسراء والمعراج، وفضل الصلاة في مسجدها الأقصى كبير، وإليه يشد الرحال، فهي لما تتمتع به من مكانة دينية وعلمية تعد مركزاً أساسياً لهذا التوجه، وعملية التواصل العلمي معها من قبل العلماء المغاربة والأندلسيين تمثل معلماً من معالم الوحدة الثقافية والحضارية مع العالم العربي والإسلامي عبر العصور.

ظلت كفة العلاقات بين الغرب الإسلامي والقدس في صالح القدس دائماً، بسبب العوامل التي أسلفنا الإشارة إليها قبل قليل، والتي جعلت منها قبلة للعلماء. ومع ذلك يمكن أن نعثر على بعض الزيارات المعاكسة لعلماء من القدس إلى كل من المغرب والأندلس، لكن عددهم كان محدوداً جداً، وجاؤوا في فترات مختلفة قبل الاحتلال الصليبي للقدس سنة 492هـ/ 1099م. منهم على سبيل المثال، عبد الملك بن محمد بن عبد الملك، الذي ينتمي إلى أسرة بني أمية، ويعرف بالسليماني، كان من أهل بيت المقدس، وقدم الأندلس نحو سنة 360هـ/ 970م، فأكرمه الخليفة الحكم المستنصر (350 - 366هـ/ 961 - 976م)، وسمع منه علماء الأندلس الحديث النبوي الشريف، وكتب عنه ابن الفرضي (ت 403هـ/ 1013م) بعض أجزاء من أحاديثه[1].

(1) عبد الله بن محمد بن الفرضي، **تاريخ علماء الأندلس**، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966: 1/ 275.

وهناك من العلماء المقدسيين، من رحلوا إلى الأندلس بقصد التجارة، لكنهم مع ذلك، أخذوا معهم علوم المشرق، ولا سيما في مجال الحديث، وساهموا في تقوية الصلات العلمية مع الغرب الإسلامي، ومن هؤلاء أيوب بن نصر بن علي بن المبارك الشامي المقدسي، الذي قدم الأندلس تاجراً سنة 420هـ/ 1029م، وكانت له رواية بالشام وغيرها، وكان شافعي المذهب، ثقة حافظاً[2]. كذلك علي بن أحمد بن علي بن عبد الله الربعي المقدسي الشافعي التاجر (ت 531هـ/ 1136م)، الذي كان له سماع في بغداد، والقدس، فأفاد منه علماء المغرب والأندلس، ومنهم القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي (ت 544هـ/ 1159م)[3].

أما رحلات المغاربة والأندلسيين إلى المشرق والقدس بالذات، فقد ابتدأت في وقت مبكر، وكانت الغاية الأساسية من توجُّه هؤلاء العلماء إلى المراكز المقدسة في المشرق هي سماع الحديث النبوي الشريف، والأخذ عن الشيوخ المشهورين في هذه المراكز. وتشير المصادر المتوافرة إلى أسماء الكثير من هؤلاء العلماء، منهم عبد الملك بن حبيب السلمي (ت 238هـ/ 852م)، الذي كانت له رحلة مبكرة إلى المشرق، درس فيها الحديث في المدينة المنورة، ومصر، وبيت المقدس، ورجع إلى الأندلس وقد نال شهرة واسعة حتى لقَّبه الناس بعالم الأندلس، وألّف كتباً كثيرة، لكن معظمها أصبح الآن في عداد المفقودات، ولم يبق إلا كتابه المسمى بـ«**التاريخ**»[4].

(2) أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، كتاب **الصلة**، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966: 1/ 113.

(3) **المصدر نفسه**: 2/ 433.

(4) ينظر: عبد الملك بن حبيب، كتاب **التاريخ**، دراسة وتحقيق، خورخي أغوادي، مدريد، 1991 ص79؛ عبد الواحد ذنون طه، **نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس**، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1988، ص8.

ومن علماء الأندلس المشهورين الذين تُلْمِذوا لشيوخ في القدس، بقي بن مخلد (ت 276هـ/ 889م)، وهو شيخ الحفاظ في الأندلس، ومحمد بن وضاح القرطبي (ت 287هـ/ 900م)، مؤسس مدرسة الحديث في الأندلس مع بقي بن مخلد، وقد درس كلاهما الحديث في القدس، وأخذا عن شيوخ معروفين، منهم إبراهيم بن محمد بن يوسف الغريابي[5]. والملاحظ أن هؤلاء العلماء لم يقتصر دورهم على الأخذ من القدس فحسب، بل شملت رحلتهم أنحاء أخرى من العالم الإسلامي، لكن القدس كانت أحد المراكز الهامة التي لا بد من التواجد فيها، بالنظر إلى ما تمثله من أهمية دينية وعلمية مقدسة.

وهناك من تردد على فلسطين عموماً والقدس خصوصاً، بقصد دراسة الحديث أو كسب الثواب، أو التعبّد في القدس، أو تفضيل الإقامة الدائمة ثم الموت فيها، لما في ذلك من أجر وثواب[6]. ولكن نلحظ أيضاً أن معظم هؤلاء ترددوا على مراكز أخرى في العالم الإسلامي، مثل محمد بن عبد الله بن تمام من أهل طليطلة، الذي رحل إلى المشرق، فسمع في مكة من أبي سعيد بن الأعرابي، وتوفي في القدس سنة 342هـ/ 952م[7].

أما محمد بن أحمد بن محمد بن يحيى بن مفرج مولى الإمام

---

(5) محمد بن الحارث الخشني، **أخبار الفقهاء والمحدثين**، دراسة وتحقيق، ماريا لويسا ولويس مولينا، مدريد، 1992 ص54، 123؛ نوري معمر، **الإمام أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد شيخ الحفاظ في الأندلس**، الرباط، منشورات عكاظ، 1988: 1/ 134؛ نوري معمر، **محمد بن وضاح القرطبي** الرباط، مكتبة المعارف، 1983، ص65.

(6) ينظر: أحمد بدر، الأندلسيون والمغاربة في القدس، **مجلة أوراق**، العدد 4، مدريد، 1981، ص127 ـ 127.

(7) ابن الفرضي، **المصدر السابق**: 2/ 61.

عبد الرحمن بن الحكم، المتوفى سنة 380هـ/ 990م، فلم يكتف بالمراكز الشهيرة فحسب، مثل مكة والمدينة والقدس، بل زار معظم المدن الفلسطينية، مثل غزة وطبرية وعسقلان وقيسارية والرملة، بقصد سماع الحديث النبوي الشريف، ثم رجع إلى بلده الأندلس سنة 345هـ/ 956م، فأصبحت له مكانة ممتازة ضد الخليفة الحكم المستنصر، بفضل علومه التي درسها في المشرق. وألف للحكم عدة كتب، كما عمل قاضياً على أكثر من مدينة أندلسية. وعرف بحفظه للحديث، وصحة نقله، على كثرة ما جمع، فسمع الناس منه كثيراً بالأندلس، واستفادوا من علمه، بمن فيهم علماء معروفون أمثال ابن الفرضي[8]. فكان علمه هو حصيلة الاتصال المباشر مع علماء المشرق، وعلماء القدس وفلسطين بخاصة، ما يؤكد قوة ومتانة الصلات العلمية بين القدس العربية الإسلامية والغرب الإسلامي.

ومن العلماء الذين ساهم أساتذة المشرق، ولا سيما فلسطين والقدس، في تشكيل ذهنياتهم، ونبغوا بعد رجوعهم إلى الأندلس، محمد بن يحيى بن زكريا التميمي المعروف بابن برطال، الذي سمع في مكة والقدس والرملة، وعاد إلى الأندلس، فأصبحت له مكانة جيدة عند الخليفة الناصر لدين الله (300 ـ 350هـ/ 912 ـ 961م)، فولي القضاء في مدينة جيان، ثم قضاء الجماعة في قرطبة، كما ولي الوزارة أيضاً، وتوفي عام 394/ 1003م. ومن الكتب التي درسها في المشرق، كتاب البخاري، الذي سمعه منه وقرأه عليه عالم الأندلس المعروف ابن الفرضي[9]. كما سمع ابن الفرضي أيضاً من عالم آخر، هو هاشم بن يحيى البطليوسي، الذي رحل إلى المشرق سنة 338هـ/ 949م، وسمع بمكة

---

(8) **المصدر نفسه**: 2/ 91 ـ 92.

(9) **المصدر نفسه**: 2/ 106 ـ 107.

والقدس وغزة ومصر وطرابلس والإسكندرية، وتوفي في الأندلس سنة 385هـ/ 995م[10].

وقد شهدت القدس درجة كبيرة من التواصل مع الغرب الإسلامي قبيل الاحتلال الصليبي، بحيث زارها اثنان من كبار علماء الأندلس، هما: الإمام أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد القرشي الفهري الأندلسي المالكي المعروف بالطرطوشي، نسبة إلى مدينة طرطوشة في الأندلس، والإمام أبو بكر محمد بن عبد الله المغربي المعافري الإشبيلي المعروف بابن العربي. وقد ابتدأ الأول زيارته للمشرق سنة 476هـ/ 1083م، بعد أن تُلمذ في بلده الأندلس لعلماء معروفين من أمثال أبي الوليد الباجي، الذي صحبه في مدينة سرقسطة وأخذ عنه مسائل الخلاف، وسمع منه وأجاز له، كما قرأ الفرائض والحساب في مدينة طرطمشة، وقرأ الأدب على أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي في مدينة إشبيلية. واستزاد الطرطوشي من طلب العلم في أثناء رحلته المشرقية، فحج ودخل بغداد والبصرة، وتفقه على أبي بكر محمد بن أحمد الشاشي المعروف بالمستظهري، وعلى أبي أحمد الجرجاني، وسكن الشام مدة ودرّس بها. وهكذا كان هذا العالم الفاضل متبحراً في العلم والثقافة حين وصل إلى القدس في حدود سنة 484هـ/ 1091م أو 485هـ/ 1092م، وبقي فيها سنوات أخرى، ثم غادرها، وتوفي في الاسكندرية سنة 520هـ/ 1126م[11].

(10) **المصدر نفسه**: 2/ 173.

(11) ينظر: ابن بشكوال، **المصدر السابق**: 2/ 575؛ أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968: 4/ 262 ـ 264؛ القاضي مجير الدين الحنبلي، الإنس الجليل في **تاريخ القدس والخليل**، النجف الأشرف، منشورات المطبعة الحيدرية، 1968، 1/ 301؛ أحمد بن محمد المقري، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، المغرب والإمارات، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك، 1978: 3/ 162 ـ 165.

وتعد رواية ابن العربي أبلغ شهادة وصلتنا عن الدور الثقافي لأبي محمد بن الوليد الطرطوشي في مدينة القدس، بحيث أشار في **رحلته** إلى أن طالبي العلم كانوا يتجمعون حول الشيخ المذكور في موضع يقال له الغوير، يقع بين باب الأسباط ومحراب زكريا في ساحة الحرم القدسي الشريف، حيث كان العلماء يتناظرون فيه. كما كان يجلس للعلم أيضاً في موضع آخر يقال له السكينة، وهناك لقيه ابن العربي. ويشير ابن العربي إلى لقائه بالطرطوشي ورغبته في البحث عنه بالقدس والأخذ من علمه، فيقول: «مشيت إلى شيخنا أبي بكر الفهري رحمة الله عليه، وكان ملتزماً من المسجد الأقصى بموضع يقال له الغوير، فلم نلقه بها، واقتصصنا أثره إلى موضع منه يقال له السكينة، فألفيناه بها، فشاهدت هديه وسمعت كلامه»[12].

ويبدو أن مجلس الطرطوشي كان حافلاً غزير العلم والفائدة، الأمر الذي استهوى ابن العربي كثيراً، وشجعه على البقاء في القدس لمدة أطول مما كان قد قرره لتواجده فيها. وقد انفتح له على يدي الطرطوشي أعظم أمل في المعرفة والثقافة، فالتزم هذا الشيخ ومجالسه، ولا سيما في قبة باب السلسلة. ولنقرأ كلام ابن العربي المعبر بهذا الخصوص عن أهمية مجلس الطرطوشي العلمي وتأثيره عليه، وعلى سواه من المترددين على مجالس العلم والمعرفة في القدس: «وانفتح لي على يديه أعظم أمل، فاتخذت ببيت المقدس مباءة والتزمت فيه القراءة، لا أقبل على دنيا، ولا أكلم أنسياً، نواصل الليل بالنهار، خصوصاً بقبة باب السلسلة»[13].

(12) ينظر: (رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل)، **مجلة الأبحاث**، ج2 ـ 3، بيروت، 1968، ص80؛ ويقارن: عبد الجليل حسن عبد المهدي، **الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي**، عمان مكتبة الأقصى، 1980، ص30.

(13) رحلة ابن العربي إلى المشرق، ص80 ـ 81؛ وينظر: عبد المهدي، **المرجع السابق**: ص22.

وهكذا نرى أن ابن العربي كان جاداً كل الجد، صادقاً في طلبه للعلم، الذي كان هدفه الأول في رحلته المشرقية التي ابتدأها مع والده من الأندلس سنة 485هـ/ 1092م[14]. وعلى الرغم من كل ما يقال عن أسباب هذه الرحلة، ودوافعها التي يرجعها بعضهم إلى عوامل سياسية لها علاقة بالأوضاع في الأندلس بعد استيلاء المرابطين عليها، أو أنها سفارة سياسية قام بها ابن العربي الوالد وابنه بتوجيه من يوسف بن تاشفين لزيارة الخليفة في بغداد[15]، فإن آثار هذه الرحلة العلمية ونتائجها الثقافية بالنسبة إلى ابن العربي لا يمكن نكرانها. ففضلاً عن القدس موضوع بحثنا، طاف هذا العالم الكبير أرجاء واسعة من العالم الإسلامي، شملت شمال أفريقيا، ومصر، والحجاز، والعراق، وبلاد الشام، ثم عاد إلى الأندلس سنة 493هـ/ 1099م بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق، وتوفي سنة 543هـ/ 1148م[16].

والذي يهمنا في هذا المجال، هو مدى التأثير الثقافي الذي تركته مدينة القدس في ذهنية هذا العالم الأندلسي، وما هو التفاعل الذي ولدته زيارته لهذه المدينة المقدسة؟ فقد انبهر بالجو العلمي الذي كان يغلف أجواء المدينة، ويبدو ذلك واضحاً من قوله: «... فدخلنا الأرض المقدسة، وبلغنا المسجد الأقصى فلاح لي بدر المعرفة فاستنرت به أزيد من ثلاثة أعوام»[17]. كما نلحظ هذا التعلق الشديد أيضاً من موقفه من والده، وتخليه عن رفقته حين أراد الذهاب إلى الحج، مفضلاً البقاء في

(14) ابن بشكوال، **المصدر السابق**: 2/ 590.

(15) ينظر في هذا الموضوع: إحسان عباس، الجانب السياسي من رحلة ابن العربي إلى المشرق، **مجلة الأبحاث**، بيروت، 1963، ج2، ص217 ـ 236.

(16) ابن بشكوال، **المصدر السابق**: 2/ 590 ـ 591؛ ابن خلكان، **المصدر السابق**: 4/ 296 ـ 297؛ الحنبلي، **المصدر السابق**: 1/ 302.

(17) **رحلة ابن العربي**، ص79.

القدس لطلب العلم، وذلك بقوله له: «إذا كانت لك نية في الحج، فامض لعزمك، فإني لست برائم عن هذه البلدة حتى أعلم علم من فيها، واجعل ذلك دستوراً للعلم وسلماً إلى مراقيها»[18].

فما الذي استهوى ابن العربي في القدس؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بد من استعراض بعض النصوص التي جاءت في كتبه المختلفة، ولا سيما **الرحلة أو ترتيب الرحلة**[19]، بحيث يشير دائماً إلى حضوره التناظر بين الطوائف المختلفة، وتردده على المدارس الموجودة في القدس، وحلقات العلم فيها، من ذلك مثلاً قوله: «وأدخل إلى مدارس الحنفية والشافعية في كل يوم لحضور التناظر بين الطوائف، لا تلهينا تجارة، ولا تشغلنا صلة رحم، ولا تقطعنا مواصلة ولي، وتقاة عدو»[20]. ومن جملة المناظرين الذين أشار إليهم في مدرسة الشافعية، التي تقع بباب الأسباط، شيخ الشافعية في المسجد الأقصى، أبو الفضل عطاء المقدسي[21]، والقاضي يحيى بن علي المعروف بابن الصائغ، وقاضي القضاة مجلي بن جميح المخزومي[22]. ويعود الفضل إلى ابن العربي في إشارته إلى المدرسة الحنفية، التي تدعى بمدرسة أبي عقبة، الواقعة بإزاء قمامة، والتي لم نسمع بوجودها من مصدر آخر[23]. فقد ذكرها في ثلاثة من

(18) **المصدر نفسه**: ص61، 80.

(19) توجد نسخة مخطوطة من رحلة ابن العربي في المكتبة الخاصة بالشيخ محمد المنوني في الرباط، كما نشر الدكتور إحسان عباس جزءاً منها، بعنوان: (رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل) في **مجلة الأبحاث** المشار إليها أعلاه، سنة 1968.

(20) رحلة ابن العربي إلى المشرق، ص81.

(21) الحنبلي، **المصدر السابق**: 1/ 298.

(22) رحلة ابن العربي إلى المشرق، ص80

(23) ينظر: كامل جميل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، عمان، جمعية المطابع التعاونية، 1981، ص31.

كتبه[24]، وأشار إلى المناظرات التي كانت تجرى فيها، وأن شيخها كان يدعى القاضي الريحاني[25]. وأورد مناظرة جرت أمامه بين هذا القاضي وعالم غريب دخل إلى المدرسة في أحد أيام الجمع، يدعى (الصاغاني)[26].

وهكذا يتبين من كلام ابن العربي أن القدس كانت مركزاً لنشاط المدارس الإسلامية المختلفة، وملتقى المتناظرين المسلمين وغير المسلمين، فقد ذكر أنه حضر مناظرات لعلماء من ملل مختلفة[27]. كما أشار إلى وجود ثمان وعشرين حلقة لطلب العلم في المسجد الأقصى[28]. وإلى وجود عدد كبير من العلماء الوافدين على المدينة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي[29]. وكانت العلوم الشائعة في فترة زيارته للقدس، هي: علم الكلام، وأصول الفقه، ومسائل الخلاف، بحيث يشير إلى اطلاعه عليها هناك[30]. كما يذكر أيضاً أنه اطلع على كتاب **المدونة** بالطريقة القيروانية، التي تقوم على التمثيل، والطريقة العراقية التي تقوم على الاستنباط واستخراج العلل، وبيَّن أن دراسة **المدونة**، وهي الأصل الثاني للفقه المالكي بعد **موطأ** مالك، في مدينة القدس، كانت تقوم على الجمع بين هاتين الطريقتين[31].

(24) ينظر: رحلة ابن العربي إلى المشرق، ص83؛ ابن العربي، **أحكام القرآن**، تحقيق، علي محمد البجاوي، القاهرة، 1972، القسم الأول، ص107؛ ابن العربي، **العواصم من القواصم**، تحقيق، عمارة الطالبي، الجزائر، 1974، ص61.

(25) رحلة ابن العربي إلى المشرق، ص83.

(26) ابن العربي، **أحكام القرآن**، ص107.

(27) رحلة ابن العربي إلى المشرق، ص65، 81، 82.

(28) ابن العربي، **العواصم من القواصم**، ص61.

(29) رحلة ابن العربي إلى المشرق، ص65، 82.

(30) **المصدر نفسه**: ص82.

(31) **المصدر نفسه**: 65، 82؛ وينظر: عبد المهدي، **المرجع السابق**: ص32.

واهتم ابن العربي بدراسة كتب الحديث في القدس، وساهم في نقلها إلى المغرب والأندلس، من ذلك مثلاً، كتاب **المصباح والراعي إلى الفلاح في حديث رسول الله ﷺ**، تأليف أبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي (ت 490هـ/ 1096 ـ 1097م)، الذي سمعه منه بلفظه، وحدّث به أحد تلامذته، علي بن خلف بن ذي النون العبسي، الذي سمعه بدوره أيضاً عن مؤلفه في القدس. واستمرت رواية هذا الكتاب في الغرب الإسلامي لمدة ليست بالقصيرة، حتى وردت ضمن ما سمعه ابن خير الإشبيلي في فهرسته عن شيوخه في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد[32].

ومن علماء الأندلس الآخرين الذين اتصلوا بالشيخ أبي الفتح بن نصر بن إبراهيم المقدسي، وسمعوا عنه الحديث في القدس، رجل من أهل دانية يدعى بأبي علي الحسن بن خلف بن يحيى بن إبراهيم الأموي، ويعرف بابن بَرَنْجال، كما اتصل أيضاً في عسقلان بأبي عبد الله بن محمد بن الحسين بن سعيد التجيبي، وأخذ عنه كتاب **الوقف والابتداء**، لابن الأنباري. ورجع بهذا التراث العلمي إلى الأندلس، حيث تولى الأحكام ببلده، وتوفي في حدود سنة 500هـ/ 1106م[33]. ولم يقتصر دور العلماء الأندلسيين على تلقي العلم في القدس فحسب، بل كان منهم من يقوم بالتعليم في هذه المدينة المقدسة، ولا سيما في علوم القرآن والقراءات، من ذلك مثلاً علي بن أحمد بن أبي بكر الكناني المقرىء، الذي نشأ في قرطبة، وتعلم بها، ثم رحل فحجَّ، وأقام في القدس تسعة

(32) أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي الإشبيلي، **فهرسة ما رواه عن شيوخه**، نشر، الشيخ فرانسشكة قدارة زيدين وخليان ربارة طرغوة، سرقسطة، 1893، أعادت نشره في بيروت دار الآفاق الجديدة، 1979، ص159.

(33) أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968: 2/ 507 ـ 508.

أشهر يعلِّم القرآن، وغادرها إلى المغرب، واستقر في مدينة فاس يعلِّم القرآن أيضاً في المسجد المنسوب إليه، وروى الناس عنه أحاديث كثيرة، وتوفي في هذه المدينة سنة 569هـ/ 1173م[34].

ومن هذا يتبين أن الصلات الثقافية بين علماء العالم الإسلامي ومدنه المختلفة كانت متواصلة، لا تقف أمامها حدود سياسية أو جغرافية، وكان العالم المسلم حراً في التنقل، يدرّس علومه في القدس العربية الإسلامية أو في غيرها من المدن، بحسبما يشاء، وحيث تطيب نفسه. وقد تكون ثقافة العالم في بلده، ثم يتوق إلى الرحلة والاستزادة من طلب العلم، فيشد الرحال إلى المشرق، ثم يستقر أخيراً في القدس ليعطي ثمرة علمه واجتهاده إلى أتباعه وتلاميذه. ولعل أبرز مثال على هؤلاء، العالم علي بن محمد بن جميل المعافري، الذي نشأ في مدينة مالقة الأندلسية، وأخذ عن شيوخها، ثم رحل إلى المشرق، فأكمل علومه في مصر ودمشق، واستقر أخيراً في المسجد الأقصى، حيث عرف بالشيخ المالقي. وكان زاهداً فاضلاً حافظاً للحديث، عارفاً بالقراءات، إماماً في النحو، حسن الخط، اشتهر بمتانة الدين، وكمال الفضل. وعندما افتتح السلطان صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس سنة 583هـ/ 1187م، عيّنه إماماً في قبة الصخرة، بترشيح وإجماع من حضر هناك من العلماء الأفاضل[35]. وينقل ابن عبد الملك الأنصاري عن العماد الأصبهاني قوله بحقه في هذه المناسبة: «ورتب السلطان في قبة الصخرة إماماً من أحسن القراء تلاوة، وأزينهم طلاوة، وأنداهم صوتاً، وأسماهم في الديانة صيتاً، وأعرفهم

(34) أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي الأنصاري المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1965، السفر الخامس، القسم الأول، ص151؛ أبو جعفر أحمد بن الزبير، **صلة الصلة**، نشر، ليفي بروفنسال، بيروت، مكتبة خياط، 1937، ص103.

(35) الأنصاري، **المصدر السابق**: س5، ق1، ص315 ـ 316.

بالقراءات السبع بل العشر، وأطيبهم في العرف والنشر... ووقف عليه داراً وأرضاً وبستاناً»[36].

واستمر هذا الرجل في منصبه حتى وفاته سنة 605هـ/ 1208م، وكان خلال ذلك لا يكتفي بالقيام بواجبات منصبه الديني، بل واصل الدراسة وتلقي العلم، وساهم في الحياة الثقافية في مدينة القدس، فسمع في شهر رمضان من سنة 596هـ/ 1199م كتاب **فضائل القدس** على مصنفه الحافظ بهاء الدين القاسم بن عساكر[37]، وبذلك يكون هذا الإمام قد أسهم مساهمة فعالة في نقل العلم الذي أخذه عن شيوخ مالقة في فترة شبابه إلى المشرق، ثم أكمله في بقية جولاته في المشرق، وظهر أثره واضحاً في رفد الحركة الثقافية في مدينة القدس بعد التحرير.

ولم يكن الشيخ المالقي هو الأندلسي الوحيد الذي نال حظوة ومكانة مرموقة في الحياة الثقافية لمدينة القدس، وأسهم فيها بشكل مباشر إبان تحريرها من الاحتلال الصليبي، بل نجد آخرين ساهموا بشكل أو بآخر في هذا التيار، ونالوا تشجيع السلطان صلاح الدين الأيوبي، منهم عبد المنعم بن عبد الله بن حسان الغساني الأندلسي الجلياني، الأديب والشاعر والطبيب، الذي رحل من الأندلس، ودخل بغداد، ثم اتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبي[38]، وألف له كتابي: **منادح الممادح**،

(36) ينظر: العماد الأصبهاني، **الفتح القيسي في الفتح القدسي**، تحقيق، محمد محمود صبح، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965، ص141 ـ 142؛ جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق، جمال الدين الشيال، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1957: 2/ 230؛ ويقارن: الأنصاري، **المصدر السابق**: س5، ق1، ص316؛ عبد المهدي، **المرجع السابق**: ص54.

(37) الحنبلي، **المصدر السابق**: ج2 (عمان، 1973) ص135؛ أحمد بدر، **المرجع السابق**: ص132.

(38) ينظر عن الجلياني: ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق، نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1965، ص630 ـ 635؛ محمد شاكر الكتبي، **فوات**

وروضة **المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر**، سنة 589هـ/ 1193م. ويعرف الكتاب الأخير بـ المدبّجات، وهو أول ديوان المبشرات والقدسيات للجلياني المذكور، ويدور حول تحرير مدينة القدس. وتضم المكتبة الخالدية في القدس مخطوطتي هذين الكتابين، الموجودتين فيها منذ الفتح القدسي[39]. ويشير إسهام هذا العالم الأندلسي إلى مدى التفاعل الثقافي بين الغرب الإسلامي، وأحداث القدس العربية والإسلامية، ولا سيما حادثة التحرير من الاحتلال الصليبي، التي أثارت المشاعر، ودفعت بهذا الأديب إلى التأليف لتخليد تلك الذكرى العزيزة على قلوب المسلمين جميعاً في مشرق العالم الإسلامي ومغربه.

ولقد أثارت حادثة تحرير واسترجاع القدس من أيدي الصليبيين، أشجان عالم أندلسي آخر، هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني، الذي لم تتيسر له الظروف لزيارة المدينة المقدسة في رحلته الأولى والمعروفة إلى بلاد الشام سنة 580هـ/ 1184م، لوقوع المدينة بأيدي الصليبيين، واكتفى بالإشارة إليها في رحلته إشارة عابرة، تتضمن مقدار بُعدها عن عكا ودمشق، مبدياً أمله في أن تعود إلى أيدي المسلمين، ويطهرها الله من المشركين بعزته وقدرته[40]. لكنه ما إن سمع بتحريرها حتى رجع إلى المشرق، فزارها سنة 587هـ/ 1191م، ثم عاد ثالثة سنة 597هـ/ 1200م، ليسكن مكة المكرمة، وينتقل منها إلى القدس، وبقي يتردد بين الحرمين الشريفين، ويحدث فيهما، إلى أن استقر أخيراً في الاسكندرية، وتوفي فيها عام 614هـ/ 1217م[41].

الوفيات والذيل عليها، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1974: 2/ 407 ـ 409.

(39) ينظر: عبد المهدي، **المرجع السابق**: ص272.

(40) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني، **رحلة ابن جبير**، بيروت، منشورات دار ومكتبة الهلال، 1981، ص255.

(41) الأنصاري، **المصدر السابق**: س5، ق2، ص605 ـ 606؛ لسان الدين محمد بن =

والمهم في زيارة ابن جبير لبلاد الشام قبيل التحرير الإسلامي للقدس بسنوات قليلة، أنه نبه الأذهان بعد رجوعه إلى الأندلس، لأهمية الرحلة وطلب العلم بالنسبة إلى الشباب المغربي في بلاد الشام، ذاكراً أهم المميزات التي تجعل الفلاح من نصيب الراغبين في القيام بذلك، منها فراغ البال من أمر المعيشة، وإكرام الغرباء، التي هي صفة مميزة لسكان بلاد الشام، ولا سيما للمغاربة منهم[42]. ولا يمكن أن تأتي مثل هذه الدعوة إلا نتيجة اقتناع تام من قبل ابن جبير بملاءمة بلاد الشام لإخوانه الأندلسيين والمغاربة بعامة. ولم تكن القدس بعيدة عن تفكير ابن جبير في دعوته هذه، وإلا لما توجه إليها بعد سماعه بتحريرها، ومن ثم جعلها أحد الأماكن التي فضل البقاء فيها ومواصلة عملية سماع وإسماع الحديث النبوي الشريف. وقد لاقت دعوة ابن جبير هذه آذاناً صاغية في كل الغرب الإسلامي، ما أدى إلى توافد الكثير من علمائه إلى بلاد الشام، ولا سيما القدس، التي أدوا فيها دوراً مميزاً، يتسم بالفاعلية والعطاء، والتواصل الثقافي. وقد استمر هذا الدور إلى عصور متأخرة، وهو موضوع يستحق دراسة مستقلة لاحقة بإذن الله تعالى.

= الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق، محمد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1974: 2/ 232؛ أحمد بن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973: 1/ 278. وينظر عن سماع طالبي العلم للحديث من ابن جبير في القدس: الأنصاري، **المصدر السابق**: الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 1984 (تحقيق محمد بن شريفة)، س8، ق1، ص161.

(42) ابن جبير، **المرجع السابق**: ص232 ـ 233.

جريدة المصادر والمراجع

(أ) المصادر الأولية:

* الأصبهاني، عماد الدين أبو عبد الله محمد.

1 - الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق، محمد محمود صبح، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965.

* ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم.

2 - عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق، نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1965.

* الأنصاري، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي.

3 - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1965، السفر الخامس، القسم الأول. والسفر الثامن، القسم الأول، بتحقيق محمد بن شريفة، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 1984.

* ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك.

4 - كتاب الصلة، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966.

* ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني.

5 - رحلة ابن جبير، بيروت، منشورات دار ومكتبة الهلال، 1981.

* ابن حبيب، عبد الملك بن حبيب السلمي.

6 - كتاب التاريخ، دراسة وتحقيق، خورخي أغوادي، مدريد، 1991.

* الحنبلي، القاضي مجير الدين.

7 - الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، النجف الأشرف، منشورات المطبعة الحيدرية، 1968، ج1. وج2، عمان، 1973.

* الخشني، محمد بن الحارث.

8 - أخبار الفقهاء والمحدثين، دراسة وتحقيق، ماريا لويسا ولويس مولينا، مدريد، 1992.

* ابن الخطيب، لسان الدين محمد.

9 - الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق، محمد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1974.

* ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر.

10 - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968.

* ابن خير، أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي الإشبيلي.

11 - فهرسة ما رواه عن شيوخه، نشر الشيخ فرانسشكة قدارة زيدين وخليان ربارة طرغوة، سرقسطة، 1893.

* ابن الزبير، أبو جعفر أحمد.

12 - صلة الصلة، نشر، ليفي بروفنسال، بيروت، مكتبة خياط، 1937.

* ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله المغربي المعافري الإشبيلي.

13 - أحكام القرآن، تحقيق، علي محمد البجاوي، القاهرة، 1972.

14 - الرحلة، نشر إحسان عباس جزءاً منها بعنوان: (رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل)، مجلة الأبحاث، ج2. وج3، بيروت، 1968.

15 - العواصم من القواسم، تحقيق، عمارة الطالبي، الجزائر، 1974.

* ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي.

16 - تاريخ علماء الأندلس، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966.

* ابن القاضي، أحمد بن القاضي المكناسي.

17 - جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973.

* الكتبي، محمد شاكر.

18 - فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1974.

* المقري، أحمد بن محمد.

19 - أزهار الرياض في أخبار عياض، المغرب والإمارات، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك 1978.

20 - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968.

* ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم.
21 - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق، جمال الدين الشيال، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1957.

(ب) المراجع الثانوية:

* بدر، أحمد.
22 - الأندلسيون والمغاربة في القدس، مجلة أوراق، العدد 4، مدريد، 1981.
* طه، عبد الواحد ذنون.
23 - نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1988.
* عباس، إحسان.
24 - الجانب السياسي من رحلة ابن العربي إلى المشرق، مجلة الأبحاث، بيروت، 1963، ج2.
* العسلي، كامل جميل.
25 - معاهد العلم في بيت المقدس، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، 1981.
* عبد المهدي، عبد الجليل حسن.
26 - الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، عمان، مكتبة الأقصى، 1980.
* معمر، نوري.
27 - الإمام أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد شيخ الحفاظ بالأندلس، الرباط، منشورات عكاظ، 1988.
28 - محمد بن وضاح القرطبي، الرباط، مكتبة المعارف، 1983.

صفحات مشرقة من التواصل الثقافي بين القدس العربية والإسلامية والغرب الإسلامي

نشر هذا البحث في مجلة الثقافة التي تصدرها الجامعة الأردنية
العدد التاسع والثلاثون، عمان 1996

لم تكن الحدود السياسية أو الجغرافية في العصر الوسيط تقف حائلاً أمام طالبي العلم من المسلمين في اختيار المركز العلمي الذي يودون الدراسة فيه. فكانوا يقصدون أكثر المواطن علماً، ويزورون أبرز العلماء وأشهرهم، ويجولون بحرّية في العالم الإسلامي، ثم يعودون إلى مواطنهم الأصلية، أو يفضلون البقاء في المراكز التي توجهوا إليها لميزاتها ومكانتها الدينية أو العلمية. ومن البديهي أن تكون مدينة القدس العربية الإسلامية مركزاً أساسياً لتوجه العلماء؛ لما كانت تتمتع به من مزايا دينية معروفة. فضلاً عن كونها مركزاً علمياً مرموقاً من مراكز المشرق الإسلامي، لهذا توجه العلماء المغاربة إليها من الأندلس وشمال أفريقيا.

ولقد سجل الأندلسيون نسبة عالية جداً من بين هؤلاء العلماء، ولا سيما في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد وما بعده، حتى وقوع

المدينة تحت ظل الاحتلال الصليبي سنة 492هـ/ 1099م. وكان يطغى على علاقات القدس بالعلماء الأندلسيين في هذه المرحلة طابع العطاء، بحيث ظلت هذه المدينة مركزاً ينهل منه الواردون من الأندلس ما شاؤوا من العلوم الدينية، ولا سيما في مجال الحديث النبوي الشريف، والكتب الخاصة بذلك، التي ألفها علماء القدس البارزون. من أمثال أبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي المتوفى سنة 490هـ/ 1096 ـ 1097م. ومن الجدير بالذكر أن الأندلسيين نقلوا كتابه الموسوم بـ: «المصباح والراعي إلى الفلاح في حديث رسول الله ﷺ». وقد استمرت رواية هذا الكتاب لمدة ليست بالقصيرة في الغرب الإسلامي. حتى وردت ضمن ما سمعه ابن خير الإشبيلي عن شيوخه في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد[1].

لكن عوامل الجذب إلى القدس العربية الإسلامية ازدادت بعد تحريرها من أيدي الصليبيين سنة 583هـ/ 1188م. ففضلاً عن المكانة العلمية والدينية المرموقة التي تتمتع بها هذه المدينة، كانت هناك عوامل أخرى سياسية وحضارية، منها ما له علاقة بأوضاع الأندلس، ومنها ما له علاقة بأوضاع المشرق بعد توحيد قوته في عهد الزنكيين والأيوبيين، ثم المماليك. وكان لإنشاء مؤسسات علمية كثيرة مثل المدارس، والزوايا، والخانقاوات، ودور الحديث، أثر كبير في توافد المغاربة على بلاد الشام بعامة، والقدس بخاصة. يضاف إلى ذلك ما عرف به أهل الشام من إكرامهم للغرباء واحتضانهم، ولا سيما الوافدين من المغرب، الأمر الذي شعر به ابن جبير في أثناء رحلته الأولى إلى بلاد الشام سنة 580هـ/

(1) ينظر: أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي الإشبيلي. فهرسة ما رواه عن شيوخه. نشر: الشيخ فرانسشكة قدارة زيدين وخليان ربارة طرغوة، سرقسطة، 1893، أعادت نشره في بيروت. دار الآفاق الجديدة 1979. ص159.

1184م، فكتب ينبه الأذهان بعد رجوعه إلى الأندلس، إلى أهمية الرحلة وطلب العلم للشباب المغربي. ونصحهم بالتوجه إلى بلاد الشام لهذا الغرض، ذاكراً أهم المميزات التي تجعل الفلاح من نصيب الراغبين في القيام بذلك[2].

وبطبيعة الحال، فإن هذه الدعوة لا يمكن أن تأتي إلا نتيجة اقتناع تام من قبل هذا العالم الأندلسي بمكانة بلاد الشام وأهميتها لإخوانه المغاربة. ولم تكن القدس بالتأكيد بعيدة عن تفكير ابن جبير في دعوته هذه، فلقد توجه إليها شخصياً فور سماعه بتحريرها من أيدي الصليبيين وزارها مرتين. ثم جعلها أحد مراكزه الأساسية للاستقرار في المشرق. بالإضافة إلى مكة المكرمة والإسكندرية في مصر. ويبدو أن دعوة ابن جبير لاقت استجابة واسعة من أبناء الغرب الإسلامي، فتوافدوا على بلاد الشام، ولا سيما القدس. وكانوا ينالون تسهيلات جيدة في عبورهم من مصر إلى فلسطين من طريق مركز (قطية) الحدودي. وقد استمرت هذه المعاملة الحسنة حتى عصر ابن بطوطة (توفي سنة 779هـ/ 1377م). الذي أشار إليها في رحلته المشهورة[3].

ولقد أثر علماء الغرب الإسلامي تأثيراً واضحاً في مجال الثقافة، ورفد الحركة العلمية في مدينة القدس. من هؤلاء مثلاً أبو بكر محمد بن علي المعروف بابن عربي، والملقب بـ(محيي الدين) و(الشيخ الأكبر)، الذي زار القدس في رحلته المشرقية في حدود سنة 598هـ/ 1221م. ثم

(2) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكتاني، **رحلة ابن جبير**، بيروت. منشورات دار ومكتبة الهلال، 1981. ص232 ـ 233.

(3) محمد بن عبد الله اللواتي المعروف بابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأقطار**، بيزوت القاهرة، دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب العربي (د. ت). ص43.

استقر به المقام في دمشق التي توفي فيها سنة 638هـ/ 1240م[4]. وعرف هذا العالم الأندلسي الأصل بكثرة مؤلفاته التي زادت على الأربعمائة كتاب، وبمذهبه القائم على الزهد والتصوف. وقد انتشرت مؤلفاته وآراؤه في القدس، وتداولها العلماء في أوقات لاحقة، ومنهم من درّسها، ولا سيما للخاصة من التلاميذ والمقربين.

كما اهتم المغاربة الوافدين بكلام ابن عربي ومنهم من كان يقرئ هذا الكلام على الرغم من الموقف العام المعارض[5]، من أمثال الشيخ القدوة خليفة بن مسعود بن موسى المغربي الجابري المالكي، إمام المالكية في المسجد الأقصى، الذي قدم من المغرب إلى بيت المقدس سنة 784هـ/ 1382م، وتولى مشيخة المغاربة فيها وإمامة المالكية في المسجد الأقصى الشريف وتوفي سنة 833هـ/ 1429م[6]. وهذا يدل على أن بعض المتصوفين في القدس كانوا يهتمون بابن عربي وآثاره، ولا سيما المغاربة منهم، كما يدل أيضاً على انتعاش الحركة الفكرية في القدس، وإلا كيف استطاع الشيخ خليفة أن يدرّس كلام ابن عربي. وذلك في الوقت الذي كان فيه الكثير من العلماء ينكرون لابن عربي ما يذهب إليه[7].

ولم تكن الأفكار الصوفية وحدها مجال اهتمام علماء المغاربة في

(4) ينظر: أسين بلاثيوس، **ابن عربي حياته ومذهبه**، ترجمة عبد الرحمن بدوي، الكويت، وكالة المطبوعات - بيروت. دار القلم، 1979. ص76، 85.

(5) محمد بن عبد الرحمن السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، بيروت، دار مكتبة الحياة: 3/ 187.

(6) مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل**. عمان مكتبة المحتسب، 1973: 2/ 247.

(7) ينظر: عبد الجليل حسن عبد المهدي، **الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي**، عمان. مكتبة الأقصى. 1980، ص35.

القدس، بل برزوا في مختلف العلوم، ولا سيما في اللغة العربية والفقه على مذهب الإمام مالك، والتفسير، والأصول، ولعل خير مثال على هؤلاء الشيخ جمال الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله البكري الشريشي، الذي رحل من الأندلس، فزار مصر والعراق والشام، وتولى مشيخة الصخرة في حرم القدس الشريف، ومشيخة الحرم، والمدرسة في القدس. ومن مؤلفاته: كتاب الاشتقاق، وشرح جليل لألفية ابن معط. وكان هذا العالم الجليل ذا خبرة بالتدريس، مارسه في القاهرة في المدرسة الفاضلية، وفي مدارس القدس، وفي دمشق حيث تولى مشيخة الرباط الناصري في الجبل حتى وفاته سنة 685هـ/ 1286[8].

وبرز علماء المغاربة في مجال التدريس في القدس الشريف. وكانت علوم القرآن ولا سيما القراءات، من أهم المواد التي اشتهروا فيها. ومنهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن غصن الإشبيلي، الذي مارس التدريس في بيت المقدس حتى وفاته سنة 721هـ/ 1323م. وله مصنفات في القراءات، منها «مختصر الكافي»[9]. وقد تصدر الشيخ الإمام شمس الدين عبد الواحد بن جبارة المغربي المالكي (توفي سنة 826هـ/ 1422م) لتدريس النحو في المسجد الأقصى، وكان أيضاً أديباً وشاعراً، وملماً بالنحو والحساب والفرائض وغيرها من العلوم التي تصدر لإقرائها في القدس[10].

وكان بعض علماء المغاربة يمارسون التدريس في القدس إضافة إلى

(8) ينظر عنه: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**. تحقيق محمد أبو الفضل أبراهيم. القاهرة مطبعة عيسى البابي الحلبي: 1/ 44 محمد بن أحمد المقري. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**. تحقيق إحسان عباس. بيروت دار صادر. 1968: 3/ 131، 627.

(9) **المصدر نفسه**: 2/ 207 ـ 208.

(10) **الأنس الجليل**: 3/ 258.

بعض الوظائف الدينية التي يؤدونها، أمثال شهاب الدين أحمد بن محمد المغربي الأصل، المالكي المذهب، المتوفى سنة 874هـ/ 1469م. الذي كان يشتغل بالأذان في المسجد الأقصى. ويدرّس فيه في الوقت نفسه. وكان من العدول في القدس[11]. لكن أبرز من اشتهر في مجال تولي الوظائف والتدريس في القدس كان الشيخ محمد بن خليفة بن مسعود المغربي الأصل (توفي سنة 889هـ/ 1484م)، الذي أسلفنا الإشارة إلى والده الشيخ القدوة خليفة. فقد تولى مشيخة المغاربة وإمامة المالكية في المسجد الأقصى، كما تولى التدريس في المدرسة الإسلامية بالقدس[12]. وقد استمر المغاربة في ممارسة التدريس بالقدس. ويبدو أنهم كانوا يعدون ذلك فخراً لا مثيل له، يذكرونه باعتزاز عند رجوعهم إلى بلادهم، ويدل كلام أحمد بن محمد المقري التلمساني (توفي سنة 1041هـ/ 1631م) على هذا بشكل واضح، بحيث يشير إلى زيارته للقدس وقيامه بالتدريس فيها بقوله: «... وألقيت عدة دروس بالأقصى والضخرة المنيفة»[13].

ولقد ساعد على استقرار المغاربة في القدس ما قام به بعض مواطنيهم من تعمير للزوايا وتخصيص أوقاف للوافدين منهم، مثال ذلك حبس بعض الأماكن في القدس وخارجها على المغاربة المقيمين في القدس الشريف أو القادمين إليه، من قبل العالم أبي مدين شعيب بن المجاهد أبي عبد الله محمد بن الشيخ أبي مدين شعيب المغربي. وذلك سنة 720هـ/ 1320م[14]. كذلك أوقف الشيخ العابد المجاهد عمر المجرد بن

(11) **المصدر نفسه**: 2/ 250.

(12) **المصدر نفسه**: 2/ 252: السخاوي. **الضوء اللامع**: 8/ 44.

(13) المقري. **نفح الطيب**: 1/ 57.

(14) عبد الهادي التازي، **أوقاف المغاربة في القدس**. المحمدية. مطبعة فضالة، 1981، ص14: كامل جميل العسلي. معاهد العلم في بيت المقدس. عمان. جمعية عمال المطابع التعاونية. 1981. ص347.

عبد الله بن عبد النبي المغربي المصمودي، زاوية في القدس، أنشأها من ماله الخاص، في حارة يكثر فيها المغاربة، عرفت بحارة المغاربة، وقد توفي هذا الشيخ سنة 703هـ/ 1303م[15].

ولم يقتصر دور هذه الزوايا على الأمور الاجتماعية التي تتضمن إطعام المغاربة وإيواءهم فحسب، بل كانت تتمتع بمركز ديني وعلمي أيضاً. بحيث تقام فيها الأذكار والأوراد والأدعية، كما تعقد فيها المجالس العلمية، ويدرّس فيها التصوف، والقراءات والتفسير والحديث واللغة والأدب والتوقيت والمنطق وغير ذلك. ولا شك في أن تدريس هذه الموضوعات يعكس مدى الدور الفكري والثقافي الذي قامت به هذه الزوايا في مدينة القدس العربية الإسلامية[16].

ويضاف إلى هذه الزوايا ما كانت تقوم به مؤسسات أخرى تنسب إلى المغاربة مثل بعض المساجد، ومدرسة المالكية. وهو ما تحدث عنه بعض الرحالة المغاربة الذين زاروا القدس، أمثال خالد البلوي، الذي زارها سنة 737هـ/ 1336م، وأشار إلى وجود مسجد حسن للمالكية يسمى بمسجد المغاربة، تقام فيه صلاة المالكية[17]. كذلك أشار ابن بطوطة في أثناء زيارته لمدينة القدس إلى التقائه أحد الأندلسيين الذين كانوا يدرّسون في المدرسة الملكية أو المالكية المنشأة سنة 741هـ/ 1340م زمن الناصر محمد بن قلاوون، وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس[18]. وقد التقى خالد البلوي أيضاً هذا العالم، وقال عنه: «إنه

(15) **الأنس الجليل**: 2/ 45: التازي، **أوقاف المغاربة في القدس**، ص19.

(16) ينظر: عبد المهدي، **الحركة الفكرية**، ص76.

(17) خالد بن عيسى البلوي، **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، تحقيق. حسن السائح، المحمدية. مطبعة فضالة (د. ت): 1/ 248.

(18) رحلة ابن بطوطة، ص46: وينظر أيضاً: العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص231.

رحل شاباً من الأندلس، لكنه نبغ في القدس ورزق بالمال والأولاد، منهم الآن بذلك الحرم الشريف من هو من خيار المدرسين وكبار الرؤساء لا المرؤوسين. كثيراً ما كنت أحضر مجالسه العلمية ودروسه الفقهية والنحوية. . .»[19].

وأدت القدس أيضاً دوراً بارزاً بصفتها مركزاً لالتقاء مختلف العلماء الذين كانوا يأتون إليها من أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي، فقد لقي فيها الرحالة خالد البلوي، العالم جمال الدين أبا بكر محمد بن محمد بن الحسن بن نباتة، الذي جاءها من دمشق، فأجاز له رواية شعره في القدس سنة 737هـ/ 1336م[20]. كذلك مرّ بها الشيخ تاج الدين بن حمويه السرخسي. في طريقه إلى المغرب سنة 593هـ/ 1196م، حيث التقى هناك في مراكش الخليفة الموحدي ابن يوسف يعقوب المنصور. وألف له كتاباً بعنوان: **عطف الذيل**. وهو كتاب تاريخ في سيرة دولة الموحدين وأحوالهم في عهد هذا الخليفة. وفضلاً عن التاريخ كان السرخسي ملماً بعلوم أخرى لا بد من أنه نقلها إلى المغرب[21]، الأمر الذي ساعد، بالتأكيد، على تقوية الروابط الثقافية بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه. وتعد رحلته من الأمثلة البارزة على الزيارات المعاكسة التي تمت من بلاد الشام إلى المغرب. ولا ننسى في هذا المجال دور مدينة القدس التي مرّ بها في طريق رحلته، والتقى علماءها وأخذ عنهم، فساعد ذلك على إغناء تكوينه الثقافي، وإلمامه بعلوم عصره.

وبالنظر إلى المكانة المقدسة لمدينة القدس في نفوس المغاربة، فقد قام أحد سلاطين المرينيين، أبو الحسن علي بن عثمان المريني (721 ـ

(19) البلوي، **تاج المفرق**: 1/ 267.
(20) **المصدر نفسه**: 1/ 270.
(21) المقري، **نفح الطيب**: 3/ 101 ـ 102.

752هـ/ 1321 ـ 1351م) بكتابة مصحف شريف بخطه وأرسله إلى المسجد الأقصى. وهو أحد ثلاثة مصاحف كتبها وأرسلها إلى كل من المساجد الثلاثة التي يشد إليها الرحال، وأوقف عليها أوقافاً جليلة[22]. ويذكر المقري أنه رأى هذا المصحف في القدس، وأعجب بربعته (أي ظرفه) التي هي في غاية الصنعة[23]. وقد استمر وجود هذا المصحف في مدينة القدس إلى الوقت الحاضر، لكن بعض أجزاء ربعة أبي الحسن المرينة تعرضت للضياع. بعد نقلها من خزانة الصخرة المشرفة إلى المتحف الإسلامي في القدس[24].

ولم ينقطع التواصل بين القدس العربية والغرب الإسلامي حتى يومنا هذا. ونكتفي بالرجوع إلى مثال أخير يعود إلى عهد السعديين في المغرب. فقد جاء أديب زمانه الشيخ إمام الدين الخليلي من بيت المقدس إلى بلاط السلطان أحمد المنصور الذهبي السعدي المتوفى 1012هـ/ 1603م، الذي كان معروفاً بقرض الشعر. وقد اتفق لإمام الدين هذا أن اجتمع في حضرة المنصور باثنين من مشاهير مكة والمدينة، فقال إمام الدين: يا أمير المؤمنين، إن المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال ـ شد أهلها إليك الرحال. هذا مكيّ، وذاك مدني، وأنا مقدسي. ثم أنشد:

إن أمير المؤمنين أحمد … بحر الندى وفضله لا يجحد
فطيبة ومكة أهلهما … والمسجد الأقصى بذاك يشهد[25]

(22) محمد بن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح في مآمر مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص475.
(23) المقري، **نفح الطيب**: 4/ 400.
(24) ينظر: عبد الهادي التازي، **حي المغاربة في القدس**. فصل في موسوعة العتبات المقدسة. قسم القدس، م1، تحرير جعفر الخليلي. بغداد. دار المعارف، 1971، ص104: عبد المهدي، الحركة الفكرية، ص265، 268 (هامش 29).
(25) المقري، **نفح الطيب**: 7/ 80 ـ 81.

وهذا المثال الأخير هو أيضاً من ضمن الزيارات المعاكسة من القدس إلى المغرب، ولا يخفى أن زخم التبادل الثقافي والوفادات كان دائماً في صالح القدس العربية الإسلامية، لما تمثله من قدسية، ساعدت على اعتبارها منطقة جذب واسعة النطاق لرواد العالم والثقافة القادمين من الغرب الإسلامي على مر العصور.

صور من التأثير العلمي بين الموصل والأندلس

تميز علماء الغرب الإسلامي بعامة، والأندلس بخاصة، بكثرة رحلاتهم العلمية إلى المشرق، لطلب العلم. فما من عالم من علمائهم إلا وكانت له رحلة، باستثناء القليل منهم. وترجع أهمية هذه الظاهرة الحضارية إلى أنها من الممارسات التي أكد عليها الدين الإسلامي، الذي طالب معتنقيه بالرحلة في سبيل العلم. فقد كان من المعتقد، أن اكتمال العلم لا يتم إلا بالرحلة إليه[1]. «فالرحلة»، كما يقول ابن خلدون[2]، «لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال». فطلب العلم والاتصال بالعلماء من البلاد الأخرى يزيد في اكتمال التعليم، وعلى قدر كثرة الشيوخ وتعددهم يكون حصول ملكات التعلم ورسوخها في ذهن طالب العلم. وتحقق الرحلات العلمية فضلاً

---

(1) ينظر بدر الدين بن أبي إسحاق بن جماعة، **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**، حيدر آباد الدكن، 1934، ص70.

(2) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (د. ت)، ص541.

عن ذلك فوائد أخرى كثيرة، منها: أن لقاء العلماء والسماع منهم، والأخذ عنهم، والاطلاع على مؤلفاتهم وحملها يزيد في علو السند للراحل، ولا سيما أن غالبية العلماء الراحلين، كانوا في أول الأمر يطلبون الأحاديث النبوية الشريفة التي هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم. فمن طريق الرحلة يزيد اتصال العلوم «رواية، أو دراية من بلد إلى آخر»[3]. يُضاف إلى ذلك أن الاطلاع على خزائن الكتب، والإفادة من كنوزها، يوفر للعالم الراحل، فرصة نادرة قد لا تتوافر في بلده.

وبالنظر إلى وجود الأماكن المقدسة في المشرق الإسلامي، وإلى أن فريضة الحج تحتم على المسلمين زيارة هذه الأماكن لمن استطاع إليها سبيلاً، فكان العلماء الراحلون يتوجهون بعد أداء الفريضة إلى الحواضر العلمية المختلفة في المشرق، وهي كثيرة في العراق، وخراسان، وبلاد الشام، ومصر. وكان العراق يحظى بعدد كبير من هؤلاء العلماء، الذين قصدوا مختلف مراكزه العلمية، بدءاً ببغداد، والكوفة والبصرة، وانتقالاً إلى واسط والأنبار وتكريت والموصل وسنجار وغيرها. ولا عجب، فقد كان العراق معروفاً بعلو المكانة والرفعة في العلوم، ومشهوداً له في كل مكان من مشرق العالم الإسلامي ومغربه. ونخص بالذكر هنا أهل الأندلس، وكتّابهم وعلماءهم، الذين كانوا يعرفونه حق المعرفة، ويشيدون بحاضرته بغداد وأهلها. فهذا ابن غالب الأندلسي[4]، حين يريد أن يمدح

(3) ينظر: ناطق صالح مطلوب، **الرحلة في طلب العلم والحياة الثقافية في الموصل**، بحث ضمن: **موسوعة الموصل الحضارية**، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1992: 2/ 353.

(4) محمد بن أيوب بن غالب، «نص جديد قطعه من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب»، تحقيق، لطفي عبد البديع، **مجلة معهد المخطوطات العربية**، المجلد الأول، الجزء الثاني، القاهرة، 1955 ـ 1956، ص281.

أهل بلده الأندلس، يقارنهم بأهل بغداد، فيقول: «بغداديون في نباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم، ونفوذ خواطرهم ورقّة أخلاقهم وظرفهم ونظافتهم». أما ابن حزم الأندلسي[5]، فيصف العراق بأنها «دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها». ويقول عن بغداد في نص آخر، يشير بوضوح إلى سبقها في مجال العلم والمعرفة والفهم: «وهذه بغداد حاضرة الدنيا ومعدن كل فضيلة، والمحلة التي سبق أهلها إلى حملها ألوية المعارف والتدقيق في تصريف العلوم، ورقّة الأخلاق والنباهة والذكاء، وحدة الأفكار ونفاذ الخواطر»[6].

ولن ننساق في هذا البحث إلى المزيد من التوسع والتعرض إلى مركز بغداد في مجال العلم والمعرفة، وكثرة القاصدين إليها من العلماء، ولن نسهب أيضاً في الكلام عن غيرها من مدن العراق ومراكزه العلمية، مثل مدرستي الكوفة والبصرة، اللتين ذاع صيتهما في الآفاق، وقصدهما طالبو العلم من كل مكان، بل سنركز على مدينة واحدة، هي الموصل التي امتلكت هي، وكما عبّر باحث نبيه[7]، إرثاً حضارياً عميق الجذور في العلوم الإسلامية المختلفة، وأصبحت من أهم مراكز الاستقطاب في العالم الإسلامي، ومحطاً لطلاب العلم والمعرفة، وموطناً للعلماء من المدن والبلدان كافة، فضلاً عن علمائها الذين رحلوا إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي لطلب العلم. ولم تكن الأندلس بعيدة عن تصور علماء الموصل، أو عن إدراكهم، فوصل إليها بعضهم، واختلطوا بعلمائها،

(5) **رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها**، منشورة ضمن كتاب: **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، 1981: 2/ 187.

(6) **المصدر نفسه**: 2/ 176.

(7) مطلوب، **المرجع السابق**: 2/ 354.

وتحاوروا معهم، وأثّر هؤلاء في الأندلسيين وتأثروا بهم، كما أثّر الأندلسيون في الموصل وتأثروا بها أثناء رحلتهم إليها وتواجدهم فيها.

فما هي عوامل الجذب بين الطرفين؟ وهل كانت عوامل تخص غالبية الراحلين إلى المشرق، أم كانت هناك دوافع خاصة للتوجه من قبل بعض علماء الأندلس إلى الموصل، وبعض علماء الموصل إلى الأندلس؟ ويمكن الإجابة عن بعض هذه التساؤلات، ولا سيما بالنسبة إلى العوامل والدوافع الأساسية العامة لرحلة العلماء الأندلسيين إلى المشرق، مثل أداء فريضة الحج، وطلب العلم من منابعه الأصلية، وكذلك زيارة بيت المقدس، باعتباره مركز جذب أكثر من غيره من مدن المشرق، وكان يأتي في مقدمة المناطق التي زارها الأندلسيون بعد أدائهم لفريضة الحج[8]. كما حددت رحلة الحج أيضاً وجهة الأندلسيين إلى المشرق، فهم لم يختاروا المناطق التي دخلوها لطلب العلم، بل كانوا مرهونين بطريق الحج التقليدي بين الأندلس والحجاز، والذي يمر بالمغرب العربي ثم مصر، ومنها إلى الحجاز عبر البحر الأحمر. وبعد أداء الفريضة خرجوا في زيارات للعراق، وبلاد الشام، وغيرها من أقطاب العالم الإسلامي[9]. وكانت الموصل تمثل أحد هذه الأقطاب المقصودة، بالنسبة إلى عدد لا بأس به من الأندلسيين.

فهل كانت الحياة العلمية والثقافية في الموصل تمثل جانباً من الدوافع الخاصة التي شجعت الراحلين الأندلسيين على القدوم إليها؟ وإن كان ذلك صحيحاً فما هي العلوم التي تميزت بها هذه المدينة، وأصبحت

(8) عبد الواحد ذنون طه، «الصلات الثقافية بين القدس العربية الإسلامية والأندلس»، منشور ضمن أبحاث: **الندوة السادسة ليوم القدس**، عمان، 1995، ص133 ـ 149.

(9) علياء هاشم ذنون المشهداني، **صلة الأندلس الثقافية بالمشرق في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد من خلال الرحلة العلمية**، رسالة ماجستير غير منشورة أُعدت بإشراف كاتب هذا البحث، كلية التربية، جامعة الموصل، 1997، ص41.

عوامل جذب ساعدت على استقطاب الأندلسيين وغيرهم؟ الحقيقة أن منطقة الموصل عُرفت منذ القدم أنها كانت مركزاً حضارياً متقدماً، وتتمتع بوضعية ثقافية وعلمية جيدة، ولا سيما بعد انتشار المسيحية. فقد كانت هناك حركة علمية في الموصل، وبقية المدن والقرى الكبيرة التي كانت تضم إمارة حدياب التي امتدت بين الزابين، من نصيبين إلى الشرقاط. وكانت المنطقة تتمتع بوجود بعض المدارس التي تعتمد على أوقاف خاصة بها، ولها قوانين ونظم لإدارتها، كما كان يُشرف عليها بعض العلماء البارزين[10]. ومن المحتمل أن هذه المدارس كانت ملحقة ببعض الأديرة والكنائس الموجودة في المنطقة، وتعمل ضمن النشاط الديني العام لها، فضلاً عن الاهتمام ببعض الآداب اليونانية وغيرها من العلوم[11]. وربما كانت هذه المدارس تعبِّر عن حالات خاصة ببعض الأديرة والكنائس، ولكن في أي حال، يمكن القول إن الأرضية الثقافية في الموصل كانت خصبة ومهيأة لتلقّي المزيد من العلوم التي سرعان ما انتشرت بعد التحرير واستقرار المنطقة.

أما في الحقبة الإسلامية المبكرة، فكانت العلوم الدينية هي السائدة، وهي تدرَّس في المساجد، ولا تختلف حال الموصل في هذا الأمر عن بقية المدن الإسلامية الأخرى، حيث كان الشيخ يجلس في المسجد وحوله الطلبة الآخذون منه على شكل حلقة تكبر أو تصغر بحسب قدر الشيخ. وتتوافر معلومات كثيرة عن هذه المجالس والحلقات بالنسبة إلى المراكز والأمصار الرئيسية في الدولة العربية الإسلامية[12]، أما بالنسبة إلى الموصل فليس لدينا معلومات محددة، لكن هناك إشارات إلى وجود

(10) سليمان الصائغ، **تاريخ الموصل**، مصر، المطبعة السلفية، 1: 1923/ 90؛ وينظر أيضاً: 2/ 19 (بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1929).

(11) أحمد أمين، **فجر الإسلام**، ط8، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1961، ص182.

(12) **المرجع نفسه**، ص165.

بعض العلماء المحدثين الذين عُرف عنهم رواية الحديث وإقراؤه، ولهذا فمن المؤكد أن هؤلاء قد مارسوا الدور نفسه في نقل العلوم الدينية، ولا سيما علم الحديث. ومن هؤلاء سعيد بن عبد الملك بن مروان، ويعرف بسعيد الخير، لصلاحه وحبه للخير والعمران[13]. ومنهم أيضاً معروف بن أبي معروف (ت 133هـ/ 750م)، الذي كان عابداً زاهداً، روى عن الكثير من الصحابة والتابعين، مثل عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وعبد الله بن عمر، وعطاء، ومجاهد، والحسن البصري، والمغيرة بن زياد الموصلي، وغيرهم[14].

ويشير أبو زكريا الأزدي (ت 298هـ/ 910م)[15]، إلى محدثين آخرين برزوا في علم الحديث بالموصل خلال العصر الأموي، منهم الحارث بن الجارود العتكي (ت 151هـ/ 768م)، الذي كان منزله ملاصقاً لباب المسجد الجامع تحت المنارة، ما يُسهل عليه نشر علمه وفقهه في هذا المسجد. وقد روى عن الزهري، وقتادة، وعطاء، وغيرهم. ومن المحدثين الآخرين، معمر بن محمد التميمي، الذي روى عنه المعافى بن عمران وغيره من أهل الموصل، وأصبح فيما بعد قاضياً للموصل في عهد أبي جعفر المنصور، وتوفي سنة 144هـ/ 761م[16]. ونشير أخيراً إلى أبرز علماء القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد في هذه المدينة، وهو المعافى بن عمران الأزدي (ت 184هـ/ 800م)، فقيه الموصل، الذي كان ناسكاً

(13) ينظر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، هذبه الشيخ عبد القادر أفندي بدران، ط2، بيروت، دار المسيرة، 1979: 6/ 155.

(14) أبو زكريا يزيد بن محمد بن أياس الأزدي، **تاريخ الموصل**، تحقيق، علي حبيبة، القاهرة، لجنة التراث الإسلامي، 1967: 2/ 151؛ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، بيروت، دار صادر، 1979: 5/ 444.

(15) **تاريخ الموصل**: 2/ 199، 216.

(16) **المصدر نفسه**: 2/ 173، 181.

فاضلاً، «قال عنه سفيان الثوري: المعافى بن عمران ياقوتة العلماء، وقال: امتحنوا أهل الموصل بالمعافى بن عمران فمن ذكره بخير قلت: هؤلاء أصحاب السُّنة والجماعة، ومن عابه قلت: هؤلاء أصحاب البدع...»[17].

إن ما أسلفنا ذكره يشير إلى أن الموصل أضحت منذ القرن الثاني للهجرة أحد المراكز الهامة في الدولة العربية الإسلامية، واعتمدت الرواية والإملاء وسيلة لطلب العلم ونشره في هذه الحقبة المبكرة. لكنها لم تقتصر على ذلك، فقد نشطت فيها حركة التأليف، ولا سيما بعد انتشار استعمال الورق. وكان علما الحديث والتاريخ من أقدم العلوم التي أَلَّف فيها الموصليون. مثال ذلك ابن عمار الموصلي (ت 242هـ/ 856م)، الذي أَلَّف كتاباً أسماه **العلل والرجال**، وهو دراسة في تراجم رجال الحديث. كما أَلَّف أبو زكريا الأزدي كتباً عديدة، منها: كتاب **تاريخ الموصل**، وكتاب **طبقات محدثي أهل الموصل**، و**طبقات العلماء من أهل الموصل**، وغيرها[18]. وتواصلت عملية تأليف الكتب في القرون التالية، وازداد عدد العلماء في كل الاختصاصات الإسلامية المعروفة، مثل علوم القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والفقه، واللغة، والآداب، والتاريخ، والجغرافية، فضلاً عن العلوم العقلية الأخرى، مثل الطب، والفلك، والفلسفة، وغيرها[19]. وقد أشار المؤرخ الموصلي المعروف بابن الأثير (ت 630هـ/ 1232م) إلى تعدد علمائها قائلاً: «خرج فيها جماعة من العلماء

(17) **المصدر نفسه**: 2/ 301.

(18) ينظر: سعيد الديوه جي، **تاريخ الموصل**، دار الكتب للطباعة والنشر، 1982: 1/ 211 - 213؛ هاشم يحيى الملاح، «معالم الثقافة العربية الإسلامية»، بحث ضمن: **موسوعة الموصل الحضارية**، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1992: 2/ 349.

(19) ينظر: الديوه جي، **المرجع السابق**: 1/ 209 - 218؛ والبحث الخاص بالعلم والأدب، ص373 - 400.

والأئمة في كل علم...»[20]. كما أشار ياقوت الحموي (ت 626هـ/ 1228م) أيضاً إلى عدم إمكانية إحصاء من ينسب إلى أهل الموصل من أهل العلم، لأنهم «أكثر من أن يُحصوا»[21].

ومن المفيد أن نشير هنا إلى أحد هؤلاء العلماء الذين برزوا في القرنين الثالث والرابع للهجرة/ التاسع والعاشر للميلاد، وهو جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي (ت 240 ـ 323هـ/ 854 ـ 934م) الذي تميز بكونه أحد الشخصيات المشهورة في الموصل بالعلم والأدب، فضلاً عن أنه كان «كبير المحل من أهل الرياسات بالموصل». فقد قام بتأسيس «**دار علم**» تحوي مؤلفات في جميع العلوم، وأوقفها على كل طالب للعلم، لا يمنع أحداً من دخولها والاستفادة منها. وكانت تفتح كل يوم، ويجلس فيها، فيجتمع إليه الناس، فيملي عليهم من شعره وشعر غيره. لأنه كان شاعراً فقيهاً، له عدة كتب في فقه الشافعي، وله في الأدب: كتاب **الباهر في أشعار المُحدثين**، وكتاب **الشعر والشعراء**، وكتاب **محاسن أشعار المحدثين**[22].

أما بالنسبة إلى المدارس، فقد تم إنشاء أول مدرسة في الموصل لتدريس الفقه الشافعي، قام بإنشائها نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (ت 485هـ/ 1092م) وذلك منذ عام (459هـ/ 1066م) واختار للتدريس فيها، أبا بكر الخالدي محمد بن أبي علي المعروف بالسَّديد

(20) ابن الأثير، **اللباب في تهذيب الأنساب**، بغداد، (د. ت): 3/ 269.

(21) أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر، 1977: 5/ 224.

(22) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، بيروت، دار المستشرق، (د. ت): 7/ 190، 192 ـ 193؛ وينظر أيضاً: غانم عبد الله خلف، **دور الحكمة**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ص89.

قاضي الموصل[23]. ثم توالى بعد ذلك إنشاء المدارس، ولا سيما في العهد الأتابكي، بحيث ابتدأ هذه العملية سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي (ت 544هـ/ 1149م) فأنشأ المدرسة الأتابكية العتيقة، في حدود هذا التاريخ، وقد أوقفها على الفقهاء الشافعية والحنفية بالتساوي، ثم ازداد عدد هذه المدارس المقامة في الموصل، حتى بلغ نحو سبع عشرة مدرسة[24]. وقد أشار ابن جبير إلى هذه المدارس التي شاهد بعضها عندما مر بالموصل سنة 580هـ/ 1184م، فقال: «وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة، فتلوح كأنها القصور المشرفة»[25]. وبالإضافة إلى هذه المدارس، فقد كانت هناك أماكن تدريس أخرى في المساجد والجوامع القديمة والجديدة، وفي دور الحديث المستحدثة، وربط العلماء والمقرئين والمتصوفة[26]. الأمر الذي كان له أبعد الأثر في تشجيع الحركة العلمية في الموصل، ما جعل هذه المدينة مقصداً للعلماء الراحلين الذين يطلبون العلم في ربوعها.

نماذج من الأندلسيين القادمين إلى الموصل:

إن ما أشرنا إليه أعلاه يشكل بطبيعة الحال دافعاً قوياً لبعض الراحلين الأندلسيين، للقدوم إلى الموصل، والاستفادة من نهضتها العلمية، وعطاء علمائها المتميز. ويمكن تصنيف الأندلسيين الداخلين إلى

(23) ناجي معروف، **علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي**، بغداد، مطبعة الإرشاد، 1973، ص148.

(24) ينظر: الديوه جي، **المرجع السابق**: 1/ 344 ـ 351؛ معروف، **المرجع السابق**، ص148 ـ 186؛ عبد الجبار حامد أحمد **الحياة العلمية في الموصل في عصر الأتابكة**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، 1986، ص116 ـ 115.

(25) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، **رحلة ابن جبير**، بيروت، منشورات دار ومكتبة الهلال، 1981، ص189.

(26) ينظر: أحمد، **الحياة العلمية في الموصل**، ص95 ـ 110.

الموصل إلى صنفين: أحدهما دخل الأندلس في مقتبل حياته العلمية لطلب العلم والسماع من علمائها، والثاني دخلها بعد نضج شخصيته العلمية، التي اكتسبها من بلده، ومن حواضر العالم الإسلامي الأخرى، فمارس فيها التدريس. وهناك من شذ عن هذين الصنفين، فدخلها لاستكمال جولاته، ولحبّه للرحلات والاطلاع، مثل ابن جبير الأندلسي، الذي عددناه ضمن المجموعة الأولى، على الرغم من عدم بقائه في الموصل لمدة طويلة، لكنه كان بالأصل طالباً للعلم والسماع.

(أ) ـ القادمون إليها من طلبة العلم والسماع:

ويتوزع هؤلاء على أربعة قرون، ابتداء من القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، إلى نهاية القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد. وينفرد عن هؤلاء بعض الراحلين في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، مثل إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم الغرناطي النحوي، الذي كان حياً سنة 768هـ/ 1366م، ودخل الموصل وأخذ الحديث عن الأمير المحدّث قطب الدين بن إسحاق النوري صاحب الموصل، وتمهر فيه على طريقة أهل المشرق. وله قصيدة يمدح فيها هذا الأمير[27].

ولا تشير المصادر المتيسرة إلا إلى عدد محدود من الأندلسيين الذين رحلوا إلى الموصل في أوقات مبكرة، منهم على سبيل المثال، اثنان من

(27) وينفرد عن هؤلاء أحد الراحلين في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، وهو إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم الغرناطي النحوي الذي كان حياً سنة 768هـ/ 1366م، والذي دخل الموصل، وأخذ الحديث عن الأمير المحدّث قطب الدين بن إسحاق النوري صاحب الموصل، وتمهر فيه على طريقة أهل المشرق، وله قصيدة يمدح فيها هذا الأمير، ينظر: أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار صادر: 7/ 108 ـ 111؛ ويقارن: مطلوب، **المرجع السابق**: 2/ 368.

القرن الرابع للهجرة، وهما: أحمد بن دحيم بن خليل، من أهل قرطبة، وكان معروفاً في بلده بالعناية بالحديث والرأي والمعرفة بهما، رحل حاجاً سنة 315هـ/ 927م، ودخل بغداد سنة 316هـ/ 928م، وزار تكريت والموصل، ربما في السنة التالية، أي 317هـ/ 929م، ومر ببلاد الشام، ومصر، ثم عاد إلى الأندلس سنة 319هـ/ 931م. ولد في سنة 278هـ/ 891م، وتوفي وهو على قضاء كورة إلبيرة سنة 338هـ/ 949م. وقد سمع الحديث في الموصل من نصر بن أحمد بن خلف بن يزيد العمري، كما سمع ببلد من موصلي آخر، يدعى أبو محمد عبد الله بن أبي سفيان الموصلي[28].

أما الأندلسي الثاني الذي زار الموصل في القرن الرابع للهجرة، لطلب العلم، فهو إبراهيم بن بكر بن عمران بن عبد العزيز اللخمي الألبيري، الذي رحل إلى المشرق، ودخل العراق، وسمع بالموصل من أبي الفتح محمد بن الحسين بن أحمد الأزدي الحافظ (ت 374هـ/ 984م). وكان أبو الفتح هذا حافظاً صنّف في علوم الحديث، وله كتاب كبير في الجرح والتعديل، يُعرف بـ**الضعفاء والمتروكين**[29]. وقد رجع إبراهيم بن بكر إلى الأندلس، وتنقل بين بجانة وإلبيرة، ثم استقر في إشبيلية، وتوفي فيها سنة 385هـ/ 995م[30].

(28) محمد بن حارث الخشني، **أخبار الفقهاء والمحدثين**، دراسة وتحقيق، ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية/ معهد التعاون مع العالم العربي، 1992، ص27 ـ 30؛ إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي، **الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب**، تحقيق، محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، دار التراث، 1977: 1/ 171.

(29) ينظر: أبو بكر محمد بن خير بن عمر الإشبيلي، **فهرسة ما رواه عن شيوخه**، تحقيق، فرانسشكة قدارة زيدين وخليان ربارة طرغوة، ط2، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1979، عن طبعة سرقسطة، 1893، ص211.

(30) عبد الله بن محمد بن الفرضي، **تاريخ علماء الأندلس**، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، 1966: 1/ 19 ـ 20.

ومن الذين جاؤوا إلى الموصل في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الحداد الأنصاري البلنسي، الذي رحل من الأندلس سنة 452هـ/ 1060م، فحج وطلب العلم، ودخل بلاد فارس وخراسان، والعراق، ولا سيما واسط وبغداد والموصل. ولا تتوافر لدينا معلومات عن نشاطه في الموصل، لكنه رجع إلى بلده من طريق مصر، ثم هاجر إلى المغرب، وله مناظرات مع علمائه هناك تدل على سعة علمه وقوة شخصيته التي اكتسبها ولا شك من طلبه للعلم في رحلته المشرقية[31].

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن أشهر شخصية أندلسية دخلت الموصل في القرن الخامس للهجرة هي شخصية العالم أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي الأندلسي (ت 474هـ/ 1081م)، الذي رحل إلى المشرق سنة 426هـ/ 1034م، وتنقل بين مختلف مدنه، مثل مكة وبغداد والموصل وحلب[32]. ويهمنا من جولته في الموصل التي دامت نحو سنة كاملة، اهتم فيها بطلب الفقه على مختلف المذاهب. وتشير غالبية المصادر إلى اتصاله بأبي جعفر محمد بن أحمد بن محمد السّمناني، قاضي الموصل، وشيخ الحنفية وأحد العلماء المشهورين فيها (ت 444هـ/ 1052م)[33]. فقد أخذ عنه الفقه[34]،

(31) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، **التكملة لكتاب الصلة**، عني بنشره، عزت العطار الحسيني، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1955 ـ 1956: 1/ 23.

(32) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1978 ـ 1979، المجلد الثاني/ القسم الأول، ص94 ـ 97.

(33) صلاح الدين الصفدي، **الوافي بالوفيات**، استانبول، 1931: 2/ 65؛ أبو العدل زين الدين قاسم بن قطلوبغا، **تاج التراجم في طبقات الحنفية**، بغداد، 1962، ص61؛ الديوه جي، **المرجع السابق**: 1/ 208.

(34) أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، كتاب **الصلة**، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، 1966: 1/ 201؛ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد =

والأصول[35]، وعلم الكلام[36]، والعقليات[37]. فبرع في الحديث وعلله ورجاله، وفي الفقه وغوامضه وخلافه، وفي علم الكلام ودروبه، ورجع إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً بعلم جم، حصّله مع الفقر والتعفف[38]. وقد ألف في الأندلس كتباً كثيرة، ضمنها خبرته وعلمه الذي اكتسبه من المشرق بعامة، ومن الموصل بخاصة. ومن كتبه كتاب **السواد الأعظم في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة**[39]، «ولا يستبعد»، كما أشار باحث نبيه، «إفادة أبي الوليد الباجي من شيوخه الحنفية، ومنهم السّمناني في شرح وإتمام هذا الكتاب والمؤلفات التي ألفها في الأصول والكلام، مثل **التسديد إلى معرفة التوحيد**، **وأحكام الفصول**، وكتاب **الإشارة**، وكتاب **الحدود**»[40].

وتشير المصادر إلى عدد من العلماء الأندلسيين الذين مروا بالموصل، أو أقاموا فيها في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، منهم محمد بن أحمد بن إبراهيم بن لواء الأنصاري الجياني (توفي في فاس سنة 546هـ/ 1151م)، الذي رحل إلى المشرق، فزار الاسكندرية، ومكة، وبغداد، والموصل، والشام. لكنه، وكما يبدو، قد فضل البقاء

= ابن أبي بكر بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (د. ت): 2/ 409.

(35) عياض بن موسى بن عياض السبتي، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق، سعيد أحمد أعراب، تطوان، مطابع الشويخ، 1983: 8/ 118.

(36) المقري، **المصدر السابق**: 2/ 71.

(37) شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، ط3، حيدر آباد الدكن، 1957 ـ 1958: 3/ 1179.

(38) المقري، **المصدر السابق**: 2/ 71.

(39) كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة، عبد الحليم النجار، القاهرة، 1969: 3/ 268.

(40) ينظر: مطلوب، **المرجع السابق**: 2/ 364.

لفترة طويلة في بغداد، حتى إنه عُرف بعد رجوعه إلى مدينته جيان باسم البغدادي، وله مسجد هناك يُعرف أيضاً بمسجد البغدادي. ولا نعرف مقدار مكوثه بالموصل، أو أسماء العلماء الذين اتصل بهم. وقد أشار محمد بن عبد الملك الأنصاري[41]، إلى دخوله الموصل، في حين لم يرد ذكر ذلك عند بقية من ترجم له من المصادر[42]. ومن الذين دخلوا الموصل أيضاً أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن عمر القرشي العلوي الإشبيلي، الذي كان يُقيّد ويروي الكثير، ولدينا معلومات عن طلبه للسماع في مكة سنة 570هـ/ 1174م. ومن المحتمل أنه طلب ذلك في الموصل أيضاً وغيرها من المدن التي مر بها[43].

وعلى الرغم من اشتهار أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (ت بالاسكندرية سنة 614هـ/ 1217م)[44] بالفقه والحديث والمشاركة في الآداب، نجد أنه لا يشير إلى سماعه أو طلبه للعلم في الموصل، أثناء مروره بها سنة 580هـ/ 1184م، وربما كان ذلك يعود إلى

(41) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1965، السفر الخامس/ القسم الأول، ص582 ـ 584.

(42) ينظر: ابن الأبار، **المصدر السابق**: 2/ 474 ـ 475؛ المقري، **المصدر السابق**: 2/ 156؛ أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي المعروف بابن القاضي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973: 1/ 262.

(43) ينظر: ابن الأبار، **المصدر السابق**: 1/ 185؛ ياقوت، **معجم الأدباء**: 2/ 36؛ علي بن موسى بن سعيد المغربي (وأُسرته)، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق، شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، 1964: 2/ 384؛ المقري، **المصدر السابق**: 2/ 606.

(44) **المصدر نفسه**: 2/ 381؛ وتنظر ترجمة ابن جبير أيضاً عند: كمال الدين أبو البركات المبارك ابن الشعار الموصلي، **قلائد الجمان في فرائد شعر هذا الزمان**، صورة محفوظة في مكتبة قسم اللغة العربية/ كلية التربية/ جامعة الموصل، عن الأصل الموجود في مكتبة أسعد أفندي/ استانبول رقم (2324)، ج6، الورقة 63أ.

قصر المدة التي قضاها في هذه المدينة، والتي لا تجاوز الأربعة أيام[45]. ولعل هذا السبب ينطبق أيضاً على رفيقه في الرحلة أبي جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد القضاعي (ت 599هـ/ 1202م)، الذي «كان متحققاً بعلم الطب، وله فيه تقييد مع المشاركة الكاملة في فنون العلم»[46]. علماً أنهما سمعا في بغداد ودمشق، بسبب بقائهما لمدة أطول في هاتين المدينتين.

وعلى العكس من ابن جبير ورفيقه، فقد كان لثلاثة من العلماء الأندلسيين الآخرين حظ أوفر، ووقت أطول في مدينة الموصل والأخذ عن علمائها، الأول هو: علي بن أحمد بن سعيد بن عبيد الله الكومي، الذي سكن في مدينة المرية الأندلسية، ثم حج، وقصد الموصل وروى فيها عن أبي الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي[47]، خطيب الموصل ومسندها في الحديث (ت 587هـ/ 1191م)[48]. أما الثاني، فهو أحمد بن علي بن عتيق بن إسماعيل المقرىء من أهل قرطبة، الذي رحل إلى الشرق، وقصد في الموصل أبا بكر يحيى بن سعدون القرطبي، الذي كان قد علا صيته فيها، وسنتحدث عن دوره لاحقاً، فقرأ عليه القرآن الكريم، وسمع الحديث من عبد الله بن أحمد الطوسي، ثم رحل إلى دمشق وأكثر السماع عن أبي القاسم علي بن الحسن ابن عساكر (ت 571هـ/ 1175م). ثم تصدر بدمشق للإقراء والإسماع، فأخذ الناس عنه. وقد توفي في دمشق سنة 596هـ/ 1199م[49]. أما العالم الثالث، فهو محمد بن عبد الله بن

(45) **رحلة ابن جبير**، ص188.

(46) المقري، **المصدر السابق**: 2/ 283.

(47) ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، نشر، فرانسسكو كوديرا، مدريد، 1886، ص685، رقم (1915)؛ المراكشي، **الذيل والتكملة**: 5/ 158 ـ 159.

(48) الذهبي، **تذكرة الحفاظ**: 4/ 1341.

(49) ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، طبعة عزت العطار الحسيني: 1/ 90 ـ 91؛ المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق، محمد بن شريفة، بيروت، دار الثقافة، السفر الأول، القسم الأول، ص311 ـ 312.

محمد بن أحمد بن العربي المعافري، وهو إشبيلي من قرابة القاضي أبي بكر بن العربي المعروف (ت 543هـ/ 1148م). رحل مرتين إلى المشرق، ودخل في الثانية منهما التي ابتدأها سنة 596هـ/ 1199م الموصل، حيث لقي فيها خطيبها أبا القاسم عبد المحسن بن عبد الله بن أحمد الطوسي[50]. وقد قيّد في رحلته هذه مناقيل أحواله في البلاد التي زارها، وبعض من لقي بها من الفضلاء والزهاد. ووقف على هذا التقييد بخط يده، المؤرخ ابن عبد الملك الأنصاري المراكشي[51].

وتطالعنا في القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد أسماء مجموعة لا بأس بها من العلماء الأندلسيين الذين دخلوا الموصل. منهم من أقام بها لطلب العلم، ومنهم من مرّ بها مروراً، وربما أخذ عن بعض شيوخها، لكن المصادر المتوافرة لا تسعفنا بتفصيلات عن ذلك. ومن الشخصيات الأندلسية الفريدة التي زارت الموصل في هذا القرن، شخصية محيي الدين بن عربي الحاتمي الصوفي، الذي رحل إلى المشرق ودرس القرآن الكريم والقراءات السبع، وسمع الحديث عن كثير من أهل المشرق والمغرب، في مصر، والحجاز، وبغداد، والموصل، وغيرها، وتوفي في دمشق سنة 638هـ/ 1240م[52]. وكانت زيارته للموصل في سنة 601هـ/ 1204م قادماً من بغداد. ولا بد من أن الذي أغرى ابن عربي بالتوجه إلى

(50) ابن الأبار، **التكملة**، (طبعة عزت العطار): 2/ 604؛ أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني الإشبيلي، **برنامج شيوخ الرعيني**، تحقيق، إبراهيم شبوح، دمشق، 1962، ص119.

(51) **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، 1973: 6/ 298 ـ 299.

(52) المقري، **المصدر السابق**: 2/ 161 ـ 162؛ وقد ترجم له أيضاً ابن الشعار، **المصدر السابق**، ج7، الورقة 139؛ وينظر: أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني، **عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق، عادل نويهض، ط2، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1979، ص156 ـ 158.

الموصل هو الرغبة في زيارة علي بن عبد الله بن جامع، الذي كان صوفياً شديد التعلق بالخضر عليه السلام، فقصده ابن عربي ابتغاء الانتفاع بعلومه. وكان ابن عربي قد التقى أيضاً أبا عبد الله المعروف بقضيب البان في بستان له خارج الموصل. وهناك حضر معه المرسم الصوفي المعروف، وذلك بتلقّي «خرقة الخضر» من يدي ابن جامع، الذي كان قد تلقّاها مباشرة من الخضر نفسه. ومن هذا التاريخ أصبح ابن عربي يعتقد في الأهمية الكبرى لهذا المرسم من مراسيم التصوف، وأوصى المريدين بذلك، باعتباره شعيرة من الشعائر، ورمزاً للأخوة الروحية بين أهل الطريق، ودواءً ناجحاً لعلاج الآفات الأخلاقية[53].

وزار الموصل أيضاً من مشاهير الأندلسيين في هذا القرن علي بن موسى بن سعيد العنسي الغرناطي (ت في تونس سنة 685هـ/ 1286م)، صاحب المؤلفات المشهورة، مثل **المرقصات والمطربات**، و**المقتطف**، و**المغرب في حلى المغرب**، و**المشرق في حلى المشرق**. وشملت رحلته المشرقية بلداناً كثيرة، ومنها الموصل، التي دخلها من طريق سنجار وتلّعفر[54]. وربما لقي مشاهير أدبائها، ولكن لا تتوافر لدينا معلومات عن مدة بقائه في الموصل، أو عن هذه اللقاءات[55]. كذلك لا نجد تفصيلات عن دور عمه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد، الذي زار

(53) ينظر: محيي الدين بن عربي، **الفتوحات المكية**، القاهرة، طبع بولاق، 1293هـ: 1/ 242، ومخطوط برلين (رقم 2983)، الورقة 133ب، نقلاً عن آسين بلاثيوس، **ابن عربي حياته ومذهبه**، ترجمه عن الإسبانية، عبد الرحمن بدوي، الكويت ـ بيروت، وكالة المطبوعات ودار القلم، 1979، ص62 ـ 63.

(54) أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد، **القدح المعلى في التاريخ المحلى**، اختصره: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل، تحقيق، إبراهيم الأبياري، ط2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1980، ص1؛ ابن فرحون، **المصدر السابق**: 2/ 112 ـ 113؛ نفح الطيب، **المصدر السابق**: 2/ 270 ـ 274، 294.

(55) ينظر: مطلوب، **المرجع السابق**: 2/ 372.

الموصل ضمن رحلة طويلة خرج فيها من الأندلس، وبلغت به إلى بخارى في الشرق حيث قتل حين دخلها التتار. ومن حسن الحظ أنه كتب إلى أهله يصف رحلته والأماكن التي دخلها، فسجل يقول مشبهاً الموصل بالأندلس: «... ثم رحلت إلى الموصل فألفيت مدينة عليها رونق الأندلس، وفيها لطافة، وفي مبانيها طلاوة ترتاح إليها الأنفس...»[56]. ولا يذكر شيئاً عن طلبه للعلم فيها أو في غيرها من البلدان، إلا بعد وصوله إلى بخارى حيث عكف على طلب العلم واجتهد في تحصيله. وعلى الرغم من هذا، فلا يبدو من كلامه أنه خرج طلباً للعلم، فهو قد رحل نتيجة خلاف بينه وبين أهله، وبعد أداء فريضة الحج والزيارة، ضيّع الأجر بحسب اعترافه: «وملت إلى حاضرة الشام دمشق والنفس بالسوء أمارة، فهناك بعت الزيارة بالأوزار وآلت تلك التجارة إلى ما حكمت به الأقدار...»[57].

ونجد إلى جانب هؤلاء بعض العلماء الأندلسيين الذين اشتهروا بعلوم شتّى، مثل عبد الله بن أحمد بن عبد الله الأنصاري الداني (ت 645هـ/ 1247م)، الذي كان له ميل إلى الطب والعناية به، مع حظ من الأدب والنثر والنظم، رحل إلى المشرق للالتقاء بالشيوخ والسماع منهم[58]. وقد حط الرحال في الموصل، ودرس الفقه الشافعي في المدرسة البدرية، وهي من المدارس المهمة التي نهضت بدور كبير في ازدهار الحركة العلمية في الموصل، وتنسب إلى الملك بدر الدين لؤلؤ (ت 657هـ/ 1259م)[59]. وقد رآه كمال الدين أبو البركات المبارك

(56) المقري، **المصدر السابق**: 2/ 371.

(57) ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**: 2/ 172؛ المقري، **المصدر السابق**: 2/ 370 - 372.

(58) ابن الأبار، **التكملة** (طبعة عزت العطار): 2/ 904 - 905.

(59) ينظر: ناجي معروف، **المرجع السابق**: ص176؛ أحمد، **الحياة العلمية في الموصل**، ص147.

المعروف بابن الشعار (ت 654هـ/ 1256م) في الموصل، وترجم له قائلاً: «شاهدته بمدينة الموصل شاباً تفقه على مذهب الإمام الشافعي، رضي الله عنه، بالمدرسة البدرية، حرسها الله تعالى، ذكر أنه سمع الحديث كثيراً بالأندلس، وحفظ كتاب الله تعالى، وله نظم ونثر، ويحفظ من أشعار الأندلسيين والرسائل والموشحات صدراً جيداً»[60]. وقد أشار شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (ت 681هـ/ 1234م)[61]، أيضاً إلى أحد المغاربة الذين كانوا يحضرون الدروس في المدرسة البدرية، وهو العماد المغربي، أبو علي عمر بن عبد النور بن يوسف الصنهاجي اللزني النحوي البجائي[62]، وذلك في معرض ترجمته للعالم الموصلي أبي الفتح موسى بن أبي الفضل كمال الدين بن يونس (ت 639هـ/ 1241م)، الذي كان يُدرّس في هذه المدرسة. وكان هذا العالم الموصلي معروفاً بدراسته للعلوم العقلية وعلوم الأوائل، ولا بد من أن العماد المغربي قد قرأ عليه شيئاً منها. وقد مدحه بشعر سجله ابن خلكان[63]:

تجر الموصل الأذيال فخراً ... على كل المنازل والرسومِ

بدجلةَ والكمال، هما شفاء ... لِهيم أو لذي فهم سقيم

فذا بحر تدفق وهو عذب ... وذا بحر ولكن من علوم

وقد لمزه العماد في دينه، بسبب كثرة اشتغاله بالعلوم العقلية، وشبّه

(60) **قلائد الجمان في فرائد شعر هذا الزمان**، ج5، الورقة 143ب. وقد جاءت هذه الترجمة ضمن الجزء الثالث المطبوع من هذا المخطوط، تحقيق، نوري حمودي القيسي، ومحمد نايف الدليمي، مراجعة، عبد الوهاب محمد علي العدواني، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1992، ص183.

(61) **وفيات الأعيان**: 5/ 316.

(62) جمال الدين علي بن يوسف القفطي، **أنباه الرواة على أنباه النحاة**، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1952؛ 2/ 386.

(63) **وفيات الأعيان**: 5/ 316.

رقة شعره ـ أي شعر العماد ـ برقة دين ابن يونس[64].

ومن علماء الأندلس الآخرين الذين زاروا الموصل في القرن السابع للهجرة، محمد بن أحمد بن سليمان الزهري الإشبيلي، وكان عارفاً بالأدب فاضلاً، وقد أقام بالموصل مدة في طلب الحديث، وسمع وكتب فيها[65]، وله من المؤلفات: كتاب **البيان والتبيين في أنساب المحدثين**، من ستة أجزاء، وكتاب **البيان فيما أبهم من أسماء في القرآن**، وكتب أخرى. توفي شهيداً على أيدي التتار سنة 617هـ/ 1220م[66]. ومر بالموصل أيضاً ضمن رحلته المشرقية محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأندراشي المعروف بابن البلنسي، وابن اليتيم (ت 621هـ/ 1224م). وكان هذا العالم معدوداً في المجودين من مقرئي القرآن، وحسن التصرف في طريقة الحديث، وقد لقي خطيب الموصل أبا الفضل عبد الله بن محمد بن عبد القادر الطوسي، وأبا الفتح نصر بن عبد الملك بن السري الموصلي[67]. ورجع إلى بلده بعلم جم بعد أن لقي أكثر من مئة شيخ، وأصبح قاضياً بدلاية، ثم ولي خطة جامع قصبة المرية. ويقول ابن الأبار، إنه كتب له بالإجازة لجميع روايته في سنة 610هـ/ 1213م[68]. وهذا يشير إلى انتقال حصيلة علم ابن اليتيم، الذي جاء به من المشرق، والموصل بالذات إلى ابن الأبار، العالم الأندلسي صاحب المؤلفات المعروفة، مثل **الحلة السيراء**، و**التكملة لكتاب الصلة**، وغيرها، وهو ما

(64) **المصدر نفسه**: 5/ 317.

(65) شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد اللخمي الأربلي المعروف بابن المستوفي، **تاريخ أربل**، تحقيق، سامي بن السيد خماس الصقار، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1980: 1/ 89؛ وينظر: ابن الشعار، **المصدر السابق**، ج6، الورقة 67 أ؛ المراكشي، **الذيل والتكملة**، السفر الخامس، القسم الثاني، ص644 ـ 645، (هامش رقم 2).

(66) المقري، **المصدر السابق**: 2/ 241.

(67) **الذيل والتكملة**: 6/ 44 ـ 48.

(68) **التكملة لكتاب الصلة**، (طبعة عزت العطار): 2/ 613 ـ 615.

يدل على التواصل المعرفي بين الموصل والأندلس.

وقد استمر هذا التواصل مع علماء آخرين، منهم جابر بن محمد بن القاسم بن أحمد الوادي آشي القيسي (ت 694هـ/ 1294م)، الذي دخل العراق، ومر ببغداد، والموصل وسنجار، وأخذ في الموصل عن عبد الرزاق الرَّسْعَني (ت 661هـ/ 1262م)، وهو من منطقة برأس العين في ديار بكر[69]. كما مر بالموصل أيضاً محمد بن علي بن محمد بن عبد الرحيم بن هشام الأنصاري الأوسي القرطبي الأصل (ت 671هـ/ 1272م)، الذي روى عن طائفة كبيرة من بقايا الشيوخ سماعاً وقراءة، وأجاز له منهم جمع كثير. وقد عدّ المراكشي[70]، شيوخه في بعض المدن التي زارها، لكن خروقاً في المخطوط الذي تم تحقيقه، ربما أدت إلى عدم معرفتنا لأسماء شيوخه في الموصل. والتقى ياقوت الحموي[71]، أحد العلماء الأندلسيين الموسوعيين بالموصل، وهو محمد بن عبد اللّه بن محمد بن أبي الفضل المرسي، الذي خرج من الأندلس سنة 607هـ/ 1210م، فحج ودخل بغداد، وغيرها من مدن المشرق. وكان عالماً جوالاً، له كتب في البلاد التي يتنقّل فيها، جماعاً لفنون العلم، ذكياً، له تصانيف كثيرة[72]. لكن ياقوت الحموي لم يخبرنا عن نشاطاته العلمية في الموصل، على الرغم من لقائه به وأخذه عنه معلومات كثيرة ضمنها في ترجمته.

(69) ينظر: أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي المعروف بابن القاضي، **درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق، محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، دار التراث، 1970: 1/ 232 ـ 233؛ محمد بن جابر الوادي آشي، **برنامج الوادي آشي**، تحقيق، محمد محفوظ، القاهرة، 1980، ص54.

(70) **الذيل والتكملة**: 8/ 337 ـ 338.

(71) **معجم الأدباء**: 18/ 209 ـ 213.

(72) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، **العبر في خبر من غبر**، تحقيق، أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية (د. ت): 3/ 277.

وإذا كانت معلوماتنا عن وجود هذا العالم الجوال في الموصل شحيحة، فإننا نمتلك نصوصاً جيدة عن عالم أندلسي آخر، اشتهر بجولاته في المشرق، ودخل الموصل، وأخذ عن علمائها، وهو أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله بن محمد بن مفرج الأموي الإشبيلي المعروف بابن الرومية (ت 637هـ/ 1239م)[73]. وكان هذا الرجل إماماً في الحديث، وعلماً من أعلام علم النبات والأعشاب الطبية. ابتدأ رحلته المشرقية عام 612هـ/ 1215م، وبعد أدائه لفريضة الحج، تجول في المشرق للتحصيل العلمي في مجال اختصاصه في علمي الحديث والنبات. ورجع بحصيلة ضخمة من المعرفة فكان «إمام أهل المغرب قاطبة في معرفة النبات وتمييز الأعشاب وتحليلها». وله تصانيف وكتب كثيرة وما يؤسف له فقدان معظم هذه المؤلفات، وأهمها كتاب **الرحلة**، الذي دوّن فيه حصيلة رحلته ومناقشاته مع علماء النبات. لكننا لحسن الحظ نمتلك **برنامجه** أو **فهرسته** التي دوّن فيها أسماء من لقيهم من العلماء. وقد أورد ابن عبد الملك الأنصاري المراكشي هذا **البرنامج** ضمن الترجمة الموسعة التي كتبها عن ابن الرومية[74]. وتتضمن القائمة الخاصة بعلماء الموصل نحو خمسة عشر اسماً، سمع منهم ابن الرومية مباشرة، وأسماء أخرى أخذ عنهم «بإجازة المراسلة»، ما بين سنتي 606 و610هـ/ 1209 و1213م. ومن هؤلاء العلماء

---

(73) ينظر عنه: جزيل عبد الجبار الجومرد، «أبو العباس بن الرومية عالم الأعشاب والنباتات الطبية ـ حياته وتراثه»، **مجلة آداب الرافدين**، العدد الرابع والعشرون، الموصل، 1992، ص494 ـ 536.

(74) **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، السفر الأول، القسم الثاني، بيروت، دار الثقافة (د. ت)، ص487 ـ 518؛ وتنظر ترجمة ابن الرومية أيضاً عند: ابن الأبار، **التكملة**: 1/ 121 ـ 122 (طبعة عزت العطار)؛ ابن سعيد، **اختصار القدح المعلى**، ص181؛ لسان الدين بن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق، محمد عبد الله عنان، ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1973: 1/ 207 ـ 214؛ ابن فرحون، **المصدر السابق**: 1/ 191 ـ 193.

الذين سمع منهم: أبو القاسم عبد المحسن بن أبي الفضل الطوسي، ومسمار بن محمد البغدادي ثم الموصلي النيّار ابن العويس، وأبو العباس أحمد بن سليمان بن أبي بكر بن سلامة الأصفر[75].

ولم تقتصر جهود ابن الرومية في الموصل على السماع فحسب، بل رجع بإجازات علمية مُنحت من قبل علماء الموصل ومن كان بها من المشاهير إلى أندلسيين ومغاربة، ومن هؤلاء الذين أخذ لهم ابن الرومية إجازات علمية بالمراسلة: محمد بن عامر بن فرقد بن خلف القرشي الإشبيلي (ت 627هـ/ 1229م)، الذي حصل على إجازة من خمسة عشر عالماً من الموصل، يشكلون معظم شيوخ ابن الرومية الذين أشار إليهم في **فهرسه**[76]. كما استجاز للقاسم بن محمد بن أحمد بن سليمان الأنصاري الأوسي المعروف بابن الطيلسان (ت 642هـ/ 1244م) من أربعة من الموصليين، وقف ابن عبد الملك المراكشي على خطوطهم، وخط من كتب عنهم بالإجازة، وخط أبي العباس ابن الرومية، وغيره عن إذن أبي العباس باستدعاء الإجازة منهم[77]. وقد استفاد طلحة بن محمد بن طلحة بن حزم الأموي الإشبيلي (ت 643هـ/ 1245م) بالإجازة العامة من قبل أبي العباس ابن الرومية، من ثلاثة علماء موصليين، وهم: الحسن بن علي بن عمار، وعلي بن محمد بن عبد الكريم الجزري، ومسمار بن العُويس[78]. وكذلك حمل ابن الرومية الإجازة العلمية من جميع شيوخه في المشرق، ومنهم اثنان من الموصل، وهما: أحمد بن سليمان بن سلامة الموصلي، وعبد المحسن بن الفضل الطوسي خطيب الموصل،

---

(75) المراكشي، **المصدر السابق**، السفر الأول/ القسم الثاني، ص496 ـ 497.

(76) **المصدر نفسه**: 6/ 422 ـ 423.

(77) **المصدر نفسه**: 5/ 561، 563؛ وينظر: الرعيني، **المصدر السابق**: ص29.

(78) **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، السفر الرابع، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1964، ص163 ـ 164.

إلى محمد بن أحمد بن عبد الله بن سيد الناس اليعمري الإشبيلي (ت 659هـ/ 1260م)، الذي كان ذا حظ من التفسير ورواية الحديث، وسمع وروى عن كثير من شيوخ الأندلس[79]. وهناك علماء آخرون من المغرب والأندلس حصلوا على إجازات علمية بالمراسلة ليس من طريق ابن الرومية، بل بطرقهم الخاصة، مثل محمد بن عياض بن محمد بن عياض السبتي، نزيل مالقة وغرناطة (ت 655هـ/ 1257م)، الذي أجازه من الموصل أربعة من علمائها وهم: نصر بن سلامة المليني، وعبد الجبار بن أبي الفضل بن حمزة الحصري، وفتيان بن أحمد بن محمد بن سمينة، وأبو القاسم عبد المحسن بن أبي الفضل بن عبد القاهر الطوسي[80]. وقد أجاز هؤلاء الأربعة أيضاً محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمن بن سليمان الأزدي، القرطبي الأصل، السبتي الاستقرار. وكان هذا فقيهاً عاقداً للشروط، ولي خطة القضاء في سبتة، وتوفي فيها سنة 660هـ/ 1261م[81].

القادمون إلى الموصل ممن درّس وجلس للإقراء والإسماع فيها:

إن كل الذين تم ذكرهم أعلاه من علماء الأندلس، كانوا قد جاؤوا إلى الموصل لطلب العلم والسماع. لكن الأمر لم يقتصر على طلب العلم بالنسبة إلى نخبة أخرى من هؤلاء، لأنهم وصلوا في رحلتهم المشرقية إلى درجة كبيرة من العلم والمعرفة، تؤهلهم للتدريس والإسماع والإقراء، ولا سيما أنهم كانوا بالأصل، قد أخذوا نصيباً من الدراسة ومجالسة الشيوخ في بلدهم الأصلي الأندلس. ومن هؤلاء العالم أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي (486 ـ 567هـ/ 1093 ـ

(79) المصدر نفسه: 5/ 653، 657.

(80) المصدر نفسه: 8/ 342 ـ 343.

(81) المصدر نفسه: 8/ 305.

1171م)، الذي أخذ في قرطبة عن شيوخها، مثل أبي محمد بن عبد الرحمن بن عتاب (ت 531هـ/ 1136م) وغيره[82]، ثم خرج من الأندلس في عنفوان شبابه، فسمع في الإسكندرية، والشام، والحجاز، وبغداد، وأصبهان، واستقر أخيراً في الموصل[83]. ويعد ابن سعدون القرطبي أحد الأئمة المتأخرين في القراءات وعلوم القرآن الكريم، والحديث والنحو واللغة، وكان ديّناً ورعاً عليه وقار وهيبة وسكينة، ثقة صدوقاً، ثبتاً نبيلاً، قليل الكلام، كثير الخير مفيداً[84].

أخذ عن ابن سعدون القرطبي وسمع منه عدد كبير من طلبة الموصل، والوافدين إليها. وأشهر هؤلاء على الإطلاق، هو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد (ت 632هـ/ 1234م)، الذي لازمه منذ سنة 556هـ/ 1160م، وقرأ عليه بالطرق السبع، وأتقن عليه فن القراءات. ولنستمع إلى شهادة ابن شداد التي دوّنها في أحد مؤلفاته: **دلائل الأحكام**، ونقلها عنه ابن خلكان[85]: «أول من أخذت عنه شيخي الحافظ صائن الدين أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي، رحمه الله تعالى، فإني لازمت القراءة عليه إحدى عشرة سنة، فقرأت عليه معظم ما رواه من كتب القراءات، وقراءة القرآن العظيم، ورواية الحديث وشروحه، والتفسير، حتى كتب لي بخطه، شهد لي بأنه ما قرأ عليه أحد أكثر مما قرأت، وعندي خطه بجميع ما قرأت

(82) ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**: 1/ 135؛ أبو جعفر أحمد بن الزبير، **صلة الصلة**، نشر، ليفي بروفنسال، بيروت، مكتبة خياط (د. ت)، ص177.

(83) ابن الشعار، **عقود الجمان**، ج10، الورقة 176أ؛ ابن خلكان، **المصدر السابق**: 6/ 171 ـ 172؛ المقري، **المصدر السابق**: 2/ 117 ـ 118.

(84) ابن خلكان، **المصدر السابق**: 6/ 171 ـ 172؛ المقري، **المصدر السابق**: 117 ـ 118.

(85) **وفيات الأعيان**: 7/ 84 ـ 85؛ وينظر أيضاً: 6/ 172، حيث أشار ابن خلكان في ترجمة أبي بكر القرطبي إلى اسم الكتاب الذي نقل عنه، وهو **دلائل الأحكام**.

عليه في قريب من كرّاسين، وفِهرستُ ما رواه جميعه عندي وأنا أرويه عنه. وما يشتمل عليه فِهرستُ البخاري ومسلم من عدة طرق، وغالب كتب الحديث، وغالب كتب الأدب وغيره، وآخر روايتي عنه **شرح الغريب**، لأبي عبيد القاسم بن سلام، قرأته عليه في مجالس، آخرها في العشر الأخير من شعبان سنة سبع وستين وخمسمائة». وهي السنة التي توفي فيها أبو بكر ابن سعدون القرطبي. وكان ابن شداد يفتخر بروايته وقراءته عليه[86]. ومن الذين قرأوا عليه أيضاً، كمال الدين بن يونس أبو الفتح موسى بن أبي الفضل بن منعة الفقيه الشافعي الموصلي المتوفى سنة 639هـ/ 1241م[87]. وكذلك عبد الله بن الحسن بن الحدوس المتوفى سنة 625هـ/ 1227م، وفخر الدين محمد بن أبي الفرج بن معالي الموصلي المتوفى سنة 612هـ/ 1215م[88].

ومن علماء الأندلس الذين درّسوا في الموصل أيضاً، أبو بكر محمد بن علي بن ياسر الأنصاري الجياني، الذي زار عدداً كبيراً من مناطق العالم الإسلامي، مثل مصر، والحجاز، والشام، والعراق، وخراسان، وما وراء النهر. وقد استقر في بعض هذه المناطق لفترات وجيزة للدراسة أو للإقراء والإسماع، ومنها دمشق، وبغداد، وبخارى، وبلخ، والموصل، التي أقام فيها «يُسْمع منه ويؤخذ عنه»، ثم انتهى إلى حلب، فاستوطنها، وسُلِّمت إليه خزانة الكتب النورية، ووقف كتبه على أصحاب الحديث، وفيها توفي سنة 563هـ/ 1167م[89]. وقد أخذ ابن شداد أيضاً عن أبي بكر الجياني في الموصل، فقرأ عليه **صحيح مسلم** من أوله

(86) **المصدر نفسه**: 6/ 172.

(87) **المصدر نفسه**: 5/ 311.

(88) ينظر: مطلوب، **المرجع السابق**: 2/ 368 ـ 369.

(89) ابن الأبار، **التكملة**: 2/ 501 (طبعة عزت العطار)؛ المقري، **المصدر السابق**: 2/ 58، 157.

إلى آخره، **والوسيط في التفسير**، لعلي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري (ت 468هـ/ 1075م)، وأجاز له الجياني رواية ما يرويه وذلك في سنة 559هـ/ 1163م[90]. وهذا يدل على أن إقامة الجياني في الموصل لم تكن قصيرة، ولا شك أيضاً في أن ابن شداد لم يكن الوحيد الذي التقاه وأخذ عنه، وإن كانت المصادر لا تسعفنا بأسماء الآخرين. كما درس ابن شداد أيضاً على عالم مغربي آخر، هو عبد الله بن محمد بن عبد الله الأشيري الصنهاجي المكنّى بأبي محمد، الذي تجول في الشام وسمع من ابن عساكر، وأسمع الحديث في حلب أيضاً[91]. وقد أجاز الأشيري لابن شداد في الموصل جميع ما يرويه على اختلاف أنواعه، وكان لدى ابن شداد في فهرسته خط الأشيري بذلك مؤرخاً في شهر رمضان سنة 559هـ/ 1163م[92]. وقد توفي الأشيري بعد ذلك في الشام سنة 561هـ/ 1165م، ودفن في بعلبك[93]. وأخيراً نختم قائمة علماء الأندلس الذين درّسوا في الموصل بإبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الإشبيلي المعروف بابن وثيق (ت 654هـ/ 1159م)، الذي دخل الموصل، ودرّس بها، وقد أخذ عنه عماد الدين بن أبي زهران الموصلي (ت 682هـ/ 1283م) وغيره. وقد نقل ابن وثيق مؤلفات أبي الحسن بن شريح، شيخ قراء الأندلس، وحدّث بها، ولا سيما كتاب **التيسير**[94].

(90) ابن خلكان، **المصدر السابق**: 7/ 86.

(91) تنظر ترجمته عند: ابن الأبار، **التكملة**: 2/ 917 (طبعة عزت العطار).

(92) ابن خلكان، **المصدر السابق**: 7/ 86؛ ويقارن: مطلوب، **المرجع السابق**: 2/ 367، الذي يشير إلى أن ابن شداد أخذ عن الأشيري في حلب. ولكن يُلاحظ أن ابن شداد كان في الموصل سنة 559هـ/ 1163م، وفي هذه السنة بالذات أخذ أيضاً عن الجياني في الموصل، كما يشير هو في روايته التي نقلها ابن خلكان.

(93) ابن الأبار، **التكملة**: 2/ 918 (طبعة عزت العطار)؛ ابن خلكان: **المصدر السابق**: 7/ 86.

(94) ينظر: أبو الخير محمد بن محمد بن شمس الدين الجزري، **غاية النهاية في طبقات القراء**، عني بنشره، ج برجستراسر، القاهرة، 1932 ـ 1933: 1/ 25؛ الذهبي، =

نماذج من الموصليين القادمين إلى الأندلس:

لقد أسلفنا القول في بداية هذا البحث، بأن كفة العلاقات والتأثير العلمي كان في بادىء الأمر لصالح المشرق الإسلامي، وهذا الأمر ينطبق بطبيعة الحال على الموصل، باعتبارها جزءاً من هذا المشرق. ولهذا فليس غريباً أن نجد عدداً محدوداً جداً من أهل الموصل يرحلون إلى الأندلس. وأن رحلاتهم هذه تأتي ابتداء من القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد فما بعد، ولا سيما أن الأندلس في ذلك الوقت كانت قد استقرت وتوطد الملك فيها، وتحرك الناس إلى طلب العلوم[95]. ومن أوائل الذين وصلوا إليها من علماء الموصل، إبراهيم بن بكر الموصلي، الذي دخل إشبيلية، وحدّث بها عن أبي الفتح محمد بن الحسين بن أحمد بن بريدة الأزدي الموصلي (ت 374هـ/ 984م)، بكتابه في **الضعفاء والمتروكين**. وقد سمعه منه إسماعيل بن عبد الرحمن القرشي[96]، وحدّث بها أبا عمر يوسف بن عبد البر النمري (ت 463هـ/ 1070م) فحمله منه بدوره علي بن عبد الله بن موهب الذي حدّث به ابن خير الإشبيلي (ت 575هـ/ 1179م)، فأورده في فهرسه[97]. وليست لدينا معلومات عن نشاطات إبراهيم بن بكر الموصلي الأخرى في الأندلس، وهل بقي فيها أم رجع إلى الموصل.

وعلى العكس من إبراهيم الموصلي، تتوافر نصوص كثيرة عن عالم موصلي آخر هو أبو العلاء صاعد بن الحسين بن عيسى البغدادي اللغوي،

= **معرفة القراء**، تصحيح، محمد جاد الحق، القاهرة، 1969: 2/ 522؛ وينظر: مطلوب، **المرجع السابق**: 2/ 369.

(95) ينظر: أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن التغلبي المعروف بصاعد الأندلس، **طبقات الأمم**، تحقيق، حياة العيد بو علوان، بيروت، دار الطليعة، 1985، ص155 - 156، 158 - 159.

(96) ابن بشكوال، **المصدر السابق**: 1/ 101.

(97) **فهرسة ما رواه عن شيوخه**، ص211.

الذي يرجع بأصله إلى ديار ربيعة في الموصل[98]، وقد دخل بغداد وروى في المشرق عن أبي سعيد السيرافي، وأبي سليمان الخطابي وغيرهما. ثم توجه إلى الأندلس في أيام الخليفة هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر، وولاية المنصور محمد بن أبي عامر في حدود سنة 380هـ/ 990م. وكان صاعد عالماً باللغة والأدب والأخبار، سريع الجواب، حسن الشعر، طيب المعاشرة. جمع للمنصور كتاب **الفصوص**، نحا فيه منحى (أبي علي القالي) في **أماليه**[99]. وقد أثابه عليه المنصور خمسة آلاف دينار. وكان صاعد يُتهم بالكذب في نقله، لهذا رفض الناس كتابه[100]، لكن رواية ابن خير الإشبيلي عن هذا الكتاب، التي يوصلها إلى شاهد العيان، ابن حيان بن خلف القرطبي (ت 469هـ/ 1079م) ربما تدحض ما يُتهم به، وليس فيها ما يشين الكتاب، فهو يقول عنه: «كتاب **الفصوص** في اللغات والأخبار؛ تأليف أبي العلاء صاعد بن الحسين بن عيسى الربعي اللغوي البغدادي، ألّفه للمنصور بن أبي عامر رحمه الله. حدثني به الشيخ أبو

(98) أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح الأزدي الحميدي، **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966، ص240؛ ابن بسام، **المصدر السابق**، القسم الرابع/ المجلد الأول، ص8؛ أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، مدريد، 1884، ص306.

(99) هو إسماعيل بن القاسم بن عيذون، مولده في منازجرد من ديار بكر في الجزيرة الفراتية، وكان أحفظ أهل زمانه باللغة والشعر ونحو البصريين. دخل الموصل وأقام بها لسماع الحديث من أبي يعلي أحمد بن علي الموصلي (ت 307هـ/ 919م)، كما زار بغداد، وأقام بها مدة طويلة، ثم غادر إلى الأندلس ودخلها سنة 330هـ/ 941م، وتوفي في قرطبة سنة 356هـ/ 966. واشتهر من مؤلفاته كتاب: **الأمالي**، فثقافته إذن موصلية وبغدادية. وقد أثر بشكل واضح في الحركة اللغوية في الأندلس، وعلى منهاجه وأصوله بنت هذه البلاد وجهتها اللغوية. ينظر: ابن خلكان، **المصدر السابق**: 1/ 226 - 227؛ المقري، **المصدر السابق**: 3/ 72 - 73؛ ألبير حبيب مطلق، **الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف**، بيروت، المكتبة العصرية، 1967، ص234، وينظر: علياء المشهداني، **صلة الأندلس الثقافية بالمشرق**، ص146.

(100) ابن خلكان، **المصدر السابق**: 3/ 76.

محمد بن عتاب (ت 531هـ/ 1136م) رحمه الله قال: أخبرني به الشيخ المؤرخ صاحب الشرطة أبو مروان حيان بن خلف بن حيان، وكتب لي بذلك بخطه، عن أبي العلاء صاعد مؤلفه رحمه الله»[101]. وقد قرأ ابن حيان هذا الكتاب على مؤلفه في داره سنة 399هـ/ 1008م[102]. وعن ابن حيان اتصلت روايته بابن خير، كما أسلفنا. ولو كان كتاباً غير ذي فائدة، لما اهتم به هذا المؤرخ الكبير وقرأه على مؤلفه. وعلى الرغم من كثرة حساد صاعد ومنافسيه، الذين عملوا على الإيقاع به، واتهموه زوراً بانتحال الشعر وتلفيق الأخبار، فإنه لا يمكن إنكار دوره الحضاري والثقافي في الأندلس. فمن طريقه وصلها الكثير من الكتب والمؤلفات من المشرق[103]. وقد غادر قرطبة بسبب الفتنة، واتجه إلى دانية، وحضر مجلس أميرها مجاهد بن عبد الله العامري، ونال فيه حظوة، ثم انتقل إلى جزيرة صقلية، حيث توفي فيها سنة 417هـ/ 1026م[104].

ونشير أخيراً إلى أحد هؤلاء الوافدين من الموصل إلى الغرب الإسلامي، ويدعى الأمير شعبان بن كوجبا، وهو من غُزِّ الموصل، وفد على الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (580 ـ 595هـ/ 1184 ـ 1199م). وكان يقول الشعر، وقد مدح هذا الخليفة، فأكرمه، وقدّمه على إمارة مدينة بسطة في الأندلس[105]، وأقطعه إقطاعيات كثيرة في هذا البلد. وقد التقاه عبد الواحد بن علي المراكشي[106]، (ت 647هـ/ 1249م) وتناشد معه

---

(101) ابن خير، **فهرسة ما رواه عن شيوخه**، ص326.

(102) ينظر: ابن بسام، **المصدر السابق**، القسم الرابع/ المجلد الأول، ص9 هامش (1)؛ ابن بشكوال، **المصدر السابق**: 1/ 238.

(103) ينظر: ابن خير، **المصدر السابق**: ص406.

(104) ابن بشكوال، **المصدر السابق** (برواية ابن حزم): 1/ 238؛ ابن خلكان، **المصدر السابق**: 2/ 489.

(105) المقري، **المصدر السابق**: 2/ 133.

(106) ينظر كتابه: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق، محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط7، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1978، ص415 ـ 416.

الشعر، ووصفه بأنه حسن المحاضرة، طيب العشرة، لطيف الحس، زكي النفس، كان له شغف شديد بالآداب. ويبدو أن أصل هذا الأديب الشاعر يرجع إلى المماليك الأتراك الذين ملكوا حرياتهم، وبرزوا في الحياة المدنية والعسكرية في العصر العباسي الثاني. ثم انتشروا في مختلف مدن المشرق الإسلامي، وجاء بعضهم إلى مصر، أيام الناصر صلاح الدين الأيوبي، ومنها وصلوا إلى المغرب العربي، فنالوا منزلة رفيعة عند خلفاء الموحدين[107].

وفي الختام يمكن القول إن العطاء العلمي والثقافي كان مستمراً بين المشرق الإسلامي والأندلس بشكل عام، وإن تركيزنا في البحث على الموصل ما هو إلا نموذج لهذا التواصل الذي استمر لقرون عديدة، وفد فيها الكثير من علماء الأندلس على هذه المدينة لطلب العلم وسماع الحديث، ولدراسة بعض العلوم النقلية والعقلية الأخرى، كل بحسب اهتمامه ورغبته. ومنهم من أكمل دراسته ورجع إلى بلاده بعلم وفير، ومنهم من بقي في هذه المدينة، وأسهم في إثراء حياتها الفكرية والثقافية، وتولى التدريس فيها. ومن صور هذا التواصل أيضاً، زيارة بعض العلماء الموصليين إلى الأندلس، ونقلهم للكثير من الكتب إليها، وإغناؤها بنتاج علماء المشرق وثقافتهم. وكان عطاء أهل الموصل يتمثل بأمور كثيرة، منها قيام طلبة العلم، بالاطلاع على المرويات، وحملها إلى الأندلس، وكذلك حمل المؤلفات المدونة، ولا سيما في العلوم النقلية، مثل التفسير، والقراءات، وعلوم الحديث، وعلوم اللغة العربية وآدابها، وكتب السِّيَر، وغيرها. وقد اكتفينا بالإشارة إلى بعض هذه المؤلفات والمرويات في أثناء الحديث عن بعض الراحلين، ولم ندرجها جميعاً خشية الإطالة. وكذلك يمكن اعتبار الإجازات العلمية التي منحها علماء الموصل إلى

---

(107) **المصدر نفسه**: ص412، (هامش رقم 1)، 414.

الأندلسيين الذين راسلوا في طلبها، وحصلوا عليها بطرق متنوعة، من أهم العطاءات العلمية التي قدمها مشاهير هذه المدينة لإخوانهم في الأندلس، ما أتاح لهؤلاء حمل علوم أهل الموصل، وإجازة روايتها، دون الحاجة إلى الرحلة، أو الالتقاء المباشر بأصحابها.

الرحلة ودورها في توثيق الصلات العلمية: الموصل والأندلس أنموذجاً

كانت الرحلات التي يقوم بها العلماء إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي بجناحيه الشرقي والغربي، تمثل مظهراً من المظاهر الحضارية الواضحة في مختلف العصور الإسلامية. ومن الملاحظ، أن المشرق كان أكثر جذباً للرحالة والعلماء والمتدينين، بحكم أنه كان يضم الأماكن المقدسة، ولا سيما الحجاز، بحيث إن الرحلة إلى الحج تأتي في مقدمة الرحلات التي دفعت بالمسلمين من كل فج عميق، وعلى كل ضامر، إلى الرحلة والانتقال إلى أداء الركن الخامس من أركان الإسلام. وبعد أداء الفريضة، كان العلماء يتوجهون إلى مختلف الحواضر الإسلامية لطلب العلم، أو للتجارة، أو للاستطلاع، والاختلاط مع الشعوب. ولم تقف الخلافات السياسية في أي وقت من الأوقات حائلاً أمام مثل هذه الرحلات، وهذا التواصل.

إن موضوع الرحلات لم يكن جديداً على المغاربة والأندلسيين، وهو بالتأكيد لم يكن طارئاً على العرب بشكل عام. فلقد مارسوا الترحال في شبه الجزيرة العربية، والبلدان المجاورة لها قبل الإسلام. لكن الإسلام وسع بدوره من أفاق الرحلة، وزاد من دوافعها حتى بلغت ذروتها[1]، فأصبحت في نظر الكثيرين مسألة لا بد منها في طلب العلم والاستفادة من العلماء، بزيارة الأمصار الإسلامية التي عُرفت بتبحرها في العلوم المختلفة. وقد عبّر عبد الرحمن بن خلدون[2]، (ت 808هـ/ 1406م) عن هذا الاتجاه بشكل صريح في مقدمته المشهورة بقوله: «فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد، والكمال بلقاء المشايخ، ومباشرة الرجال...».

وكانت مناطق الجذب الرئيسية بطبيعة الحال، هي الأماكن المقدسة، مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وبيت المقدس. وتأتي بعد ذلك عواصم الأمصار الشهيرة، مثل القيروان في تونس، والقاهرة والإسكندرية في مصر، وبغداد والبصرة والكوفة في العراق، ودمشق وحلب في الشام. وهذا ينطبق بشكل كبير على الرحلات العلمية التي يبغي أصحابها الحج، ومن ثم طلب العلم بالدرجة الأولى. ومع هذا فقد حظيت أماكن أُخرى باهتمام الرحالين، مثل مدينة الموصل، التي سيتم التركيز عليها في هذا البحث. فعلى الرغم من تفوق بغداد، وبقية الحواضر الإسلامية الأُخرى، فإن مركز الموصل لم يكن يقل أهمية، فقد امتلكت هذه المدينة إرثاً حضارياً عميق الجذور في العلوم الإسلامية المختلفة، وكانت من مناطق الجذب والاستقطاب أيضاً، ومحطاً لطلاب

(1) حسين محمد فهيم، **أدب الرحلات**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1989: 89.

(2) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **المقدمة**، بيروت، دار إحياء التراث العربي (د. ت): 541 وينظر أيضاً: 434 ـ 435.

العلم والمعرفة، وموطناً لعلماء من مدن مختلفة، وبلدان شتى[3].

وهناك الكثير من أصحاب الرحلات الأندلسية الذين زاروا المشرق، ومروا بالموصل، أو أقاموا بها، ووثقوا صلات بلادهم معها. وتزخر كتب التراجم الأندلسية كذلك بأسماء العلماء الذين كانت لهم رحلة إلى الموصل، أو العكس. لكننا سنقتصر هنا على بعض الرحالة الأساسيين من الذين دوّنوا رحلاتهم، وتركوا لنا ملاحظاتهم عن المناطق التي شاهدوها، ومنها الموصل بطبيعة الحال. ولن نتعرض إلى الرحلات العلمية المتبادلة، والتي تم بحثها في دراسة أُخرى[4].

وتتفاوت قيمة ملاحظات أصحاب الرحلات وأهميتها تبعاً لاهتمام صاحب الرحلة. وتعدّ هذه الملاحظات على درجة كبيرة من الأهمية، لأنها تمثل رواية من شاهد عيان حقيقي، يمكن التعرف من خلالها إلى أحوال الموصل السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعمرانية. ومن المؤسف أن عدداً قليلاً فقط من الذين قاموا برحلاتهم من الأندلس إلى المشرق قد دوّنوا هذه الرحلات. وهؤلاء النخبة هم المعنيون بهذا البحث. وبطبيعة الحال، فإن مقدار ما قدمه هؤلاء يختلف من راحل إلى آخر، ولا سيما بالنسبة إلى المعلومات، وطريقة التدوين، ومجال الاهتمام، الذي تأثر ودون شك بدرجة ثقافتهم، والغرض من قيامهم بالرحلة. وقد اهتم قسم من هؤلاء الرحالة بالجغرافية، وحرصوا على تدوين نتائج استقصائهم، وملاحظاتهم الدقيقة عن المنطقة التي رحلوا

(3) ينظر: ناطق صالح مطلوب، «الرحلة في طلب العلم والحياة الثقافية في الموصل»، بحث ضمن: **موسوعة الموصل الحضارية**، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1992: 2/ 345.

(4) ينظر: عبد الواحد ذنون طه، «صور من التأثير العلمي بين الموصل والأندلس»، بحث ألقي في المؤتمر العلمي الأول لتاريخ العلوم عند العرب/ مركز إحياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد 4 ـ 6 مايس 2002.

إليها. ومنهم بعض زوّار الأماكن المقدسة، الذين دفعهم شعورهم بوجوب اطلاع مواطنيهم على أخبار تلك البقاع الشريفة البعيدة. يضاف إلى ذلك، أن بعض الرحالة كانوا يعمدون من طريق تدوين رحلاتهم إلى تخليد ذكراهم ورغبتهم في هداية مواطنيهم وتعريفهم بالمسالك التي يقطعها الحجاج، والمخاطر التي ينبغي الحذر منها في الطريق. وهناك من أصحاب الرحلات من يدعوهم تقديرهم للعلم وأهله، والرغبة فيه إلى إثبات سندهم العلمي، فيصنفون كتباً تجمع شيوخهم وتترجم لهم، ويذكرون الكتب التي أخذوها عنهم، ويسمى ذلك عند الأندلسيين (البرنامج)، وعند أهل المغرب (الفهرست)[5].

وهناك فريق آخر من الرحالة، وهم قلة، سجلوا مشاهداتهم العامة المتنوعة التي تشمل كل ما يمكن أن يقال ويكتب عن البلد الذي زاروه، من مختلف نواحيه الجغرافية والتاريخية والعمرانية والاقتصادية، وهو ما يجعل القارىء ملازماً له في سفره، ومشاركاً له في مشاهداته. وعلى هذا المنوال نسج أبو بكر محمد بن العربي (ت 543هـ/ 1148م) في تقييد رحلته التي تعد من طلائع الرحلات الأندلسية المدونة إلى المشرق[6]. وكذلك فعل ابن جبير، الذي سنشير إلى ما يتعلق برحلته إلى العراق، والموصل

(5) يقارن: حسين مؤنس، **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس**، ط2، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1986: 311؛ وتنظر: مقدمة محقق **رحلة القلصادي**، السيد محمد أبو الأجفان، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، 1978: 67 ـ 68.

(6) توجد في المكتبة الخاصة للمرحوم الشيخ محمد المنوني بالرباط نسخة من هذه الرحلة. ونشر إحسان عباس جزءاً منها في **مجلة الأبحاث** البيروتية بعنوان: «رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل»، ج2 و3، كانون الأول، 1968: 71 ـ 91؛ وتنظر: مقدمة حسن حسني عبد الوهاب، **رحلة التجاني**، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب: ط ـ ي؛ أغناطيوس يوليلنوفتس كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، نقله عن الروسية، صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987: 331؛ مؤنس، **تاريخ الجغرافية والجغرافيين**: 395 ـ 412.

على وجه الخصوص. والواقع أننا إذا ما استعرضنا أصحاب الرحلات الأندلسية الذين زاروا مدينة الموصل، نجد أنهم قلة من بين هؤلاء. ويمكن إسناد السبب في ذلك إلى أن عدداً كبيراً جداً من الرحالة كانوا يكتفون بقضاء فريضة الحج، وزيارة الديار المقدسة، ومن ثم الرجوع إلى بلادهم دون التوغل في البلاد الإسلامية الأخرى في المشرق. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر، الرحالة محمد العبدري، الذي ينتمي في الأصل إلى مدينة بلنسية (Valencia). وقد خرج في رحلته من المغرب سنة 688هـ/ 1289م إلى مكة، فرافق قافلة الحج إلى مصر، ثم رجع إليها من طريق فلسطين، وواصل عودته ماراً بالشمال الإفريقي، ودوَّن رحلته في مدينة تلمسان[7]. وهكذا نجد أنه لم يمر بالعراق، ولم تتيسر له الفرصة لزيارة مدنه الشهيرة. أما محمد بن رُشَيِّد الفهري الأندلسي (ت 721هـ/ 1321م) فقد خرج من المرية (Almeria) ومر بشمال أفريقيا، ومصر، والشام، لكنه لم يدخل العراق، ودوَّن رحلته المسماة **«ملء العيبة فيما جُمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة»**[8]. كذلك قام أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي المتوفى في باجة أفريقية سنة 891هـ/ 1486م، برحلة إلى الحجاز، وكتب هذه الرحلة بصيغة أدبية، تمتزج في غرضها عناصر العبادة، والدراسة، والاستكشاف[9]، لكنه لم يزر العراق أيضاً.

ويأتي عالم النبات المعروف بابن الرومية، في مقدمة الذين اشتهروا بجولاتهم إلى المشرق، وهو أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله بن

(7) محمد العبدري البلنسي، **الرحلة المغربية**، تحقيق، أحمد جدو، قسنطينة، نشر كلية الآداب الجزائرية، (د. ت): 5؛ وينظر أيضاً: محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1983: 1/ 79 ـ 80.

(8) شهاب الدين أحمد بن محمد المقري، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، الرباط، 1978: 2/ 347، 350؛ المنوني، **المرجع السابق**: 1/ 80.

(9) مقدمة **رحلة القلصادي**: 70.

محمد بن مفرج الأموي الإشبيلي (637هـ/ 1239م)[10]. فقد قام برحلة إلى المشرق، كان هدفها بالإضافة إلى أداء فريضة الحج، التحصيل العلمي في مجال اختصاصه بعلم النبات. فغادر الأندلس سنة 612هـ/ 1215م، ولقي في رحلته جملة كبيرة من أعلام الحديث من رجال ونساء، ورجع بحصيلة ضخمة من المعرفة، فكان «إمام أهل المغرب قاطبة في معرفة النبات وتمييز الأعشاب وتحليلها». وله تصانيف وكتب كثيرة، وما يؤسف له فقدان معظم هذه المؤلفات، وأهمها كتاب **الرحلة**، الذي دوّن فيه حصيلة رحلته ومناقشاته مع علماء النبات، لكننا لحسن الحظ، نمتلك برنامجه، أو فهرسته، التي دوّن فيها أسماء من لقيهم من العلماء. وقد أورد ابن عبد الملك الأنصاري المراكشي هذا البرنامج ضمن الترجمة الموسعة التي كتبها عن ابن الرومية[11]. وتتضمن القائمة الخاصة بعلماء الموصل، خمسة عشر اسماً، سمع منهم ابن الرومية مباشرة، وأسماء أُخرى أخذ عنهم «**بإجازة المراسلة**». وهؤلاء العلماء هم: أبو القاسم عبد المحسن بن أبي الفضل الطوسي، ومسمار بن عبد البغدادي، ثم الموصلي النيّار بن العويس، وأبو العباس أحمد بن سليمان بن أبي بكر بن سلامة الأصفر،

(10) ينظر عن هذا العالم: جزيل عبد الجبار الجومرد، «أبو العباس بن الرومية عالم الأعشاب والنباتات الطبية ـ حياته وتراثه»، **مجلة آداب الرافدين**، العدد 24، الموصل، 1992: 494 ـ 536.

(11) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق، محمد بن شريفة، السفر الأول/ القسم الثاني، بيروت، دار الثقافة، (د. ت): 487 ـ 518؛ وقد ترجم لابن الرومية العديد من المؤرخين، منهم على سبيل المثال: محمد بن عبد الله بن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، القاهرة، نشر عزت العطار الحسيني، 1955 ـ 1956: 1/ 121؛ أبو الحسن علي بن موسى ابن سعيد المغربي، **اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى**، اختصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل، تحقيق، إبراهيم الأبياري، ط2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1980: 181: لسان الدين بن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق، محمد عبد الله عنان، ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1973: 1/ 207 ـ 214.

وأبو محمد إسماعيل بن إبراهيم بن محمد الشهرستاني، وأبو علي الحسن بن علي بن الحسن بن عمار، والحسين بن عمر بن نصر بن باز، والحسن بن أبي صالح التكريتي، وشهاب الدين مودود بن محمود بن بلوجي الحنفي، وعبد الله بن حسين بن الحسين بن الحدوس، وأبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري، وأبو الفرج بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي العز، وأبو محمد بن المعافى بن إسماعيل بن الحسين، وياقوت بن عبد الله، وأبو الذخر خلف بن محمد الكنزي، وأبو العز يوسف بن علي بن يوسف الباذبيني[12]. ولم تقتصر جهود ابن الرومية في الموصل على السماع، والبحث عن الأعشاب والنباتات ودراستها فحسب، بل حاول الاتصال بعلماء المدينة، وأخذ عنهم إجازات علمية لزملائه من مشاهير الأندلسيين الذين لم يستطيعوا القيام بالرحلة، والسفر إلى المشرق. ومن هؤلاء العلماء الأندلسيين الذين أخذ لهم إجازات علمية بالمراسلة: محمد بن عامر بن فرقد بن خلف القرشي الإشبيلي (ت 627هـ/ 1229م)، الذي حصل على إجازة من خمسة عشر عالماً من الموصل، يشكلون معظم شيوخ ابن الرومية الذين أشار إليهم **فهرسه**[13]. كما استجاز للقاسم بن محمد بن أحمد بن سليمان الأنصاري الأوسي المعروف بابن الطيلسان (ت 642هـ/ 1244م) من أربعة من الموصليين، وقف ابن عبد الملك المراكشي على خطوطهم، وخط من كتب عنهم بالإجازة، وخط أبي العباس ابن الرومية[14]. وقد استفاد طلحة بن حزم الأموي الإشبيلي (ت 643هـ/ 1245م) بالإجازة العامة من

(12) المراكشي، **المصدر السابق**، السفر الأول/ القسم الثاني: 496 ـ 497.

(13) **المصدر نفسه**: تحقيق، إحسان عباس، بيروت، 1973: 6/ 422 ـ 423.

(14) **المصدر نفسه**: تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1965: السفر الخامس/ القسم الثاني: 561 ـ 563؛ وينظر: أبو الحسن علي بن محمد الرعيني الإشبيلي، **برنامج شيوخ الرعيني**، تحقيق، إبراهيم شبوح، دمشق، 1962: 29.

قبل أبي العباس ابن الرومية من ثلاثة علماء موصليين وهم: الحسن بن علي بن عمار، وعلي بن محمد بن عبد الكريم الجزري، ومسمار بن العُويس[15]. وكذلك حمل ابن الرومية الإجازة العلمية من جميع شيوخه في المشرق، ومنهم اثنان من الموصل، إلى محمد بن أحمد بن عبد الله بن سيد الناس اليعمري الإشبيلي (ت 659هـ/ 1260م)، الذي كان ذا حظ من التفسير ورواية الحديث، وسمع وروى عن كثير من شيوخ الأندلس[16]. وهكذا نجد أن رحلة هذا العالم العلمية، وثَّقت إلى درجة كبيرة جداً من الصلات العلمية بين علماء الموصل والأندلس، على الرغم من البعد المكاني، وعدم استطاعة بعض الأندلسيين من التوجه إلى هذه المدينة، فاستفادوا من الإجازات العلمية التي جاء بها أحد زملائهم.

ومن العلماء الرحالة الذين جابوا المشرق، ودخلوا بلاد الشام والعراق، ومصر، العالم القرطبي الأصل محمد بن عبد الرحيم بن هشام الأنصاري الأوسي، الذي نشأ في مدينة سلا بالمغرب، واشتهر بعلم الحديث. رحل مرتين إلى المشرق، الأولى سنة 618هـ/ 1221م، وفيها أدى فريضة الحج ودخل العراق، ومر ببغداد، وتكريت، والموصل. ومن المؤسف أننا لم نستطع قراءة أسماء شيوخه في الموصل لوجود بياض في أصل المخطوطة التي حققها محمد بن شريفة من كتاب **الذيل والتكملة**[17]. ولا بد من أنه التقى هناك بعض الشيوخ الذين عددهم ابن عبد الملك المراكشي، أسوة بشيوخه في بغداد، وبلاد الشام، وغيرها. وقد رجع هذا العالم بعد أن غادر الموصل إلى بلاد الشام، ثم أكمل

(15) المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1964، السفر الرابع: 163 ـ 164.

(16) **المصدر نفسه**: 5/ 653، 657.

(17) **المصدر نفسه**: السفر الثامن/ القسم الأول: تحقيق، محمد بن شريفة، الرباط، مطبوعات الأكاديمية المغربية، 1984: 337.

طريقه إلى مدينة مراكش، ثم إلى الأندلس في إشبيلية (Sevilla)، وسكن فيها مدة، وكذلك في مدينة شريش (Frontera Jerez de la) المجاورة، ومنها غادر في رحلته الثانية إلى المشرق سنة 648هـ/ 1250م، التي كان باعثه عليها القيام بأداء فريضة الحج أيضاً. ولم يعن في هذه الرحلة بالأخذ عن أحد، كما لا يعرف إن كان قد مر بالعراق أم لا. وتوفي هذا العالم سنة 671هـ/ 1272م، ودفن في مدينة مراكش[18].

وهناك من الرحالة من كان يدفعه إلى جوب الآفاق شوق شديد إلى اكتشاف المجهول، والدخول في بلاد بعيدة غير معروفة الأحوال واللغات. ومن هؤلاء أحد الأندلسيين الذين كرسوا حياتهم للرحلة، وهو محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي، المعروف بأبي حامد، الذي ولد في غرناطة (Granada) سنة 473هـ/ 1080م[19]. وغادر إلى المشرق في حدود سنة 500هـ/ 1107م، في رحلة طويلة شملت أولاً نواحي المغرب الأقصى، ثم مصر والشام، وبغداد التي وصلها لأول مرة سنة 516هـ/ 1123 ـ 1124م، وأقام فيها أربع سنوات على وجه التقريب، وأصبح مقرباً من أحد مشاهيرها المدعو عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، الذي سيصبح فيما بعد وزيراً للخليفة المتقي بالله العباس سنة 544هـ/ 1149م، ويظل في الوزارة إلى سنة 560هـ/ 1165م، بحيث توفي في هذه السنة. وقد لقي أبو حامد كل إكرام من يحيى بن هبيرة الذي أنزله في داره، وفتح له مكتبته. فأهدى أبو حامد في المقابل أحد مؤلفاته: **المعرب**

(18) **المصدر نفسه**: 338.

(19) تنظر ترجمته عند: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968: 2/ 235 ـ 236؛ Pons Boigues, Los Hisoriadores Y Geografos Arabigo - Espanoles, Amsterdam, 1972. Reprint of Madrid edition, 1898: PP. 229 - 231.

عن بعض عجائب المغرب إلى هذا الوزير، وأشار إلى ذلك في فاتحة الكتاب[20].

اتخذ أبو حامد بغداد قاعدة لرحلاته التي شملت هضبة إيران، وبلاد التركستان، وحوض نهر الفولغا، وشرق أوروبا، والمجر، وأماكن أخرى[21]. ولحسن الحظ أثبت أبو حامد تواريخ زيارته لبعض المواضع مما يُعين على تتبع بعض خطواته، والذي يهمنا في هذا الأمر هو تواجده في العراق، والأماكن التي زارها فيه، ولا سيما مدينة الموصل. فقد خرج سنة 546هـ/ 1115م من خوارزم إلى الحج ماراً ببخارى، ومرو، ونيسابور، والري، وأصفهان، والبصرة في الغالب، فأدى الفريضة وعاد إلى بغداد[22]، التي يبدو أنه ظل فيها حتى عام 556هـ/ 1161م، بحيث ذهب في هذه السنة إلى الموصل، وبقي فيها عاماً، تعرَّف خلاله إلى الكثير من أعيانها، وعلمائها، ومنهم الشيخ معين الدين أبو حفص عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي، مؤلف كتاب «**وسيلة المتعبدين**»[23]. وفي الموصل كتب أبو حامد كتابه الثاني الموسوم «**تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**»[24]. بناء

(20) محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي المعروف بأبي حامد، **المعرب عن بعض عجائب المغرب**، مخطوط أكاديمية التاريخ في مدريد، رقم (XXXIV)، مجموعة جلينجوس، الورقة 2أ، نقلاً عن مؤنس، **تاريخ الجغرافية والجغرافيين**: 311.

(21) ينظر: كراتشكوفسكي، **المرجع السابق**: 326؛ مؤنس، **المرجع السابق**: 312.

(22) أبو حامد الغرناطي، قطعة من كتاب **المعرب عن بعض عجائب المغرب**، نشرها سيزار دوبلر تحت عنوان: Cesar E. Dubler, Abu Hamid el - Granadian Y su Relacion de Viaje Por Tierras Eurasiaticas, edition del Texto Arabe con notas, Madrid, 1953, P. 44.

(23) C. Brockelman, Geschichte der Arabischen Literatur, Supplement bande, Leiden, 1937 - 1938, Vol. I, PP. 783 - 784.

(24) حققه المستشرق الفرنسي جابرييل فران (Gabriel Ferrand)، ونشره في المجلة =

على رجاء من الشيخ عمر الأردبيلي المذكور أعلاه. وقد فرغ من كتابته في الثالث من ربيع الآخر سنة 557هـ/ 22 آذار 1162م. ثم غادر بعدها الموصل إلى حلب، وبقي فيها حتى سنة 560هـ/ 1164م. ومنها رحل إلى دمشق التي توفي فيها سنة 565هـ/ 1169م وهو في الثانية والتسعين من عمره[25].

وتبرز أهمية أبي حامد في ملاحظاته الدقيقة ووصفه لما يشاهده بنفسه للأماكن، فهو في نظر مؤنس[26] «ليس جغرافياً صرفاً أو عجائبياً خالصاً ولا رحالة فحسب، إنما هو ذلك كله...» وقد أعطته إقامته الطويلة نسبياً في العراق، مجالاً خصباً للتعرّف إلى طبيعته. لكنه كان يركز في غالب الأحيان على العجائب، فأطنب في حديثه عن الشعوب الغربية، والأماكن العجيبة[27]. ولم تنل الأماكن المعروفة منه اهتماماً كبيراً، لهذا لا نتوقع أن نجد كلاماً كثيراً عن بغداد والموصل اللتين قضى فيهما هذا الرحالة نحو خمس سنوات.

ولكن من خلال استعراضنا للقسم الذي نشره سيزار دوبلر لكتاب **المعرب عن عجائب المغرب**، والموضوعات الأخرى في كتابه **تحفة الألباب**[28]، يبدو أنه كان يختار كل ما هو غريب وعجيب، مثل كلامه عن تل عقرقوف، ووصفه لإيوان كسرى، بالنسبة إلى عجائب البنيان في

= الآسيوية (Journal Asiatique)، عام 1925. ولم يتيسر لي الاطلاع عليه، وقد ظهر حديثاً بتحقيق، إسماعيل العربي، منشورات، دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1993.

(25) ينظر: المقري، **نفح الطيب**: 2/ 236؛ ويقارن: مؤنس، **المرجع السابق**: 323.

(26) **المرجع نفسه**: 336.

(27) ينظر على سبيل المثال: أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب (نشر دوبلر): 8، 19، 37.

(28) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق، إسماعيل العربي: 106 - 107؛ وينظر: تاريخ الأدب الجغرافي العربي: 326 - 330؛ مؤنس، **المرجع السابق**: 303 - 357.

العراق. لهذا فمن غير المرجح أنه سجل أحداثاً كثيرة عن الموصل. ومع هذا، فإن إقامته الطويلة فيها نسبياً لمدة عام، وكتابة أحد مؤلفاته فيها، يدل على المناخ العلمي الذي كانت تتمتع به هذه المدينة العريقة. وكذلك يدل على الانسجام في التفكير والثقافة، والاختلاط مع علماء الموصل، الذين قدروا أهميته، وعلمه، فطلب منه أحدهم، كما أسلفنا، أن يكتب كتابه في الموصل. ومهما كان رأينا في موضوعات الكتاب ومنهجيته التي تركز على الغرائب، فإن ذلك لا يؤثر على حقيقة التواصل الثقافي بين هذه المدينة والأندلس ممثلة بهذا العالم الرحالة المتميز.

وإذا كنا لم نحصل على معلومات مفصلة عن الموصل، من قبل الرحالة الذين أسلفنا الحديث عنهم، فقد عوضنا أبو الحسن محمد بن جبير الكناني عن ذلك، بالإسهاب في ذكر هذه المدينة ووصفها. ويعد اسم هذا الرحالة من ألمع الأسماء في مجال الرحلة في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد. ولد في مدينة (Valencia) أو شاطبة (Jativa) بالأندلس عام 540هـ/ 1145م، وتوفي في الاسكندرية سنة 614هـ/ 1217م[29]. وقد قام ابن جبير برحلة مشهورة إلى المشرق، كان هدفها الرئيسي أداء فريضة الحج، ثم تطور إلى رغبة عارمة بطلب العلم والسماع على الشيوخ الذين يمر بهم في مختلف البلدان، ومن ثم تسجيل كل ما يراه في أسلوب سهل صادق يبعث على الثقة. وكانت نتيجة رحلته هذه التي قام بها من الأندلس إلى المشرق سنة 578هـ/ 1183م، أن خلّف لنا وثيقة من أجمل وأصدق ما خلّفه الرحالة العرب في تأريخنا الفكري[30].

ورحلة ابن جبير هذه الأولى ضمن ثلاث رحلات قام بها إلى

(29) ينظر عنه: ابن عبد الملك المراكشي، **المصدر السابق**، السفر الخامس/ القسم الثاني: 595 ـ 621؛ ابن الخطيب، الإحاطة: 2/ 230 ـ 239؛ المقري، **نفح الطيب**: 2/ 381 فما بعدها.

(30) مؤنس، **المرجع السابق**: 429.

المشرق، لكنه لم يدون سواها. وقد ترك لنا وصفها على شكل يوميات موثقة بالتواريخ الدقيقة، وضعها بعد رجوعه إلى الأندلس في نحو عام 581هـ/ 1185م. وتعتمد شهرة ابن جبير الأدبية على هذه الرحلة بالذات، التي أفاد منها الجغرافيون والمؤرخون الذين أعقبوه، من أمثال ابن بطوطة، وابن الخطيب، والمقريزي، والمقري[31].

سلك ابن جبير في رحلته إلى المشرق طريق البحر، فخرج من مدينة طريف (Tarifa) إلى سبتة، ومنها إلى الإسكندرية، حيث ركب في النيل إلى القاهرة، ثم غادرها إلى صعيد مصر، فوصل مرفأ عيذاب على البحر الأحمر، فركب إلى جدة، ثم أخذ قافلة إلى مكة، وأقام فيها سنة ونصف السنة. ومر بعد ذلك بالمدينة المنورة وهو في طريقه إلى الكوفة، وزار بغداد، وسامراء، وتكريت، فالموصل وحلب، ومنها إلى دمشق، ثم إلى ميناء عكا، بحيث أبحر إلى جزيرة صقلية، ومنها إلى الأندلس، فوصل إلى غرناطة بعد غيبة دامت أكثر من عامين.

وتعد رحلة ابن جبير إلى العراق على درجة كبيرة من الأهمية[32]، لكننا سنقتصر على دراسة ما كتبه عن مدينة الموصل، التي هي موضوع بحثنا الرئيسي. فقد غادر هذا الرحالة بغداد، التي مكث فيها ثلاثة عشر يوماً[33]، إلى الموصل إثر صلاة العصر من يوم الاثنين الخامس عشر

(31) كراتشكوفسكي، **المرجع السابق**: 334؛ مؤنس، **المرجع السابق**: 429.

(32) عن رحلة ابن جبير إلى العراق ينظر: علي محسن عيسى مال الله، «العراق في رحلة ابن جبير خاصة ورحلات العرب الأخرى»، مجلة المورد، المجلد 18، العدد 4، بغداد، 1989: 59 ـ 71.

(33) عن رحلته إلى بغداد ووصفه لها ينظر: عبد الواحد ذنون طه، «بغداد من خلال رحلة ابن جبير»، بحث منشور ضمن كتاب: بغداد في التاريخ، بحوث الندوة العلمية الأولى لقسم التاريخ بكلية التربية/ جامعة بغداد للفترة من5 ـ 7 أيار، 1990، بغداد، دار الحكمة للطباعة والنشر، 1991: 321 ـ 335.

لصفر سنة 580هـ/ 28 أيار 1184م، ملتحقاً بركب الحجاج المغادر إلى الموصل والشام، بصحبة اثنتين من كبار النساء، وهما خاتون بنت السلطان السلجوقي غياث الدين مسعود (529 ـ 547هـ/ 1135 ـ 1152م)، وخاتون أم عز الدين مسعود أتابك الموصل (476 ـ 589هـ/ 1180 ـ 1193م)[34].

واصل ابن جبير رحلته باتجاه الشمال، فمر بمدينة سامراء الواقعة على الجانب الشرقي من دجلة، كذلك مر بمدينة تكريت، التي بقي فيها يوماً واحداً، ثم غادرها باتجاه الموصل التي وصلها عند ارتفاع النهار من يوم الثلاثاء الثالث والعشرين لصفر 580هـ/ 5 حزيران 1184م. ونزل بربضها في أحد الخانات بمقربة من الشط[35]. وقد غادر المدينة يوم الجمعة السادس والعشرين لصفر المذكور. وهكذا يتبين أنه لم يبق في الموصل سوى أربعة أيام، ولكنه رأى في هذه الأيام المعدودة الشيء الكثير الذي ربما لم يكن غيره ليستطيع أن يلحظه في شهور، لأنه كان شديد الملاحظة، لا يكاد يسمع عن شيء غريب إلا أسرع لرؤيته، ولا يتصل به طرف خبر من الأخبار حتى يبادر إلى التأكد منه واستقصائه، لذلك، فقد استطاع أن يدون لنا في هذه الأيام الأربعة، معلومات ممتازة عن مدينة الموصل، تناولت مختلف جوانب الحياة فيها، ولا سيما أحوالها العمرانية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية. وسوف نشير إلى بعض هذه الملامح.

(34) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني، رحلة ابن جبير، بيروت، منشورات دار ومكتبة الهلال، 1981: 184؛ ويقارن: أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، القاهرة، دار المعارف، 1972: 1/ 321، 2/ 346.

(35) ابن جبير، الرحلة: 188.

خطط المدينة وأحوالها العمرانية:

ابتدأ ابن جبير وصفه للمدينة، بأنها «عتيقة ضخمة، حصينة فخمة، قد طالت صحبتها للزمن فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن...»[36] وطبعاً هو محق في هذا، لأن الموصل مدينة عريقة جداً ضاربة الجذور في التاريخ. وأشار إلى حصانتها، وكثرة أبراج سورها التي تبدو وكأنها متصلة بعضها ببعض، لقرب المسافة بين كل برجين. وفي داخل الأبراج وباطن السور هناك بيوت المقاتلة، التي هي في حرز ووقاية، وهي من المرافق الحربية المهمة في هذه المدينة.

أما بالنسبة إلى قلعة المدينة، فقد ذكر ابن جبير أنها عظيمة وقد رص بناؤها رصاً، ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج، وتتصل بها دور حكام المدينة. ويفصل بينها وبين البلد شارع متصل متسع يمتد من أعلى البلد إلى أسفله. ويبدو أن ابن جبير يشير إلى شارع الشعارين، الذي كان يسمى أيضاً بدرب الدير الأعلى، وما زال يعرف بالشعارين في الوقت الحاضر، وبشارع جامع النبي جرجيس أيضاً[37]. وتتصل أسوار القلعة على شاطىء نهر دجلة، الذي هو في شرقي المدينة، حتى لكأن هذه الأبراج في ماء النهر.

أما المباني والمحلات المستحدثة خارج القلعة، فقد أشار إليها ابن جبير بالتعبير الأندلسي، أي **الربض**، ووصف هذه المناطق بأنها ربض كبير فيه المساجد والحمّامات والأسواق والخانات. وفي هذا الربض زار

(36) **المصدر نفسه**: 188.

(37) ينظر: سعيد الديوه جي، تاريخ الموصل، بغداد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، 1982: 1/ 179؛ عبد الواحد ذنون طه، «المظاهر الحضارية في الموصل خلال العهد الأموي»، بحث منشور ضمن: موسوعة الموصل الحضارية، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1992: 2/ 58 ـ 59.

ابن جبير جامع مجاهد الدين، الذي بناه أبو منصور قيماز بن عبد الله الزيني الملقب بمجاهد الدين (ت 595هـ/ 1198م) وكان من مماليك زين الدين والد مظفر الدين كوكبري في أربل، ثم انتقل إلى الموصل سنة (571هـ/ 1175م)، ثم تولى إدارة قلعتها، وله في الموصل آثار مشهودة، أهمها هذا الجامع الذي يعرف باسمه، الجامع المجاهدي، والذي افتتح للصلاة قبل خمس سنوات من وصول ابن جبير إلى الموصل، أي في سنة 575هـ/ 1179م، حيث أُقيمت فيه صلاة الجمعة لأول مرة[38]. وقد صلى فيه ابن جبير، وأُعجب به أيما إعجاب، لما شاهده من جمال موقعه، ودقة هندسته، وتنوع زخارفه وكتاباته، ومما قاله في هذا المجال: أنه كان جامعاً «على شط دجلة، ما أرى وضع جامع أحفل منه، بناء يقصر الوصف عنه وعن تزيينه وترتيبه، وكل ذلك نقش في الآجر. وأما مقصورته فتذكِّر بمقاصير الجنة، ويطيف به شبابيك حديد، تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة، لا مقعد أشرف منها، ولا أحسن، ووصفه يطول، وإنما وقع الإلماع بالبعض جرياً إلى الاختصار، وأمامه مارستان حفيل من بناء المجاهد المذكور»[39].

ووصف ابن جبير أيضاً جوامع أخرى في المدينة، ولا سيما الجامع الأموي، الذي أُنشأ في عهد بني أمية. ووصف القبة التي في صحنه، والتي في داخلها سارية رخام قائمة: «قد خُلل جيدها بخمسة خلاخل مفتولة فتل السوار من جرم رخامها، وفي أعلاها خصة رخام مثمنة يخرج عليها أنبوب من الماء خروج انزعاج وشدة، فيرتفع في الهواء أزيد من القامة كأنه قضيب من البلور معتدل ثم ينعكس إلى أسفل القبة»[40].

(38) الديوه جي، **المرجع السابق**: 1/ 338.

(39) ابن جبير، الرحلة: 188.

(40) **المصدر نفسه**: 189.

كذلك حدد ابن جبير موقع مشهد النبي جرجيس، بين الجامع الجديد، أي النوري وباب الجسر، وزاره، وتبرَّك به، وأشار إلى مكان الضريح بدقة، إلى يمين الداخل إليه. وقد عبر ابن جبير دجلة، متجهاً إلى الشرق من مدينة الموصل، لزيارة تل التوبة، الذي يبعد نحو ميل عنها، وهو التل الذي وقف عليه النبي يونس عليه السلام، بقومه، ودعا ودعوا، حتى كشف الله عنهم العذاب[41].

وقد وصف ابن جبير هذا التل، والرباط المقام عليه، وعين الماء المجاورة. وكذلك أشار إلى خرائب نينوى، مدينة يونس عليه السلام، وشاهد أثر السور المحيط بها، وكان ظاهراً، وفُرَجْ الأبواب فيه بينة، وأكوام أبراجه مشرقة[42]. وهذا يدل على دقة ملاحظة ابن جبير، وحسه التأريخي، الذي قاده إلى هذه المدينة الأثرية القديمة.

بعض الملامح الاقتصادية والاجتماعية:

لم يتحدث ابن جبير كثيراً عن أوضاع الموصل الاقتصادية، لكن إشارته الواضحة إلى وجود عدد كبير من الخانات فيها، لمبيت الغرباء والتجار، تدل على حركة تجارية كبيرة. كذلك وصفه لقيسارية التجار التي بناها مجاهد الدين أيضاً، وقوله عنها إنها أشبه بالخان العظيم، وفيها دكاكين كثيرة وبيوت، وتغلق عليها أبواب من حديد في الليل، خشية السرقة، لكثرة البضائع التي في داخلها، وهو ما يعطي الانطباع بانتعاش التجارة في ذلك العصر الذي زار فيه ابن جبير المدينة. بحيث كان يحكم الأمير الزنكي عز الدين مسعود، حفيد عماد الدين، يساعده في الإدارة

(41) **المصدر نفسه**: 189.

(42) **المصدر نفسه**: 190؛ وينظر: محمد نزار حميد طه الدباغ، المشرق الإسلامي من خلال رحلة ابن جبير ـ الأحوال السياسية والعمرانية، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ/ كلية التربية/ جامعة الموصل، 2001: 144.

والجيش مجاهد الدين، الذي كان صاحب قوة وسلطان في الدولة[43]. فكان الاستقرار متوافراً، وهو ما يشجع على التجارة، ونشاط التجار لاستثمار أموالهم فيها.

وتأتي ملاحظات ابن جبير في وصف أهل الموصل، لتشير إلى بعض الملامح الاجتماعية للمدينة، فأهل الموصل، بحسب قوله كانوا: «على طريقة حسنة، يستعملون أعمال البر، فلا تلقى منهم إلا ذا وجه طلق وكلمة لينة، ولهم كرامة للغرباء، وإقبال عليهم، وعندهم اعتدال في جميع معاملاتهم...»[44]. إن هذا الوصف يدل تماماً على دقة ملاحظة ابن جبير، الذي استطاع في تلك الأيام الأربعة، أن يشخص أهم الصفات الاجتماعية لأهل الموصل، ولا سيما الاعتدال في المعاملات، وحب الغرباء وإكرامهم. وأشار ابن جبير أيضاً إلى بعض المظاهر الاجتماعية الأخرى، منها خروج الناس ليلة كل جمعة إلى تل التوبة، للتعبد فيه، وزيارته وقد استغل هو وجوده في الموصل ليلة الجمعة، فزاره مع الزائرين، وبات فيه تلك الليلة. كذلك وصف لنا كيفية استقبال الموصليين لقافلة الحجاج التي قدم معها ابن جبير، وأعطانا صورة لهذا الموقف، حيث دخل المركب المدينة «على احتفال وأبهة قد جللوا أعناق إبلهم بالحرير الملون، وقلدوها القلائد المزوقة. ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها، وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلَّة ودنانير سعة الألف، وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات... ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب، ومراكب جواريها كذلك؛ مجموعة ذلك الذهب لا يُحصى تقديره. وكان مشهداً أبهت الأبصار، وأحدث الاعتبار...»[45].

---

(43) الديوه جي، **المرجع السابق**: 1/ 300.

(44) ابن جبير، الرحلة: 190.

(45) **المصدر نفسه**: 190 ـ 191.

إن هذا الوصف، فضلاً عن إشارته إلى بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في المدينة، لكنه يظهر أيضاً، بعض ملامح الحياة السياسية في المدينة، ودور النساء فيها، وكيف كانت هاتان المرأتان هما أميرتي ركب الحجاج. كذلك دور أم عز الدين، وأعمال البر والإحسان والخير التي كانت تمارسها في الموصل. وقد سمع ابن جبير عن ذلك عن غير واحد من الثقات، الذين أخبروه، بأعمالها، وقيامها متنكرة في زيارة الصالحين والصالحات، مع شبابها، وانغماسها في نعيم الملك. ولم يقتصر الأمر على الذوات من النساء. فعند وصفه لاستقبال أهل الموصل لقافلة الحجاج، أشار إلى خروج النساء «وأكثرهن راكبات، وقد اجتمع منهن عسكر جرار»[46]. وهذا يدل على أمور كثيرة، منها رفاهية هؤلاء النسوة وتوافر وسائل الركوب، وحريتهن في الخروج والمساهمة في تلك المظاهر الاجتماعية الدينية، باستقبال حجاج المدينة. كذلك فإن إشارة ابن جبير إلى وجود الخانات الكثيرة، والمستشفيات يدل على اهتمام بالصحة العامة. فقد ذكر وجود مارستانين في المدينة، أحدهما بناه مجاهد الدين، أمام جامعه المشهور على نهر دجلة، ولم يحدد مكان المارستان الثاني، واكتفى بالإشارة إلى وجوده في المدينة[47].

الأوضاع الثقافية:

على الرغم من اشتهار ابن جبير بالفقه والحديث والمشاركة في الأدب، نجد أنه لا يشير إلى سماعه أو طلبه للعلم في الموصل، أثناء مروره بها، وكذلك رفيقه في الرحلة أبو جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد القضاعي (ت 599هـ/ 1202م)، الذي كان مهتماً بعلم الطب، وله فيه

---

(46) **المصدر نفسه**: 190.

(47) **المصدر نفسه**: 189.

تقييد، فضلاً عن مشاركته في فنون العلم[48]، علماً أنهما سمعا في بغداد ودمشق وغيرها من مدن المشرق. ويبدو أن السبب لا يعود إلى قلة علماء الموصل أو افتقارها إلى الثقافة، بل يرجع إلى قصر المدة التي بقيا فيها في هذه المدينة، والتي لا تجاوز الأربعة أيام، سعى فيها ابن جبير ورفيقه إلى تغطية أكثر ما يمكن من زيارة أماكنها المشهورة المتعددة. ومع هذا، فإن إشارة ابن جبير إلى وجود «مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة، فتلوح كأنها القصور المشرقة»[49] دليل على ازدهار الحياة العلمية فيها. لكن ابن جبير لم يتمكن من إحصاء كل مدارس الموصل، فالذي رآه لا يشكل إلا أقل من النصف، فقد كان عدد مدارس الموصل في وقت زيارته لها لا يقل عن سبع عشرة مدرسة[50]. وبالإضافة إلى هذه المدارس، فقد كانت هناك أماكن تدريس أخرى في المساجد والجوامع القديمة والجديدة، وفي دور الحديث المستحدثة، وربط العلماء، والمقرئين والمتصوفة[51]. الأمر الذي كان له أبعد الأثر في انتعاش الحركة العلمية فيها، ما جعل هذه المدينة مقصداً للعلماء الراحلين الذين يطلبون العلم في ربوعها. ومن المؤسف أن بقاء ابن جبير كان مختصراً فيها، وإلا لكان زودنا بمعلومات أكثر عن الأوضاع الثقافية فيها، ولا سيما أنه العالم المحدث، الدقيق. ومع هذا فإن الفقرات القليلة التي كتبها عنها تغني عن الكثير، وتشخيص الملامح الأساسية، لدور هذه المدينة الخالدة على الصعد كافة.

---

(48) المقري، **نفح الطيب**: 2/ 283.

(49) ابن جبير، الرحلة: 189.

(50) ينظر: الديوه جي، **المرجع السابق**: 1/ 344 ـ 351؛ ناجي معروف، علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، بغداد، مطبعة الإرشاد، 1973: 148 ـ 186؛ عبد الجبار حامد أحمد، الحياة العلمية في الموصل في عصر الأتابكة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب/ جامعة الموصل، 1986: 116 ـ 155.

(51) **المرجع نفسه**: 95 ـ 110.

ومن المؤكد أن ملاحظات ابن جبير هذه، ووصفه الدقيق لكل مظاهر الحياة في الموصل، التي تضمنها كتابه الذي انتشر في الأندلس، عقب رجوعه إليها، قد شجع غيره من العلماء للتوجه إليها، وإلى غيرها من مدن المشرق الإسلامي. وقد أسلفنا الإشارة إلى ابن الرومية، الذي زار الموصل بعد نحو ثلاثين سنة من زيارة ابن جبير لها. كذلك قصدها الكثير من العلماء الأندلسيين الذين ربما تأثروا بما قدمه عنها ابن جبير من معلومات مشجعة، ولا سيما على المستوى الثقافي، وكثرة العلماء والمدارس، والأحوال السياسية المستقرة. ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: محيي الدين بن العربي الحاتمي الصوفي، الذي رحل إلى المشرق، وزار أماكن عديدة، منها الموصل في عام 610هـ/ 1204م. وقد حضر فيها أحد مراسيم المتصوفة المعروف بتلقي «خرقة الخضر»، ومن هذا التاريخ أصبح ابن العربي يعتقد في الأهمية الكبرى لهذا المرسم من مراسيم التصوف، وأوصى مريديه باعتباره شعيرة من الشعائر، ورمزاً للأخوة الروحية[52]. كذلك جاء إلى الموصل عبد الله بن أحمد بن عبد الله الأنصاري الداني (ت 645هـ/ 1247م)، الذي حط رحاله فيها، ودرس الفقه الشافعي في المدرسة البدرية، وهي من المدارس التي نهضت بدور كبير في ازدهار الحركة العلمية في الموصل. وكان هذا الرجل محدثاً، سمع الحديث كثيراً في بلده، وله نظم ونثر، ويحفظ من أشعار الأندلسيين والرسائل والموشحات[53]. ونختتم أخيراً بعالم آخر جاء إلى الموصل

---

(52) ينظر: محيي الدين بن عربي، **الفتوحات المكية**، القاهرة، طبع بولاق، 1293هـ: 1/ 242، ومخطوط برلين رقم (2983)، الورقة 133ب، نقلاً عن: آسين بلاثيوس، **ابن عربي حياته ومذهبه**، ترجمه عن الإسبانية، عبد الرحمن بدوي، الكويت ـ بيروت، وكالة المطبوعات ودار القلم، 1979: 62 ـ 63.

(53) كمال الدين أبو البركات المبارك ابن الشعار الموصلي، **قلائد الجمان في فرائد شعر هذا الزمان**، مخطوط مكتبة قسم اللغة العربية/ كلية التربية بجامعة الموصل عن =

ضمن رحلته المشرقية، وهو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأندراشي المعروف بابن البلنسي، وابن اليتيم (ت 621هـ/ 1124م)، وقد لقي أعلام علمائها، وأخذ عنهم، ورجع إلى بلده بعلم جم وأصبح قاضياً في الأندلس[54]. ويقول ابن الأبار[55]، إنه كتب له بالإجازة لجميع رواياته. وهذا يشير إلى انتقال حصيلة علم ابن اليتيم، الذي جاء به من المشرق، والموصل بالذات إلى ابن الأبار، العالم الأندلسي صاحب المؤلفات المعروفة في تاريخ الأندلس، ما يدل على أهمية الرحلة العلمية في نقل التراث العلمي والثقافي، وتوثيق الصلات العلمية بين مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وأمثلتنا المختارة عن الموصل والأندلس ما هي إلا نموذج لهذا التواصل.

= الأصل الموجود في مكتبة أسعد أفندي/ استانبول، رقم (2324)، ج5، الورقة 143ب. وقد جاءت هذه الترجمة أيضاً ضمن الجزء الثالث المطبوع من هذا المخطوط، تحقيق، نوري حمودي القيسي ومحمد نايف الدليمي، ومراجعة عبد الوهاب محمد علي العدواني، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1992: 183.

(54) المقري، **نفح الطيب**: 6/ 44 ـ 48.

(55) **التكملة لكتاب الصلة**: 2/ 613 ـ 615.

جريدة المصادر والمراجع

(أ) المصادر الأولية:

1 ـ ابن الأبار، محمد بن عبد الله، **التكملة لكتاب الصلة**، القاهرة، نشر، عزت العطار الحسيني، 1995 ـ 1966.

2 ـ التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، **رحلة التجاني**، تقديم، حسن حسني عبد الوهاب، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، 1980.

3 ـ ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، **رحلة ابن جبير**، بيروت، منشورات دار ومكتبة الهلال، 1981.

4 ـ أبو حامد الغرناطي، محمد بن عبد الرحيم بن سليمان القيسي، **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، تحقيق، إسماعيل العربي، المغرب، دار الآفاق الجديدة، 1993.

5 ـ أبو حامد الغرناطي، **المعرب عن بعض عجائب المغرب**، قطعة منه نشرها سيزار دوبلر تحت عنوان:- Cesar E. Dubler, Abu Hamid el Granadino Y su Relacion de Viaje por Tirras Eurasiticas, edicion Texto Arabe con notas, Madrid, 1953.

6 ـ ابن الخطيب، لسان الدين محمد، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق، محمد عبد الله عنان، ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1973.

7 ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **المقدمة**، بيروت، دار إحياء التراث العربي (د. ت).

8 ـ الرعيني، أبو الحسن علي بن محمد، **برنامج شيوخ الرعيني**، تحقيق، إبراهيم شبوح، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1962.

9 ـ ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، **اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى**، اختصره: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل، تحقيق، إبراهيم الإبياري، ط2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1980.

10 - ابن الشعار، كمال الدين أبي البركات الموصلي، **قلائد الجمان في فرائد شعر هذا الزمان**، مخطوط مكتبة أسعد أفندي باستانبول، رقم (2324)، صورة محفوظة عنه في مكتبة قسم اللغة العربية بكلية التربية/ جامعة الموصل. والجزء الثالث المطبوع بتحقيق، نوري حمودي القيسي ومحمد نايف الدليمي ومراجعة عبد الوهاب محمد علي العدواني، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، 1992.

11 - العبدري، محمد العبدري البلنسي، **الرحلة المغربية**، تحقيق، أحمد جدو، قسنطينة، نشر كلية الآداب الجزائرية (د. ت).

12 - ابن العربي، أبو بكر محمد بن العربي، **الرحلة**، نشر إحسان عباس جزءاً منها بعنوان: **رحلة ابن العربي إلى المشرق** كما صورها قانون التأويل، **مجلة الأبحاث**، ج2، و3، كانون الأول، 1968 (71 - 91).

13 - ابن عربي، **الفتوحات المكية**، القاهرة، بولاق، 1293هـ.

14 - القلصادي، أبو الحسن علي بن محمد، **رحلة القلصادي**، تحقيق، السيد أبو الأجفان، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، 1978.

15 - المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، السفر الأول/ القسم الثاني، تحقيق، محمد بن شريفة، بيروت، دار الثقافة (د. ت). السفر الرابع، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1964. السفر الخامس/ القسم الثاني، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1965. السفر السادس، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1973. السفر الثامن/ القسم الأول، تحقيق، محمد بن شريفة، الرباط، مطبوعات الأكاديمية المغربية، 1984.

16 - المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، المحمدية، مطبعة فضالة، 1978.

17 - المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968.

(ب) المراجع الثانوية:

18 - أحمد، عبد الجبار حامد، **الحياة العلمية في الموصل في عصر الأتابكة**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب/ جامعة الموصل، 1986.

19 - بلاثيوس، آسين، **ابن عربي حياته ومذهبه**، ترجمه عن الإسبانية، عبد

الرحمن بدوي، الكويت - بيروت، وكالة المطبوعات ودار القلم، 1979.

20 - الجومرد، جزيل عبد الجبار، «أبو العباس بن الرومية عالم الأعشاب والنباتات الطبية - حياته وتراثه»، **مجلة آداب الرافدين**، العدد 24، الموصل، 1992.

21 - الدباغ، محمد نزار حميد طه، **المشرق العربي الإسلامي من خلال رحلة ابن جبير - الأحوال السياسية والعمرانية**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية/ جامعة الموصل، 2001.

22 - الديوه جي، سعيد أحمد، **تاريخ الموصل**، بغداد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، 1982.

23 - سليمان، أحمد السعيد، **تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة**، القاهرة، دار المعارف، 1972.

24 - طه، عبد الواحد ذنون، «**بغداد** من خلال رحلة ابن جبير»، بحث منشور ضمن كتاب: **بغداد في التاريخ**، بغداد، دار الحكمة للطباعة والنشر، 1991.

25 - طه، عبد الواحد ذنون، «صور من التأثير العلمي بين الموصل والأندلس»، بحث سيظهر في وقائع المؤتمر العلمي الأول لتاريخ العلوم عند العرب الذي عقد في مركز إحياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد، للفترة من 4 - 6 مايس 2002.

26 - طه، عبد الواحد ذنون، «المظاهر الحضارية في الموصل خلال العهد الأموي»، بحث منشور ضمن: **موسوعة الموصل الحضارية**، الموصل، دار الكتب، 1992.

27 - فهيم، حسين محمد، **أدب الرحلات**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1989.

28 - كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتس، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، نقله عن الروسية، صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987.

29 - مال الله، علي محسن عيسى، «العراق في رحلة ابن جبير خاصة ورحلات العرب الأخرى»، **مجلة المورد**، المجلد 18، العدد 4، بغداد، 1989.

30 - مطلوب، ناطق صالح، «الرحلة في طلب العلم والحياة الثقافية في الموصل» بحث منشور ضمن: **موسوعة الموصل الحضارية**، الموصل، دار الكتب، للطباعة والنشر، 1992.

31 - معروف، ناجي، **علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي**، بغداد،

مطبعة الإرشاد، 1973.

32 ـ المنوني، محمد، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1983.

33 ـ مؤنس، حسين، **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس**، ط2، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1986.

34 ـ Brockelman. C, Geschichte der Arabischen Literatur, Supplement bande, Leiden, 1937 - 1938, Vol. I.

35 ـ Pons Boigues, Los Historiadores Y Geografos Arabigo - Espanoles, Amsterdam, 1972, Reprint of Madrid edition, 1898.

الرحلات العلمية والتواصل بين الأندلس وبلاد إيران وما وراء النهر

على الرغم من البعد الجغرافي بين الأندلس، وأقصى المشرق الإسلامي، ولا سيما منطقة بلاد إيران الحالية، وأواسط آسيا. نجد أن التواصل الثقافي والاجتماعي، والاقتصادي، كان موجوداً، ومستمراً عبر العصور الإسلامية المختلفة. فلم تكن هناك حدود سياسية تمنع الراغبين في طلب العلم، أو التجارة، من التوجه إلى أي جهة يرغبونها من العالم الإسلامي المترامي الأطراف، من حدود الصين شرقاً، إلى شبه الجزيرة الآيبيرية غرباً.

وكانت المراكز العلمية الكبرى في المشرق هي الهدف المباشر، قبل الانتهاء من أداء فريضة الحج أو بعده، بالنسبة إلى القادمين من المغرب أو الأندلس. فكانوا يتوجهون إلى مصر، أو العراق، أو بلاد الشام. وكان بعضهم يكتفي بهذه المراكز، في حين طمح بعضهم الآخر إلى زيارة

مراكز علمية أبعد فيما وراء النهر، وبلاد إيران، ولا سيما بخارى وسمرقند، ومرو، ونيسابور، وأصبهان، وهمذان، وهراة، وغيرها من المراكز التي اشتهرت بالعلم والمعرفة، وتواجد العلماء الذين كانوا هدف القادمين، لالتقائهم والأخذ عنهم.

الرحلة من المشرق إلى الأندلس:

على الرغم من كثافة اتجاه الرحلات من الأندلس إلى المشرق الإسلامي بعامة، نجد أن هناك حالات، قصد فيها أهل المشرق إلى الأندلس، إما بهدف التجارة، وإما لطلب العلم، أو كلاهما. ولدينا على هذه الحال مثال يعود إلى حقبة مبكرة نسبياً، بحيث تشير المصادر إلى رحلة محمد بن موسى الرازي الكناني، والد أبي بكر أحمد بن محمد الرازي، المؤرخ المشهور في الأندلس. فهذا الرجل من أهل مرو، وغلب عليه اسم بلده فسمّي بالرازي[1]. وكان يعمل بالتجارة، ووفد أكثر من مرة على الأمراء الأمويين في الأندلس، كانت أولاها سنة 250هـ/ 864م، حين جاء ببضائع مشرقية نالت إعجاب الأمير محمد بن عبد الرحمن (238 ـ 273هـ/ 853 ـ 886م). فأجزل له العطاء، وقربه إليه، ثم كلفه للقيام بسفارة بينه وبين ابن الأغلب في إفريقية، لأحكام الصلة بين الأندلس ودولة الأغالبة. وقد توثقت مكانة هذا المشرقي عند الأمير محمد، وأخذ يتردد بين الأندلس وبلاد المشرق. واستمر هكذا في عهد المنذر، ابن الأمير

(1) أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، نشر، عزت العطار الحسيني، القاهرة، 1955 ـ 1956: 2/ 670؛ أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968: 3/ 111 (برواية ابن حيان)؛ وينظر أيضاً: محمد بن أبي نصر الحميدي، **جذوة المقتبس**، القاهرة، 1966؛ شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم الأدباء**، بيروت، طبعة دار المستشرق: 4/ 235 ـ 236؛ Pons Boigues, Los historiadores Y Geografos arabigo - espanoles, Amesterdam, 1972, reprint of madrid edition 1898, P. 45.

محمد. لكنه بعد وفاة الأخير قرر مغادرة الأندلس، وقد توفي في الطريق بمدينة إلبيرة Elvira سنة 277هـ/ 890م. وظلت أسرته في الأندلس، حيث نشأ ابنه أحمد، وحفيده عيسى بن أحمد، وأصبحا من أعظم مؤرخي الأندلس. وكان محمد الرازي أيضاً مُتقناً للعلوم، وله كتاب في التاريخ اسمه كتاب **الرايات**. فيه معلومات قيمة عن فتح الأندلس من قِبل القائد موسى بن نصير، ودور القبائل العربية التي كانت مرافقة له. وقد فُقِد هذا الكتاب باستثناء بعض النصوص التي حُفِظت لنا من قِبل بعض المؤرخين المتأخرين[2].

ومن التجار الآخرين الذين وردوا على الأندلس، ولكن في وقت متأخر نسبياً، سهل بن علي بن عثمان النيسابوري، الذي يُكنى بأبي قصر. وعلى الرغم من أن التجارة كانت مهنة هذا الرجل، بدليل أن ابن الأبار أطلق عليه اسم (التاجر)، فإنه كان عالماً بالحديث النبوي الشريف، وفقيهاً شافعياً. سمع الحديث من جماعة من الخراسانيين، منهم: أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي، وأبو الفتح السمرقندي. كما أدرك الإمام أبا المعالي الجويني في نيسابور، وحضر مجلسه ودروسه. ولقي بعده أصحاب القشيري والطوسي وغيرهما. وقد استفاد منه أهل المغرب والأندلس، ولا سيما القاضي عياض السبتي، الذي التقاه، وأخذ عنه الأحاديث. وقد أجازه أبو نصر النيسابوري جميع رواياته، وأخبره أن وفاة أبي المعالي الجويني كانت في نيسابور سنة 474 أو 475هـ/ 1081 أو 1082م. ويشير القاضي عياض أيضاً، كما ينقل عنه ابن الأبار، بأن هذا الرجل أراد الرجوع إلى بلاده في المشرق، فركب البحر من مدينة المرية

(2) عبد الواحد ذنون طه، **نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس**، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1988، ص19 ـ 22.

Almeria بالأندلس، ولكنه غرق في طريق سفره، وتوفي سنة 531هـ/ 1136م[3].

وكان القرن الخامس للهجرة قد شهد زيارة العديد من الخراسانيين للأندلس، بنية طلب العلم، أشارت إليهم بعض المصادر باقتضاب، منهم: أشهب بن العضد الخراساني، الذي وفد على ابن حمود في إشبيلية Sevilla[4]، وعبد الله بن محمد بن آدم الخراساني، الذي اشتهر بحسن صوته في قراءة القرآن بالأندلس[5]. كذلك أشارت المصادر إلى أبي العلاء عبيد بن محمد بن عبيد النيسابوري، الذي دخل إلى الأندلس، ولقيه الحافظ أبو علي حسين بن محمد بن فيرة بن حيون الصدفي في مدينة سرقسطة Zaragoza. وكان قد لقيه أيضاً في بغداد، عندما قدمها بعد حجه، وأخذ عنه[6].

ولعل من أشهر الداخلين إلى الأندلس من أهل المشرق الإسلامي أبا زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر التميمي البخاري، الذي ولد في بخارى سنة 382هـ/ 992م، وسمع فيها الحديث. كما سمعه أيضاً في ما وراء النهر، والعراق، ومصر، واليمن، والقيروان، ضمن رحلته الشاملة التي انتهت بالمغرب والأندلس. فكان خلال هذه الرحلة طالب علم، يأخذ ويكتب عمن يلقاه من الشيوخ والعلماء. فهو يُعدّ من الراحلين في الآفاق، حدّث الناس عن مئات رجال الحديث، واستقر أخيراً في مصر، ثم قدم دمشق وحدّث بها. وقد ذكره أبو القاسم بن عساكر في تاريخه، وأثنى عليه. ويقول المقري: إنه لم يدخل الأندلس من أهل المشرق

(3) ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، نشر، فرانسسكو كوديرا، مدريد، 1886، ص713 رقم (2008)؛ المقري، **نفح الطيب**: 3/ 67.

(4) **المصدر نفسه**: 3/ 118.

(5) ابن الأبار، **التكملة**: 2/ 913؛ المقري، **نفح الطيب**: 3/ 138.

(6) **المصدر نفسه**: 3/ 66 ـ 67.

أحفظ منه للحديث. وكان هذا الرجل يتمنى أن يرجع إلى بلده بخارى، لجلب بعض كتبه الخاصة بالحديث النبوي الشريف، فكان يقول: «لي ببخارى أربعة عشر ألف جزء حديث، أريد أن أمضي وأجيء بها». وقد توفي هذا الرجل بالحوراء سنة 471هـ/ 1087م، وله رسالة بعنوان: **رسالة الرحلة وأسبابها وقول لا إله إلا الله وثوابها**[7].

وتطالعنا في أواخر القرن السادس، وبدايات القرن السابع للهجرة أسماء ثلاثة من العلماء الذين جاؤوا من أقصى المشرق إلى الأندلس. الأول هو: أبو بكر عمر بن عثمان بن محمد بن أحمد الخراساني الباخرزي المالِيني، المولود سنة 560هـ/ 1164م. وقد نشأ وسمع الحديث في بلاده. فأخذ عن أبي الخير أحمد بن إسماعيل الطالقاني القزويني، وأبي يعقوب يوسف بن عمر بن أحمد الخالدي الزنجاني. ثم قدم الأندلس، فكان يروي الحديث في غرناطة Granada، ومرسية Murcia، وغيرهما من مدن الأندلس. وقد حدّث عنه أبو القاسم الملاحي، وسمع منه في مالقة Malaga أبو جعفر بن عبد الجبار، وأبو علي بن هشام في صفر من سنة 600هـ/ 1203م. ولا تشير المصادر إلى عودته إلى المشرق، أو وفاته في الأندلس[8].

وتشير دراسة حياة العالم الثاني، الشيخ تاج الدين أبي أحمد عبد الله بن عمر بن محمد بن حمويه السرخسي، المولود سنة 572هـ/ 1176م، إلى مدى عمق وتشعب الحياة العلمية، في القرنين الخامس والسادس للهجرة، في العالم الإسلامي. فهذا الرجل من سرخس في خراسان، رحل إلى المغرب، وأقام فيها حقبة من الزمن، ثم رجع إلى الشام واستقر

(7) **المصدر نفسه**: 3/ 62 ـ 64؛ وينظر: ابن الأبار، **التكملة**، ط. كوديرا، ص558 ـ 600 رقم (1671).

(8) **المصدر نفسه**: ص658 ـ 659 رقم (1830)؛ المقري، **نفح الطيب**: 3/ 65 ـ 66.

فيها. وكان في أثناء ذلك ينشر علمه الغزير بالأصول، والفروع، والتاريخ، والهندسة، والطب. وقد دوّن رحلته، وذكر فيها عجائب شاهدها في المغرب، ومشايخ لقيهم، وأخباراً عن دولة الموحدين في عهد خليفتها يعقوب المنصور. ويقول السرخسي في رحلته، كما نقل عنه المقري: «إني وإن كنت خراساني الطينة، لكني شامي المدينة، وإن كانت العمومة من المشرق، فإن الخؤولة من المغرب. فحدَثَ باعث يدعو إلى الحركات والأسفار، ومشاهدة الغرائب في النواحي والأقطار، وذلك في ريعان الشباب... فخرجت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة إلى زيارة البيت المقدس، وتجديد العهد ببركاته... ثم سرت إلى الديار المصرية... ثم دخلت الغرب من الاسكندرية في البحر، ودخلت مراكش أيام السيد الإمام أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب المنصور...»[9].

فهل هناك بلاغة أدل على شدة اللحمة الثقافية بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه؟ فهذا العالم يعتبر كل بلاد الإسلام موطنه، فأعمام أولاده من المشرق، وأخوالهم من المغرب، لا فرق بين هؤلاء جميعاً، فكلهم أخوة في الدين والمعتقد والأصل. ومن المؤسف أن رحلة هذا الرجل المدونة مفقودة، ولكن ما نقله لنا المقري منها كثير، وهو يدل على اهتمام السرخسي بأخبار المغرب وتدوينها، ولا سيما السياسية والاجتماعية والعلمية. ولهذا العالم كتب أخرى، منها **المؤنس في أصول الأشياء**، وكتاب **عطف الذيل**، في التاريخ، وكتاب **المسالك والممالك**. ولا تشير المصادر إلى تاريخ وفاة السرخسي، باستثناء أنه عاد إلى الشام سنة 600هـ/ 1203م، وحج إلى مكة سنة 604هـ/ 1207م[10].

(9) **المصدر نفسه**: 3/ 101 ـ 102.

(10) شمس الدين بن قزاوغلي التركي المعروف بسبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، طبعة حيدر آباد الدكن، 1951 ـ 1952. م8/ 1 ـ 2، ص748 ـ 749؛ شهاب الدين

والعالم الأخير الذي نُشير إلى رحلته من المشرق إلى الأندلس، هو عمر بن مودود بن عمر الفارسي البخاري السلماسي، يكنّى بأبي البركات. ولد بسلماس من بلاد الفرس، ونشأ فيها، وكتب الحديث هناك وتعلم العربية والفقه، وهو من أبناء الملوك. روى الحديث في أصبهان عن أبي عبد الله محمد بن محمود بن الفرج الهمذاني، وقد سمع عليه **صحيح البخاري** عن أبي الوقت. رحل إلى المغرب، وقدِم مدينة سبتة، وسكنها مدة، ثم عبر إلى الأندلس، فاستوطن في مدينة مالقة في حدود سنة 630هـ/ 1232م. وقد سُمع الحديث منه فيها، ثم رحل إلى إشبيلية. وقد التقاه ابن الأبار القضاعي، صاحب كتاب **التكملة**، فأجازه السلماسي جميع ما رواه. ويقول ابن الأبار: «وبلغني أنه سمع **صحيح البخاري** بالدامغات على أبي عبد الله محمد بن محمود. وكانت إجازته لي سنة 631». وكانت للسلماسي هذا معرفة بالفقه، وعلم الكلام، وقد تصدى للإقراء في مراكش التي انتقل إليها من الأندلس. وقد توفي فيها سنة 639هـ/ أو بعد سنة 640هـ[11].

نماذج من رحلات علماء الأندلس إلى المشرق:

تتوافر لدينا معلومات أكثر عن العلماء الأندلسيين الذين غادروا إلى المشرق في بلاد ما وراء النهر، والهضبة الإيرانية. وكان عددهم أكثر نسبياً. وهذا أمر طبيعي، نوّهنا عنه كثيراً، لأن كافة العلاقات العلمية كانت

عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، المعروف بأبي شامة، كتاب **ذيل الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ط1، القاهرة، 1947، ص147. أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، القاهرة، مكتبة القدسي، 1350 ـ 1351هـ: 5/ 214؛ المقري، **نفح الطيب**: 3/ 99 ـ 111.

(11) ينظر عنه: ابن الأبار، **التكملة**، ملحق ط. كوديرا، مدريد، 1915، ص186 ـ 187، رقم (2252)؛ أبو جعفر أحمد بن الزبير، **صلة الصلة**، نشر، ليفي بروفنسال، الجزائر، 1937، أعادت نشره ببيروت مكتبة خياط، ص74 ـ 75؛ المقري، **نفح الطيب**: 3/ 144.

دائماً في جانب الأندلس، التي بادر علماؤها بالرحلة إلى المشرق، للأسباب المعروفة التي أشرنا إليها، ولا سيما الحج، وطلب العلم. وقد أشار المقري إلى نحو خمسة عشر اسماً من هؤلاء، لم يرجع منهم أحد إلى الأندلس. فمنهم من توفي أو قُتِل في بلاد ما وراء النهر، وإيران، ومنهم من رجع إلى العراق وبلاد الشام، فاستقر هناك، إلى أن وافته المنية.

ويستثنى من هؤلاء ما ذكره ابن الأبار في ترجمته لأحدهم، الذي رحل من الأندلس إلى المشرق في القرن الخامس للهجرة، ثم رجع إلى الأندلس. وهذا الرجل هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن يحيى بن خليل بن ماسويه بن حمدين الأنصاري، الذي يُعرف بابن الحداد. خرج من الأندلس سنة 452هـ/ 1060م، متوجهاً إلى الحجاز، ثم سعى في طلب العلم في واسط، وبغداد، والموصل، وجاوز ذلك بالتوجه إلى بلاد فارس، وخراسان. ثم عاد إلى بلده، وأقام في طليطلة Toledo حتى سقوطها سنة 478هـ/ 1085م، فغادرها إلى دانية Dania التي عبر منها إلى المغرب. وكانت له في المغرب مناظرات في مسائل العلم مع القاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل في طنجة، وضع على أثرها رسالة بعنوان **رسالة الامتحان لمن برز في علم الشريعة والقرآن**. خاطب بها ابن سهل المذكور، وطلب منه الجواب عن أسئلة صعبة تدل على تبحره في العلم، واتساع أفقه، وخبراته التي اكتسبها ولا شك من رحلته المشرقية، والتقائه العلماء[12].

وقبل مجيء هذا العالم، بادر ثلاثة من الأندلسيين في القرن الرابع للهجرة لزيارة المشرق، في رحلة اعتيادية لطلب العلم، كل واحد منهم

(12) ابن الأبار، **التكملة**: 1/ 23.

على انفراد. وكان أولهم أبو محمد عبد الله بن حمود الزبيدي الإشبيلي، وهو ابن عم محمد بن الحسن الزبيدي اللغوي، صاحب كتاب **طبقات النحويين واللغويين**. ويبدو أن هذا الرجل كان أيضاً من أهل اللغة والنحو. فقد صَحِب أبا علي القالي في الأندلس، وأخذ عنه قبل أن يغادر إلى المشرق. وعند وصوله إلى بغداد، لازم أبا سعيد السيرافي إلى وفاته، ثم لازم بعده أبا علي الفارسي في بغداد، والعراق، وتبعه إلى فارس. وكان يبيت في الإسطبل خارج داره، ليكون أول الداخلين عليه في الصباح. وهكذا فإن روح طلب العلم عند هذا الرجل دفعته إلى التعلق بأستاذه، وملاحقته أينما حل ورحل. وقد أصبح من جلة النحاة وأكابرهم، وشرح كتاب سيبويه. وتوفي في بغداد سنة 372هـ/ 982م[13].

وخرج العالم الثاني: أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن نزار بن ثعلبة المعافري الأندلسي المالكي، من الأندلس إلى المغرب. فسمع فيها، ثم استمر إلى مصر، والحجاز، والشام، والجزيرة، وبغداد. وقد التقى شيوخاً متعددين في هذه المناطق، وأخذ عنهم، فأصبح فقيهاً حافظاً، استفاد منه أهل المشرق، ولا سيما في بلاد ما وراء النهر والهضبة الإيرانية. فقد روى عنه أبو عبد الله الحاكم في همذان سنة 341هـ/ 952م. ثم توجه بعد ذلك إلى أصبهان، ونيسابور، حيث سمع الكثير. ثم خرج إلى مرو، ومنها إلى بخارى، التي استقر فيها إلى وفاته سنة 383هـ/ 993م[14]. وبالإضافة إلى حفظه للحديث، وكتابته له، كان هذا الرجل

(13) محمد بن الحسن الزبيدي، **طبقات النحويين واللغويين**، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1954، ص339؛ ابن الأبار، **التكملة**: 2/ 783؛ جمال الدين القفطي، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، (طبعة دار الكتب المصرية)، 1950: 2/ 118؛ ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1964: 4/ 220، المقري، **نفح الطيب**: 2/ 647.

(14) عبد الله بن محمد المعروف بابن الفرضي، **تاريخ علماء الأندلس**، القاهرة الدار المصرية

مؤرخاً أيضاً، كتب تاريخاً لأهل الأندلس. ومن المحتمل أنه نشره في المشرق، وهو مع الأسف من الكتب المفقودة.

أما العالم الثالث، فهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الأعلى بن القاسم القرطبي المقرىء، المعروف بورش، نسبة إلى قراءة ورش، لاشتهاره بها. زار في رحلته المشرقية مصر، والشام، والحجاز، والعراق. ثم توجه شرقاً، فدخل خراسان، وسمع من علي بن المرزبان في أصبهان، وزار الجبل، ونيسابور، والأحواز، التي سمع فيها من عبد الواحد بن خلف الجنديسابوري. كما زار فارس وسمع فيها من أحمد بن عبد الرحمن بن الجارود الرقي. ويبدو أنه توجه بعد ذلك إلى سجستان (في الباكستان الحالية). حيث توفي هناك سنة 393هـ/ 1002م[15].

وشهد القرن السادس للهجرة عدداً لا بأس به من الرحالة الأندلسيين إلى الشرق. وقد قضى أحد هؤلاء نحبه في مدينة هراة سنة 551هـ/ 1156م بعد رحلة عمر حافلة، ابتدأت بولادته في مدينة شلب Silves جنوب البرتغال الحالية سنة 484هـ/ 1091م. وكان من بيت علم ووزارة، حافظاً للأصول والفروع، عالماً بالحديث ورجاله، ومسائل الخلاف، مع المعرفة التامة بعلم العربية، وعلم الهيئة (الفلك)، بحيث تُلْمِذَ في الأندلس لكبار علماء عصره. وقد ولي القضاء في الأندلس نحو تسع سنوات، ثم امتحن بالأمراء لإقامته العدل، وإظهاره الحق، حتى إنه أُعتقل في قصر إشبيلية. ثم أطلق سراحه، وقد بلغ نحو الأربعين من العمر. فقرر القيام برحلة مشرقية هدفها الحج، لكنه أقام في المهدية نحو ثلاثة أعوام، ثم انتقل إلى مصر، وبعدها حج سنة 527هـ/ 1132م. وأقام في مكة مجاوراً لسنة واحدة، ثم حجّ

للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966: 2/ 89 ابن الأبار، **التكملة**: 2/ 372 - 373؛ المقري، **نفح الطيب**: 2/ 143، 152.

(15) **المصدر نفسه**: 2/ 214 - 215.

سنة 528هـ/ 1133م. ودخل بعد ذلك العراق، وأقام مدة في بغداد. وقد ابتدأ بعد ذلك مرحلة جديدة من حياته بدخول خراسان، فأقام في نيسابور، وبَلْخ، حيث طار صيته، وعظم شأنه في العلم والدين. وقد انتقل بعد ذلك إلى مدينة هراة التي شهدت مثواه الأخير[16].

وقد وصلت الرحلة بأحد الأندلسيين المتوجهين شرقاً إلى الصين. فغدا يُلقب (إضافة إلى كنيته البلنسي) بالصيني. ويدعى هذا الرجل بسعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد الأنصاري البلنسي الصيني. وكانت غايته من الرحلة طلب العلم، فمر بالاسكندرية وحدّث بها، ثم تفقه في بغداد على أبي حامد الغزالي وغيره. وتفقه في أصبهان على أبي سعد محمد بن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سِنْدة المطرز، وأبي الفتح، وأبي علي الحدادين، وأبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل. كما سمع في خراسان أيضاً عن أبي الحسن علي بن عبد الله النيسابوري وغيره. ويبدو أنه استقر لحقبة من الزمن في أصبهان، التي تزوج فيها، وأنجب ابنة اسمها فاطمة، عرفت فيما بعد بأم عبد الكريم، وروت عن والدها الحديث، وقد رجع بعد ذلك، واستقر في بغداد. ويبدو أنه كان يتردد إلى الشام، حيث التقاه أبو القاسم ابن عساكر، وحدّث عنه. كذلك حدّث عنه ابن الجوزي في بغداد[17]. ويشير ابن عبد الملك المراكشي[18]، إلى أن هذا الرجل قد وضع برنامجاً أو فهرساً، ضمّنه أسماء جميع شيوخه، وكل ما أخذه عنهم. وقد وقف عليه المراكشي

(16) ابن الأبار، **التكملة**: 2/ 834 - 835؛ أحمد بن محمد السلفي، **أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السلفي**، تحقيق وإعداد إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1963، ص57 - 58 المقري، **نفح الطيب**: 2/ 136 - 137، 650.

(17) ابن الأبار، **التكملة**، طبعة كوديرا، ص714، رقم (2011)؛ المقري، **نفح الطيب**: 2/ 632.

(18) **الذيل والتكملة**: 4/ 16 - 18.

واستفاد منه. توفي سعد الخير ببغداد في المحرم من سنة 541هـ/ 1146م.

وشهدت الهضبة الإيرانية، وبلاد ما وراء النهر، زيارة أحد الأندلسيين الذين كرسوا حياتهم للرحلة وجوب الآفاق، وهو محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي، المعروف بأبي حامد، الذي ولد في غرناطة سنة 473هـ/ 1080[19]. وقد غادر أبو حامد إلى المشرق في حدود سنة 500هـ/ 1107م، في رحلة طويلة، شملت أولاً نواحي المغرب الأقصى، ثم مصر، والشام، وبغداد، التي وصلها لأول مرة سنة 516هـ/ 1123 ـ 1124م. وقد اتخذ أبو حامد بغداد قاعدة لرحلاته التي شملت هضبة إيران، وبلاد تركستان، وحوض الفولغا، والمجر، وشرق أوروبا، وأماكن أخرى[20].

ويهمنا من رحلة أبي حامد هنا، ما تعلق منها بهضبة إيران، بحيث نجده يحل في سنة 524هـ/ 1130م في مدينة أَبْهر، ومن هناك انتقل إلى أَرْدَبيل[21]. وحديث أبي حامد عن الأماكن النائية من شرقي هضبة إيران، وشمالها الشرقي، حديث طويل حافل بالفائدة. فهو يتحدث عن الأمم التي كانت تسكن عند دَرْبَنْدا أو الدَرْبَنْد، أو باب الأبواب، وهو أقصى ما وصل إليه الفتح الإسلامي شرقاً أيام الأمويين. وقد أشار إلى قريتين، فيهما جماعة من الناس يُدعون (زرية كاران أو كازان). ومعناه بالفارسية

(19) تنظر ترجمته عند: المقري، **نفح الطيب**: 2/ 235 ـ 236؛ Pons Boigues, Op. Cit., PP. 229 - 231.

(20) أغناطيوس بوليانوفتس كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987، ص326؛ حسين مؤنس، **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس**، ط2، القاهرة. مكتبة مدبولي، 1986، ص312.

(21) أبو حامد الغرناطي، **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، تحقيق، إسماعيل العربي، المغرب، دار الآفاق الجديدة، 1993، ص107، 108.

صناع الجلود، أو صناع الدروع. وكان جميع أهل هاتين القريتين يقومون بعمل الآلات الحربية، ولا حرث لهم ولا بساتين[22]. وقد أقام أبو حامد في هذه النواحي المتطرفة فترات طويلة، وتردد عليها المرة بعد المرة. ويذكر في كتابه **التحفة**، أنه دخل خوارزم ثلاث مرات، كان آخرها سنة 545هـ/ 1153م[23]. ثم خرج بعدها إلى الحج ماراً ببخارى، ومرو، ونيسابور، والري، وأصبهان، والبصرة. فأدى الفريضة، ثم عاد إلى بغداد[24]. وقد غادرها بعد ذلك إلى الموصل، التي بقي فيها عاماً كاملاً، تعرَّف خلاله إلى الكثير من أعيانها وعلمائها، أمثال الشيخ معين الدين أبي حفص عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي. وقد كتب أبو حامد كتابه **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب** بناء على رجاء من الشيخ عمر الأردبيلي. ثم غادر الموصل إلى حلب، ومنها رحل إلى دمشق التي توفي فيها سنة 562هـ/ 1169 ـ 1170م، وكان في الثانية والتسعين من عمره[25].

وقد سجل لنا أبو حامد ملاحظاته عن رحلاته في كتابين، دوّن أولهما في بغداد بعنوان: **المعرب عن بعض عجائب المغرب**، وأهداه إلى الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، الذي أكرمه، وفتح له داره ومكتبته[26]. ويطيل أبو حامد في هذا الكتاب الكلام عن خوارزم،

(22) **المصدر نفسه**: ص110 ـ 111.

(23) **المصدر نفسه**: ص113.

(24) أبو حامد الغرناطي، قطعة من كتاب: **المعرب عن بعض عجائب المغرب**، نشرها سيزار دوبلر تحت عنوان: Cesar E. Dubler, Abu Hamid el - Granadian Y su Relacion de Viaje Por Tierras Eurasiaticas, edicion del Texto Arabe con notas, Madrid, 1953, P. 44.

(25) المقري، **نفح الطيب**: 2/ 236؛ ويقارن: مؤنس، المرجع السابق، ص323.

(26) أبو حامد الغرناطي، **المعرب عن بعض عجائب المغرب**، مخطوط أكاديمية التاريخ في مدريد، رقم (XXXIV)، مجموعة جلينجوس، الورقة A2، نقلاً عن مؤنس، **المرجع السابق**، ص311.

ويعدد المدن والمسافات بينها، ويهتم بالناس وهيئتهم، وأعمالهم، والأرض وحاصلاتها، ومتاجرها. ويقص ما اتفق له من العجائب وغرائب الحكايات هناك، فقد كان يختار كل ما هو غريب وعجيب[27]. أما الكتاب الثاني، فقد كتبه، كما أسلفنا، في الموصل بعنوان **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب** وهو خليط عجيب من الأخبار المفيدة وغير المفيدة، بعضه واقعي، وبعضه أسطوري، ويمكن اعتباره تحفة أدبية، حاول فيه أبو حامد تقديم روايته عن الشعوب والأصقاع التي زارها، كما صور عجائب الكون، والأرض بصفة خاصة.

وإن كان أبو حامد قد اقتصر في الهدف من رحلاته على الاطلاع والمشاهدة لأنه لم يكن عالماً أو طالب علم، بل رحالة بالدرجة الأولى، فإن القرن السادس للهجرة شهد رحلة اثنين من العلماء الأندلسيين إلى المشرق، قضيا عمرهما في طلب العلم بين الأندلس والمشرق. استقر أحدهما في حلب، وهو أبو محمد بن علي بن عبد الله بن ياسر الأنصاري الجياني، واستقر الآخر في الموصل، وهو أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي. ولد الأول (الجياني) في مدينة جيّان Jaen بالأندلس سنة 492هـ/ 1098م، وتلقى تعليمه الأولي فيها. ثم رحل إلى المشرق قبل عام 520هـ/ 1126م، فأدى فريضة الحج، وقدم إلى دمشق، وعلّم بها القرآن، وتردد إلى بعض علمائها، ولا سيما أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر (ت 571هـ/ 1175م)، مؤلف كتاب **تاريخ مدينة دمشق**، الذي صاحبه، ورحل معه إلى بغداد سنة 520هـ وتبدأ رحلة التجاني إلى المشرق بخروجه من بغداد، حيث طاف في بلاد خراسان فسمع الحديث من حمزة الحسيني، وأبي عبد الله الفراوي، وأبي القاسم الشحّامي وغيرهم. وسكن بَلْخ، وسمع فيها من جماعة منهم أبو محمد

(27) **المرجع نفسه**: ص335، 353.

الحسن بن علي الحسيني وأبو النجم مصباح بن محمد المسكي، وغيرهما. وقد ذكره ابن السمعاني، وقال إنه لقيه في سمرقند، التي قدمها عام 549هـ/ 1154م مع جماعة من أهل الحجاز، كما لقيه أيضاً في نسف في أواخر عام 550هـ/ 1155م، وكذلك في بخارى سنة 551هـ/ 1156م، حيث سمع من لفظه هناك جميع كتاب **الزاد** لهنّاد بن السريّ الكوفي. وقد عاد الجياني إلى بغداد سنة 559هـ/ 1163م ثم توجه إلى الحج للمرة الثانية، ورجع إلى الشام، واستقر في حلب، إلى أن توفي فيها سنة 563هـ/ 1167م.

وعلى الرغم من أننا لا نعرف بالضبط موعد خروجه الأول من بغداد إلى المشرق، فإن عودته المتأخرة في سنة 559هـ، تدل ولا شك على أنه قضى هناك حقبة طويلة من الزمن، ربما تزيد على الثلاثين عاماً. كان خلالها يَسْمَع الحديث النبوي الشريف ويُسمِعُهُ، يتعلم، ويُعَلِّمْ، بدليل كثرة الإشارة إلى شيوخه وتلاميذه هناك. ويصفه معظم الذين ترجموا له، بأنه كان محدثاً، مفسراً وعالماً بالقراءات، أكثر من الحديث، وحصّل الأصول، ونسخ بيده ما لا يدخل تحت حصر. ورجع بكل حصيلته العلمية من الشرق ليستقر في حلب، التي قدرت منزلته فَسُلِّمَتْ إليه خزانة الكتب النورية. وقبل أن يتوفى، أوقف كتبه على أصحاب الحديث النبوي الشريف. ومن مؤلفاته كتاب **الأربعين في رواية المحدثين**[28].

ويختلف أبو بكر يحيى بن سعدون الأزدي القرطبي عن الجياني في أنه استكمل غالبية علومه في مدينة قرطبة بالأندلس التي ولد فيها سنة

(28) ينظر عنه: ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، نسخة على القرص المرن بإشراف مركز التراث لأبحاث الحاسوب الآلي: 54/ 399 ـ 400؛ ابن الأبار، التكملة: 2/ 500 ـ 501؛ ابن العديم، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، تحقيق، سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، 1988: 1/ 381، 7/ 340، 341؛ المقري، **نفح الطيب**: 2/ 58، 157، 628، 629؛ كارل بروكلمان، **تارخ الأدب العربي**، ترجمة، السيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب، القاهرة، دار المعارف، 1977: 6/ 277.

486هـ/ 1093م، ثم في رحلته التي شملت أولاً مصر، والعراق، وبلاد الشام. فقد اتصل بكثير من العلماء الذين يُشار إليهم بالبنان في كل هذه المناطق. وأصبح جاهزاً للعطاء، ولا سيما في علم القراءات، وفي الحديث النبوي الشريف، والنحو واللغة. وقد سمع عليه أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر في دمشق، ونقل عنه في كتاب **تاريخ مدينة دمشق** الكثير من رواياته.

رحل ابن سعدون الأزدي من الشام إلى الموصل التي استقر فيها بشكل نهائي وأصبح علماً من أعلامها البارزين. لكنه، وكما يبدو، كان يشعر أنه ينقصه بعض العلم الذي كان في الشرق، ولا سيما في بلاد فارس، وأصبهان. فتوجه إلى أصبهان لكننا لا نعلم شيئاً عن فعالياته هناك، ولا المدة التي قضاها فيها. ولا بد من أنه أخذ العلم عن علمائها، وبادلهم بما عنده من معلومات وخبرات. كذلك يبدو أنه تجوّل في أماكن أخرى غير أصبهان، منها مدينة أبْرز في فارس، التي ورد اسمها في أبيات من الشعر قالها الأزدي، وأنشدها عنه الصاحب كمال الدين بن أبي جرادة المعروف بابن النديم (ت 660هـ/ 1261م) لابن سعيد المغربي، وهي:

عرّج على منزل الأحباب يا حادي ... باب أبْرز حيث الكوكب الهادي

لعلنا نلتقي ليلاً بهم وعسى ... نُلقي إليهم حديثاً ليس بالبادي

يا حادي العيس لا تعْجَل وها كبدي ... ودع عيني عن ماءٍ وعن زاد

وقد رجع الأزدي إلى الموصل، واستمر في عطائه العلمي، بحيث أخذ عنه أبرز شيوخها، ولا سيما القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد (ت 632هـ/ 1160م)، وكمال الدين بن يونس المتوفى سنة 639هـ/ 1241م، ومجد الدين أبو السعادات ابن الأثير المبارك بن محمد، وغيرهم. وقد توفي الأزدي في الموصل في

عيد الفطر من سنة 567هـ/ 1171م[29].

وتطالعنا المصادر برحلة ستة علماء من الأندلسيين إلى الشرق في القرن السابع للهجرة. وكانت بخارى، والهضبة الإيرانية، المثوى الأخير لاثنين منهم ويرجع نسب الأول منهما إلى بني سعيد، فهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي، عم علي بن موسى بن سعيد، صاحب كتاب **المغرب في حلى المغرب**. وقد خرج هذا الرجل من الأندلس، نتيجة خلاف بينه وبين أهله، في رحلة طويلة بلغت به إلى بخارى في الشرق. ومن حسن الحظ أننا نملك معلومات لا بأس بها عن رحلته هذه، لأنه كتب رسالة إلى أهله يبلغهم فيها بمسار رحلته. لقد ابتدأت هذه الرحلة ببر العدوة في المغرب الأقصى، ثم المغربين الأوسط والأدنى، ثم مصر، حيث زار الاسكندرية والقاهرة. ومن مصر عبر البحر الأحمر لأداء فريضة الحج، ثم توجه إلى دمشق، وحلب، والموصل، وبغداد.

ويبدو أن عبد الرحمن هذا كان رجلاً عابثاً، لم يستطع أن يقاوم مغريات الحياة في دمشق، فضيّع أجر الحج والزيارة، بحسب اعترافه في

(29) ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، نسخة على القرص المرن بإشراف مركز التراث لأبحاث الحاسوب الآلي: 64/ 230 ـ 231؛ ياقوت، **معجم البلدان**: 2/ 14 ـ 15؛ ابن الأبار، **التكملة**، طبعة كوديرا، ص724؛ ابن خلكان، **ووفيات الأعيان**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1968: 6/ 171 ـ 172، 7/ 84، 85 (ضمن ترجمة ابن شداد)؛ ابن سعيد المغربي وأسرته، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق، شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، 1964: 1/ 135؛ ابن الزبير، **صلة الصلة**، ص177؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق، بشار عواد ورفاقه، بيروت مؤسسة الرسالة، 1986: 20/ 529 ـ 548؛ ابن الجزري، **غاية النهاية**، باعتناء، ج. برجستراسر، بيروت، دار الكتب العلمية، 1980: 2/ 372؛ المقري، **نفح الطيب**: 2/ 117 ـ 118؛ ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ط2، بيروت، دار المسيرة، 1972: 4/ 225؛ C. Brokelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, Leiden, E. J. Brill, 1983, Vol. I. P. 551 (429).

رسالته إلى أهله بالقول: «. . . وملت إلى حاضرة الشام دمشق، والنفس بالسوء أمارة، فهناك بعت الزيارة بالأوزار، وآلت تلك التجارة إلى ما حكمت به الأقدار. . .»[30]. وبعد بغداد سار شرقاً، دون غاية محددة، ولا طلب للعلم، حتى وصل بخارى، فغيّر طريقته، ومال إلى الدراسة وطلب العلم، فهو يقول: «. . . ثم تغلغلت في بلاد العجم بلداً بلداً، غير مقتنع بغاية، ولا قاصداً أمداً، إلى أن حللتُ ببخارى قبة الإسلام، ومجمع الأنام، فألقيتُ بها عصا التسيار، وعكفت على طلب العلم، واصلاً في اجتهاده سواد الليل وبياض النهار»[31].

والظاهر أن ما شاهده الرجل في بخارى وكثرة علمائها، جعله يُعيد التفكير في حياته العابثة السابقة التي لا هدف لها. فاستقر في هذه المدينة، وحصل على السعادة، وكوّن علاقات اجتماعية مع كبار أهلها، أمثال نقيب الأشراف فيها، الذي تبادل معه الهدايا. ولكنه مع ذلك، كان يحن إلى أهله وبلده، فكتب إليهم هي بين همدان وأصبهان. وقد استقر فيها، وتزوج، لكنه، وكما يبدو من شعره، لم يكن مرتاحاً فيها، بحيث يقول[32]:

أنا مأسور بحيطان الكَرَج في عناءٍ أسألُ الله الفَرَجْ

ليس بالمغبوط من يسكنها إنما المغبوط من منها خَرَجْ

لكن ياقوتاً الحموي[33]، الذي كان قد التقاه في بغداد، يشير إلى أنه بعد مغادرة بغداد وزيارة بلاد الجبل، كان ببلدة بَرُوجِرْد، التي تزوج

(30) المقري، **نفح الطيب**: 2/ 270 ـ 272.

(31) **المصدر نفسه**: 2/ 272.

(32) ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**: 2/ 172.

(33) أبو البركات المبارك بن أحمد اللخمي الأربلي المعروف بابن المستوفي، **تاريخ إربل**، تحقيق، سامي بن السيد خماس الصقار، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1980: 1/ 90.

فيها، وولد له أولاد. ويحتمل أنه انتقل من الكَرَج إلى بَرُوجِرْد، كما أشار إلى ذلك الصفدي[34]. وفي أي حال فالمدينتان قريبتان الواحدة من الأخرى، لأن برُوجِرْد تقع بين همدان والكَرَج، ولا تبعد عن الكرج سوى عشرة فراسخ كما يقول ياقوت. وربما كان جمال نساء هذه المنطقة، هو الذي شدّ الزهري للتزوج منهم، والاستقرار بين ظهرانيهم، على الرغم من تفشي بعض الصفات الاجتماعية السيئة بينهم، مثل (اللؤم) و(البخل)، كما يتبين من الشعر الذي أورده ياقوت الحموي. ويحتمل أن هذا يفسر ضيق الزهري من مدينة الكَرَج ورغبته في الخروج منها. فيذكر ياقوت بيتين من الشعر يهجو بهما أحدهم أهل برُوجِرْد، وهما[35]:

بَرُوجِرْد في طيبها جنّةٌ وما عيبها غير سُكّانها

ولكن يُغطّي على لؤمهم وبخلهم جود نِسْوانها

لقد تميز الزهري بنشاطه العلمي الكثيف، الذي مارسه بشكل كبير من بخارى يقول شعراً[36]:

إذا هَبّتْ رياحُ الغربِ طارتْ إليها مُهجتي نحو التلاقي

وأحسبُ من تركتُ به يلاقي إذا هبّتْ صِباها ما أُلاقي

فيا ليت التفرق كان عدلاً فحُمّل ما يطيقُ من اشتياقي

وليت العمر لم يبرح وصالاً ولم يُحكمْ علينا بالفراقِ

وقد استشهد عبد الرحمن بن محمد في بخارى سنة 616هـ/ 1219م،

(34) **معجم الأدباء**: 17/ 277.

(35) **الوافي بالوفيات**، باعتناء، هلموت ريتر، فيسبادن، 1961 أعيدت طباعته في طهران: 2/ 104 ـ 105.

(36) **معجم البلدان**: 1/ 404.

حين اجتاحت هذه المدينة جيوش التتر، التي عاثت في بلاد تركستان وإيران فساداً.

ولقي عالم أندلسي آخر حتفه بعد عام تقريباً بالطريقة نفسها نتيجة اجتياح التتار القادم من أطراف الصين. فقد وصلوا إلى مناطق الري، والجبل، وهمدان. وما فيها من البلاد التي من ضمنها منطقة الكَرَج وبَرْوجِرْد. فخربوا هذه المناطق وقتلوا الكثير من سكانها. وكان منهم عالمنا هذا: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الزهري الأندلسي الإشبيلي، الذي استشهد يوم 17 رجب عام 617هـ/ 1220م

ولد هذا العالم في مدينة مالقة سنة 560هـ/ 1164م، وتنقَّل في مدن الأندلس لطلب العلم. ثم خرج في رحلة علمية في أواخر العقد التاسع من القرن السادس للهجرة، فدخل مصر، وسمع الحديث في الاسكندرية، ثم دخل بلاد الشام، والجزيرة، والموصل، وإربل، وبغداد، التي وصلها سنة 590هـ/ 1194م، وعمره ثلاثون عاماً. فأقام فيها مدة، ثم توجه بعدها إلى أصبهان، وسمع فيها من أبي جعفر الصيدلاني، ومن أصحاب أبي علي الحسن بن الحداد. ثم خرج إلى الكَرَجْ، التي كانت آخر كل المناطق التي تواجد فيها خلال جولاته المتعددة، ورحلاته العلمية. وكانت له صداقات مع العلماء الذين كان يلتقيهم، أمثال: محب الدين محمد بن محمود ابن النجار (ت 643هـ/ 1245م)، الذي اجتمع به في أصبهان، وصادقه وكتب عنه أحاديث، وكذلك ياقوت الحموي، الذي قال عنه: «... وكان لي صديقاً معاشراً، حسن الصحبة، عذري القلب، جيد الشعر...»[37]. وقد أقام الزهري في الكَرَجْ وبُروجِرْد يقرىء الأدب، وصنف فيهما غالبية مؤلفاته، بحيث يشير ياقوت إلى **شرحه الإيضاح في**

(37) **معجم الأدباء**: 17/ 277.

النحو في مدينة الكَرَج وكتاب **الإيضاح** الذي شرحه، هو بالأصل لأبي علي الفارسي، الذي ألَّفه لعضد الدولة البويهي. وبلغ حجم شرح الزهري خمسة عشر جزءاً. كذلك شرح الزهري **مقامات الحريري** في مجلد واحد، أسماه **شرح المقامات**. كما ألَّف **شرح اليميني** في مجلد واحد. وكتاب **اليميني** هو لأبي نصر محمد بن عبد الجبار العتبي، كاتب السلطان محمود الغزنوي، وهو الموسوم بـ**تاريخ العتبي** أو **اليميني في تاريخ يمين الدولة محمود سبكتكين**. ومن مؤلفات الزهري الأخرى، كتاب **البيان والتبيين في أنساب المحدثين**، في ستة أجزاء، **والبيان فيما أُبهم من الأسماء في القرآن**، في مجلد واحد، **وأقسام البلاغة وأحكام الفصاحة والصناعة** جزآن. وهذه الكتب مفقودة، ولكنها تدل على علم الرجل، والجو الثقافي الملائم الذي ساعده على تأليفها[38].

وتشح معلومات المصادر عن بعض الأندلسيين المغادرين إلى المشرق، فلا تزودنا إلا بإشارات مقتضبة عن رحلتهم، وأماكن تواجدهم. ومن هؤلاء اثنان، هما: الحافظ نجيب الدين أبو محمد عبد العزيز ابن الأمير القائد أبي علي الحسن بن عبد العزيز بن هلال اللخمي الأندلسي، الذي وُلد في الأندلس سنة 577هـ/ 1181م تقريباً، ورحل قاصداً مكة، ثم بغداد وواسط، فسمع فيهما الحديث. ثم رحل إلى أصبهان، فسمع من امرأة تدعى عين الشمس الثقفية، وجماعة. وسمع في خراسان من المؤيد الطوسي، وأبي روح، وأصحاب الفراوي. وكان كثير الأسفار، ديّناً

(38) ينظر عن الزهري أيضاً: زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري، **التكملة لوفيات النقلة**، تحقيق، بشار عواد معروف، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1975: 5/ 25؛ ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1965، السفر الخامس/ القسم الثاني، ص644 ـ 645؛ المقري، **نفح الطيب**: 2/ 214؛ حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، استانبول، 1941: 1/ 136، 212، 262، 663.

متصوفاً، كبير القدر، صاحب حديث وسنّة. وقد قادته رحلته إلى مدينة البصرة، فتوفي فيها في رمضان سنة 617هـ/ 1220م[39].

أما العالم الثاني، وهو أبو العباس أحمد بن تميم بن هشام بن أحمد بن حَنون البهراني، فأصله من مدينة لَبْلَة Nibla، وسكن إشبيلية. روى عن عدد من علماء عصره في الأندلس، ثم رحل إلى المشرق وسمع من بعض العلماء، ولا سيما في بغداد. ثم عبر بعد ذلك إلى خراسان، فسمع من المؤيد الطوسي، وفي هراة من أبي روح عبد المعز، وفي مرو من عبد الرحيم بن عبد الكريم السمعاني، وغيرهما. وقد رجع إلى بلاد الشام فسمع فيها الحديث، ثم توفي في دمشق سنة 620هـ/ 1223م، أو 625هـ/ 1227م[40].

وعلى عكس العالمين السابقين، تتوافر لدينا تفصيلات جيدة عن حركة اثنين من آخر العلماء الذين زاروا الشرق قادمين من الأندلس. ولا شك في أن وفرة المعلومات تعود إلى مدى شهرة العالم، ومقدار ما يتركه من بصمات في المناطق التي يتواجد فيها. ويتميز زكي الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أبي يداس البرزالي الإشبيلي، بأنه من أحد هؤلاء، فهو ينتمي إلى قبيلة برزالة المغربية. ولد سنة 577هـ/ 1181م، وتلقَّى تعليمه الأولي في بلده الأندلس. ابتدأ رحلته بقصد الحج، وطلب العلم سنة 602هـ/ 1205 فوصل الاسكندرية، وسمع فيها، وفي القاهرة. وكان زميله في السماع في القاهرة، الحافظ المنذري، صاحب كتاب **التكملة لوفيات النقلة** وقدم مكة، وسكنها نحو ثلاث سنوات، ثم غادر إلى دمشق سنة 605هـ/ 1208م، وعاد بعدها إلى مصر، ثم رجع إلى دمشق.

(39) المقري، **نفح الطيب**: 2/ 626.

(40) ابن الأبار، **التكملة**: 1/ 112؛ المقري، **نفح الطيب**: 2/ 603.

وخرج البرزالي من دمشق قاصداً خراسان، مبتدئاً بذلك جولة جديدة من السماع، وطلب الحديث النبوي الشريف. فسمع في أصبهان من عين الشمس الثقفية، وجماعة من أصحاب زاهر الشحّامي، وفي نيسابور من منصور الفراوي، والمؤيد بن محمد علي الطوسي، الذي سمع منه **صحيح مسلم** وغير ذلك. وسمع في هراة من عبد المعز الصوفي، كما سمع في مرو وهمذان وعلى الرغم من كثرة السماع هذه، وجد البرزالي أنه لم يستكمل علومه بعد فرجع إلى العراق، وزار بغداد، وتكريت، وإربل، والموصل، وحران. ثم استقر أخيراً في دمشق، وأعقب بها، وأصبح إماماً بمسجد فُلوس، وشيخاً للحديث في مسجد ابن عروة فيها. وقد تخرّج على يديه عدد كبير من التلاميذ، الذين أصبحوا شيوخاً يُشار إليهم بالبنان، أمثال، أبي حامد ابن الصابوني، وأبي المجد ابن العديم، وابن واصل الحموي، وأبي الفضل ابن عساكر، وغيرهم. توفي البرزالي في مدينة حماه في الرابع عشر من رمضان سنة 636هـ/ 1236م.

وكان البرزالي قد عُرف بخلقه الراقي، وأنه كان ثقة يحفظ الحديث ويذاكر به، وخرّج لأشياخه عوالي مفيدة، وجمع لهم أسماء شيوخهم ضمن تصنيف عُرف **بالمعجم الكبير في الشيوخ**. ولا شك في أن درجة البرزالي العالية في علم الحديث، ترجع إلى تعدد منابع دراسته، ابتداءً من الأندلس غرباً، إلى الهضبة الإيرانية شرقاً، وما يقع بينهما من الحواضر الإسلامية الكبرى المعروفة[41].

(41) ينظر عن البرزالي: ابن المستوفي، **تاريخ إربل**: 1/ 300، وهامش رقم (1): 2/ 502 ـ 503؛ المنذري، **التكملة لوفيات النقلة**: 6/ 312 ـ 313 (الترجمة 2893)؛ ابن الأبار، **التكملة**: 2/ 642 ـ 643؛ أبو شامة، **ذيل الروضتين**، تحقيق، عزت العطار الحسيني دمشق، 1947: 168؛ الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، ط4، بيروت دار إحياء التراث العربي: =

كذلك تميز أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل السلمي المرسي باتساع شهرته، وانتشار صيته على نطاق العالم الإسلامي في القرن السابع للهجرة. فقد ولد بمرسية Murcia في الأندلس سنة 570هـ/ 1174، وخرج في رحلته من بلاد المغرب سنة 607هـ/ 1210م، فدخل مصر والحجاز ثم استقر لمدة من الزمن في مدينة بغداد، يسمع، ويقرأ الفقه، والخلاف عن الأصلين بالمدرسة النظامية، التي أُسست في بغداد منذ سنة 459هـ/ 1066م. ثم سافر بعد ذلك إلى خراسان، لاستكمال سماعه وعلمه، وتجوّل في نيسابور، وهراة، ومرو الشاهجان، عاد بعدها إلى بغداد، ثم غادر إلى مصر، ومنها إلى الشام، حيث توفي في الطريق إليها سنة 655هـ/ 1257م.

كان أبو عبد الله السلمي من أفاضل العلماء في علوم القرآن والحديث والفقه والخلاف والأصلين والنحو واللغة. رآه ياقوت الحموي في الموصل، فأخبره السلمي أنه سمع في همذان من جماعة، وفي نيسابور **صحيح مسلم** من المؤيد الطوسي، وجزءاً من ابن نُجَيْد، ومن منصور بن عبد المنعم الفراوي، وأم المؤيد زينب بنت الشعري، وفي هراة من أبي روح الهروي. ويضيف ياقوت أن هذا الرجل كان نبيلاً، وقد حلّ بعض مشكلات إقليدس، وله استدراكات على المفصل للزمخشري في سبعين موضعاً، أقام على خطئها البرهان[42]. ويشير الذهبي[43]، إلى

= 4/ 1423 ـ 1424؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق، بشار عواد معروف ورفاقه، ط3، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1986: 23/ 55 ـ 56؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، باعتناء، س. ديدرينغ، فيسبادن، 1970: 5/ 252، الترجمة (2331)؛ اليافعي، **مرآة الجنان**، الهند، حيدر آباد الدكن، 1338هـ: 4/ 94؛ ابن القاضي، **درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق، محمد الأحمدي أبو النور، تونس ـ القاهرة، المكتبة العتيقة ودار التراث، 1971: 2/ 298؛ ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ط2، بيروت، دار المسيرة، 1972: 5/ 182.

(42) **معجم الأدباء**: 18/ 209، 213.

(43) **العبر في خبر من غبر**، تحقيق، أبي هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول، بيروت، =

أن أبا عبد الله السلمي كان كثير الأسفار والتصوف، رحل حتى وصل إلى أقصى خراسان، وكان جمّاعةً لفنون العلم، ذكياً، ثاقب الذهن له تصانيف كثيرة، مع زهد، وورع، وفقر، وتعفف. ويذكر المقري[44]، أن السلمي حدّث في بغداد بكتاب **السنن الكبير** للبيهقي، وبكتاب **غريب الحديث** للخطابي، وله تفسير القرآن باسم **ري الظمآن**، وهو كتاب كبير جداً، فضلاً عن تفسيرين آخرين، الأول متوسط، والآخر صغير. وكتاب **الضوابط الكلية في النحو**، وتعليق على **الموطأ**. وكان له كتب خاصة به في معظم المدن التي ينتقل إليها، فلا يحتاج إلى نقلها معه. وقد توفي تاركاً كتباً كثيرة في مدينة دمشق بخاصة.

الخاتمة

يتبين من استعراض نماذج من التواصل والرحلات بين الأندلس والشرق، أن هناك كثافة باتجاه المشرق من الأندلس. وأن كفة هذه العلاقات كانت دائماً لصالح الأندلس. وهذا الأمر ينطبق على كل الراحلين إلى المشرق، وليس على القادمين إلى بلاد إيران، وما وراء النهر فحسب، وذلك بسبب الموقع الجغرافي، لأن نسبة كبيرة من الراحلين من الأندلس، كانت تدفعهم الرغبة لأداء فريضة الحج، فيخرجون لهذا الغرض، ثم تتحول اهتماماتهم إلى طلب العلم، أو أن الباعث للرحلة هو مشترك في طلب العلم والحج. في حين أن القادم من بلاد إيران بقصد الحج، ليس بالضرورة أن يستمر إلى الأندلس. ومع هذا فقد استمر بعضهم باتجاه المغرب وصولاً إلى الأندلس، ولكن بنسبة قليلة جداً. ومن الجدير بالذكر أن اثنين من هؤلاء على الأقل، وصلا إلى الأندلس بغرض

= دار الكتب العلمية: 3/ 277.

(44) **نفح الطيب**: 2/ 241 ـ 242.

التجارة، مثل محمد الرازي، وسهل بن علي النيسابوري. لكن النيسابوري غلّب كفة طلب العلم، والعطاء العلمي على التجارة فيما بعد.

وقد اشتهر بعض أهل المشرق الذين وصلوا الأندلس بشدة الاهتمام العلمي، والتعرف إلى المجتمع الذي اندمجوا فيه. حتى إن أحدهم وهو أحمد بن حمويه السرخسي، كتب ملاحظات قيّمة عن المغرب ودولة الموحدين، فيها الكثير من الاهتمامات بالنواحي السياسية، والاجتماعية والاقتصادية للمغرب. ويعدّ هذا العالم مثالاً على شدة اللحمة العلمية بين أقصى المشرق في خراسان، وأقصى المغرب في مراكش، ووسط العالم الإسلامي، بحيث اتخذ مقر استقراره في الشام.

وإذا ما التفتنا إلى النماذج الخاصة بالأندلس، نلحظ أن معدل الرحلات كان منخفضاً في القرون الهجرية الأولى، ويبدأ منذ القرن الرابع، فالخامس وتكون الزيادة في القرنين السادس والسابع. وغالبية الراحلين خرجوا بنية الحج وطلب العلم. لكن أبا حامد الغرناطي يمثل استثناءً. فقد خرج بنية التجوال واستكشاف المجهول. وكذلك عبد الرحمن بن سعيد، الذي خرج لخلاف مع أهله، ولم يبدأ بطلب العلم، إلا عندما استقر في مدينة بخارى.

وقد خرج بعض هؤلاء الراحلين من الأندلس، وهم على درجة عالية من العلم، فأعطوا وأفادوا، ولكنهم لم يتخلوا عن السماع والاستفادة ومثال هؤلاء الجيّاني، وابن سعدون الأزدي. كذلك فقد استقر قسم من هؤلاء الراحلين، وتزوجوا وأنجبوا في المشرق، وكان مثواهم الأخير هناك، في حين أن الغالبية رجعت إلى العراق وبلاد الشام، ولكن لم يرجع إلى الأندلس، سوى راحلٍ واحدٍ من النماذج التي اطّلعنا عليها.

ويتبين من ملاحظة ودراسة نماذج الراحلين إلى المشرق أيضاً، أنهم كانوا يعتمدون بعد الانتهاء من الأخذ على أعلام المسلمين في الحواضر

الكبرى في وسط العالم الإسلامي، ولا سيما في مصر، والحجاز، والعراق، وبلاد الشام، التوجه إلى بلاد إيران الحالية، ومناطق ما وراء النهر، التي تميزت بوجود علماء مسلمين أكفاء فيها. الأمر الذي دفع بعضهم إلى الاعتقاد بأن ثقافتهم لم تكتمل حتى يزوروا هذه الأماكن. ومن الجدير بالذكر أن الراحلين كانوا يقصدون أحياناً أشخاصاً بذاتهم يتواجدون في هذه المدينة أو تلك. ففي أصبهان قصدوا علماء أمثال أبي جعفر الصيدلاني، وعلي بن المرزبان، وأبي الحسن الحداد، وأبي زاهر الشحّامي، ومحمد بن أبي عبد الله بن سِنْدة المطرز، ومن النساء، عين الشمس الثقفية، وفاطمة بنت سعيد الخير. وفي نيسابور قصدوا أبا المعالي الجويني، ومنصور بن عبد المنعم الفراوي، والمؤيد الطوسي. وفي هراة قصدوا عبد المعز الصوفي، وأبا روح الهروي، وأم المؤيد زينب بنت الشعري. وفي مرو قصدوا عبد الرحيم بن عبد الكريم السمعاني، وفي بخارى وسمرقند قصدوا علماء آخرين تميزوا بعطائهم العلمي، ورواياتهم للحديث.

وفي الختام، فإن سير هذه الرحلات، واتجاهاتها على مدى قرون تمتد قريباً من الرابع إلى السابع للهجرة، يبين مقدار التواصل العلمي والاجتماعي، وحتى التجاري بين أطراف العالم الإسلامي من الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً . وكذلك يتبين أن هؤلاء العلماء لم يكونوا يهتمون بمكان الإقامة، قدر اهتمامهم بالبيئة العلمية التي تتوافر في ذلك المكان. ولم يعد الوطن هو الهدف الأكبر للرجوع والاستقرار بل المكان الذي يرتاح فيه العالم، ويجد فيه وطنه وتلاميذه وشيوخه.

الرحلات الأندلسية مصدراً لتاريخ بلاد الشام
دراسة تحليلية مقارنة لنص ابن جبير

نشر هذا البحث ضمن محاضر المؤتمر الدولي السادس
لتاريخ بلاد الشام
10 ـ 12 تشرين الثاني 2001

تمهيد:

زار عدد من الأندلسيين المشرق لغايات مختلفة، وتركوا ملاحظاتهم على المناطق التي زاروها، وهي تتفاوت في قيمتها وأهميتها تبعاً لاهتمام صاحب الرحلة، وتعد هذه الملاحظات على جانب كبير من الأهمية لأنها تمثل رواية من شاهد عيان، يمكن التعرف من خلالها إلى أحوال البلد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعمرانية، وكان طلب العلم والاستزادة منه أحد الأسباب الرئيسية للقيام بالرحلة، فضلاً عن أداء فريضة الحج، وزيارة الأماكن الشهيرة في المشرق، مثل المسجد الأقصى في القدس، وبغداد، ودمشق، والقاهرة، وغير ذلك من مراكز الثقافة في المشرق الإسلامي.

وعلى الرغم من تعدد أهداف الرحلات، وتباين أصناف القائمين عليها، وضخامة أعدادهم، فإن القلة منهم فقط دوّنوا رحلاتهم وهؤلاء النخبة هم المعنيون في هذا البحث، ولا سيما بعض من زار منهم بلاد الشام في القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، ويختلف هؤلاء بدورهم في مقدار ما قدموه من معلومات، وطريقة تدوينهم للملاحظات الخاصة بهذا البلد، ومجال اهتمامهم الذي تأثر من دون شك بدرجة ثقافتهم والغرض من قيامهم بالرحلة. ولما كان أبو الحسن محمد بن جبير الكناني (ت 614هـ/ 1217م) يقدم أشمل نص ضمن نصوص الرحلات عن بلاد الشام في هذه الحقبة، توجه إليه الاختيار ليكون الأساس الذي يشكل سدة البحث ولحمته، مقارنة ببعض الرحلات المعاصرة له، أو التي تدخل ضمن الفترة المقاربة للبحث.

تُعد رحلة أبي بكر محمد بن العربي (ت 543هـ/ 1148م)[1]، طليعة الرحلات الأندلسية المدونة إلى المشرق وهي تحمل: عنوان «الرحلة أو ترتيب لرحلة»[2] ابتدأ بها سنة 485هـ/ 1092م. عندما رحل مع أبيه من الأندلس متوجهاً إلى المشرق، فدخل الشام ولقي فيها الكثير من العلماء والمحدثين، وعلى رأسهم أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت 520هـ/ 1126م)[3]، تجول ابن العربي في بلاد الشام، وأقام ثلاث سنوات في بيت المقدس[4] وفضلاً عن اهتمامه بالعلماء، والتقائه إياهم، اهتم في

---

(1) تنظر ترجمته عند ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 578هـ/ 1183م) كتاب الصلة الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1966: 2/ 590 ـ 591.

(2) Pons Boigues, Francisco, Los historiadores Y geografos arabigo - espanoles, Amesterdam, 1972, reprint of Marid edition 1998, P. 217.

(3) ابن بشكوال، **الصلة**: 2/ 590 المقري، أحمد بن محمد (ت 1041هـ/ 1631م) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقا ورفاقه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939: 3/ 62 ـ 63.

(4) المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق، إحسان عباس، دار =

رحلته بالغرائب التي شاهدها في بلاد الشام، مثل بعض المظاهر العجيبة في بعض بيوت دمشق. و«المائدة» بطور زيتا[5]. وتوجد نسخة مخطوطة من رحلة ابن العربي في المكتبة الخاصة بالشيخ محمد المنوني بالرباط كما نشر الدكتور إحسان عباس جزءاً منها سنة 1968م[6].

ومن الأندلسيين الذين كرسوا حياتهم للرحلة وجوب الآفاق واكتشاف المجهول، محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي، المعروف بأبي حامد (ت 565هـ/ 1169م)[7] الذي غادر إلى المشرق في حدود سنة 500هـ/ 1106 ـ 1107م في رحلة طويلة شملت مناطق متعددة جداً، منها بلاد الشام التي مكث فيها فترات مختلفة، فحدث في دمشق وسمع فيها الحديث أيضاً[8]. كما رجع إليها بعد جولة طويلة في المشرق، وأقام في حلب نحو سنتين، ثم غادرها إلى دمشق سنة 560هـ/ 1164م وبقي فيها حتى وفاته عام 565هـ/ 1169 عن عمر ناهز الثانية والتسعين[9]. وألّف أبو حامد كتابين شرح فيهما مشاهداته الواسعة، وهما **«تحفة الألباب ونخبة الإعجاب»**[10] و**«المعرب عن بعض عجائب**

= صادر، بيروت 1968: 2/ 37 سيشار إلى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا: المقر، نفح الطيب.

(5) **المصدر نفسه**: 2/ 33، 37.

(6) ينظر: «رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل»، مجلة الأبحاث، ج(2 ـ 3)، بيروت، كانون الأول، 1968، ص71 ـ 91 وينظر: كراتشكوفسكي، أغناطيوس، يوليا نوفتش، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسية، صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987 ص331، حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة 1986، ص495، 412 سيشار إلى هذا المرجع حين وروده، فيما بعد هكذا: مؤنس، تاريخ الجغرافية.

(7) تنظر ترجمته عند: المقري، **نفح الطيب**: 2/ 235 ـ 236.

(8) **المصدر نفسه**: 2/ 235.

(9) **المصدر نفسه**: 2/ 236، ويقارن: مؤنس تاريخ الجغرافية، ص323 ـ 324.

(10) حققه المستشرق الفرنسي جابرييل فران Gabriel Ferrand ونشره في المجلة =

المغرب»[11] ومن استعراض القسم الذي نشره سيزار دوبلر من كتاب **«المعرب»**، كذلك كتابه الآخر **«تحفة الألباب»**، ، يبدو أنه كان يهتم بكل ما هو غريب وعجيب، بحيث ركز في رحلته على العجائب، فتحدث عن عجائب البنيان في بلاد الشام، مثل حصن بعلبك، ومدينتي تدمر وحمص، ومدينة أخرى منحوتة من الصخر تسمى اللجاة في هضبة حوران[12]. وهكذا يبدو أن اهتماماته كانت محدّدة ولا يمكن أن تقارن بأي حال بما قدمه ابن جبير من وصف حي للحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لبلاد الشام، فضلاً عن إشاراته المتكررة إلى العمارة والبنيان كما سنرى لاحقاً.

وكان موضوع التقاء العلماء مدار اهتمام الكثيرين ممن رحلوا إلى المشرق سواء أكان ذلك قبل قيام ابن جبير برحلته أم بعدها. ونخص بالذكر هنا عالم النبات المعروف بابن الرومية، أبا العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد بن محمد بن مفرج الأموي الإشبيلي (ت 637هـ/ 1239)[13] ويبدو أن مجال اهتمام هذا الرجل لم يكن يتعدى أداء فريضة الحج والتحصيل العلمي في مجال اختصاصه بعلم النبات، والتقاءه علماء الحديث إذ إنه التقى في حلب ودمشق والقدس بعض هؤلاء المحدثين في سنة 613هـ/ 1216م، وأخذ عنهم[14]، ودوّن أسماءهم ضمن برنامج خاص

= الآسيوية Journal Asiatique عام 1925 وظهر حديثاً بتحقيق إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب 1993.

(11) نشر سيراز دوبلر Ce Sar E. Dubler قطعة منه بعنوان: Abu Hamid el - Granadion Ysu Relation de Viaje Por Tieeraw Eurasiaticas, (edicion del Texto Arabe con notas), Madrid, 1953.

(12) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الأعجاب طبعة إسماعيل الغربي، ص105

(13) ينظر عنه: جزيل عبد الجبار الجومرد، «أبو العباس بن الرومية عالم الأعشاب والنباتات الطبية ـ حياته وتراثه»، مجلة آداب الرافدين، العدد 24، الموصل، 1992، ص494.

(14) الأنصاري، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي المراكشي (ت 703هـ/ 1303م)، =

(فهرسة)، حفظه لنا ابن عبد الملك الأنصاري في الترجمة الواسعة التي كتبها عن ابن الرومية[15].

ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء الرحالة، أبا الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي (ت 685هـ/ 1286م)، الذي ابتدأ رحلته مع والده من الأندلس إلى المشرق بنية الحج سنة 638هـ/ 1240م، فمر بتونس والاسكندرية والقاهرة، ومنها انتقل إلى حلب برفقة كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد، المعروف بابن العديم (ت 660هـ/ 1261م)، صاحب تاريخ حلب، فقابل هناك الناصر الأيوبي (634 ـ 658هـ/ 1236 ـ 1260م) ودخل في خدمته لمدة ثلاث سنوات من 644 ـ 647هـ/ 1246 ـ 1249م، وجمع له كتاب **ملوك الشعر**[16]. وتعد هذه الحقبة من أهدأ أيام حياته وأوفرها إنتاجاً، فقد أتم فيها إخراج كتاب **المغرب في حلى المغرب**، وربما جزءاً من المشرق في حلي المشرق[17]، كذلك رحل أبو سعيد إلى دمشق، ودخل في خدمة سلطانها توران شاه لمدة سنة (647هـ/ 1249م)، واستغل وجوده في دمشق فسمع من أبي شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت 665هـ/ 1266م) ما يتيسر له من اختصار تاريخ ابن عساكر[18] ثم غادرها إلى بغداد سنة (648هـ/ 1251م)، وأفادت رحلة ابن جبير في اطّلاعه على معلومات جيدة عن الأحوال العامة في بلاد الشام، أشار إليها في بعض مصنفاته، منها ما ذكره عن الملك العادل سيف الدين محمد بن أيوب بن شادي (592 ـ 615هـ/ 1197 ـ

= الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة، تحقيق، محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت السفر الأول، القسم الثاني، بيروت (د. ت) ص497 ـ 498 ـ 499 ـ 501.

(15) **المصدر نفسه**: ص487 ـ 518.

(16) المقري، **نفح الطيب**: 2/ 273 ـ 273، 59.

(17) **المصدر نفسه**: 2/ 272، وينظر: مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص472.

(18) المقري، **نفح الطيب**: 2/ 299.

1218م) أخي صلاح الدين، فأشار إلى نبذ من سياسته في بلاد الشام، وإلى إنشائه للمدرسة العادلية في دمشق التي دفن فيها سنة (615هـ/ 1218م)[19].

وقبل أن نختتم الكلام عن الرحالة الأندلسيين الذين زاروا المشرق، لا بد من الإشارة إلى رحلة بنيامين بن بونة التطيلي النباري الأندلسي (ت نحو 569هـ/ 1173م)، الذي زار بلاد الشام قبل نحو سبعة عشر عاماً من زيارة ابن جبير لها، وكان بنيامين على الأغلب من وجهاء قشتالة، وتاجراً يهودياً تعنيه الشؤون الاقتصادية، أكثر من اهتمامه بالعلماء الذين عرفهم في أثناء تجواله. وقد ابتدأت رحلة بنيامين من تطيلة Tudela في شمال شرق شبه الجزيرة الأيبيرية، في حدود سنة 561هـ/ 1165م واستغرقت نحو ثماني سنوات[20] مرَّ خلالها بجنوب فرنسا، وإيطاليا، والقسطنطينية، ومنها عبر بحر إيجة إلى بلاد الشام ومدنها، ثم الجزيرة والموصل، وبغداد، وبلاد إيران، والهند، وجنوب الجزيرة العربية، والبحر الأحمر، ومصر، ومن ثم العودة من الاسكندرية من طريق صقلية إلى أسبانيا[21] ويختلف بنيامين عن ابن جبير في تباين اهتماماته، وهدفه من الرحلة، بحيث ركز على أحوال اليهود في كل مدينة زارها، فذكر أعدادهم وأوضاعهم، وطرق كسبهم، ومركزهم العلمي والاجتماعي، وعلاقتهم بالبيئة التي يعيشون فيها، في حين أن اهتمام ابن جبير كان منصباً على دائرة أوسع، تشمل معظم مجالات

---

(19) **المصدر نفسه**: 2/ 296 ـ 299، ويقارن: ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت 618/ 1282م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968: 5/ 78 سيشار إلى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا: ابن خلكان، وفيات.

(20) رحلة بنيامين، ترجمها عن الأصل العبري، عزرا احداد، المطبعة الشرقية بغداد، 1945، ص48، وتنظر مقدمة المترجم، ص22 ـ 30، سيشار لهذا المصدر حين، وروده فيما بعد هكذا رحلة بنيامين.

(21) **المصدر نفسه**: ص25 ـ 28.

الحياة للمناطق التي زارها، على الرغم من اهتمامه الواضح بشؤون المغاربة المستقرين في بلاد الشام. وقد حقق بنيامين التطيلي زيارة أماكن لم يذهب إليها ابن جبير، ولا سيما في منطقة فلسطين مثل القدس، وبيت لحم والخليل والرملة، وأشدود، وعسقلان[22] ومن الطريف أن الرجلين دخلا بلاد الشام من طرق معاكسة فبينما قصدها بنيامين من الساحل الشمالي نزولاً من أنطاكية، ومن ثم توغل فيها حتى تركها من طريق الجزيرة الفراتية[23]، نجد أن ابن جبير قام بالعكس تماماً إذ دخلها من طريق الجزيرة، وغادرها من الساحل وبالتحديد من ميناء عكا[24].

ونعود الآن إلى رحلة ابن جبير الكناني[25] التي ابتدأها من الأندلس سنة 578هـ/ 1183م وهي الأولى ضمن ثلاث رحلات قام بها إلى المشرق، لكنه لم يدوّن سواها. وقد ترك لنا وصفها على هيئة يوميات في كتاب وضعه بعد رجوعه إلى الأندلس في نحو عام 581هـ/ 1185م وهي وثيقة من أجمل وأصدق ما خلّفه الرحالة العرب في تاريخنا الفكري[26]. سلك ابن جبير في رحلته طريق البحر، فعبر من هذا طريق إلى سبتة ومنها إلى الاسكندرية، فالقاهرة التي غادرها إلى صعيد مصر وصولاً إلى مرفأ

(22) **المصدر نفسه:** 98 ـ 106، 108 ـ 109.

(23) **المصدر نفسه:** 124 ـ 125.

(24) ينظر: ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني (ت614هـ/ 1217م) رحلة ابن جبير، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، 1981، ص256، سيشار إلى هذا المصدر حين ورده فيما بعد هكذا: ابن جبير الرحلة.

(25) ينظر عنه الأنصاري، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي المراكشي (ت 703هـ/ 1303م) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1965، السفر الخامس، القسم الثاني ص595 ـ 621، ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله (ت 776هـ/ 1374م) الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1974: 2/ 230 ـ 239 المقري، **نفح الطيب**: 2/ 381 فما بعدها.

(26) مؤنس، **تاريخ الجغرافية**، ص429.

عيذاب على البحر الأحمر، ونزل جدة، ومنها إلى مكة حيث أدى فريضة الحج، غادر بعدها إلى المدينة المنورة، ومنها إلى الكوفة، بغداد، وسامراء والموصل، والجزيرة، ومنها إلى بلاد الشام، بعد عبوره نهر الفرات، الذي عدَّه ابن جبير الحد الفاصل بين ديار الشام وديار بكر، وذلك يوم الخميس العاشر لربيع الأول سنة 580هـ/ الحادي والعشرون من حزيران/ يونيه 1184م[27].

أفادت رحلة ابن جبير، كغيرها من الرحلات التي تمت بين الأندلس والمشرق الإسلامي، في تقوية الصلات بين الجانبين، وكانت لملاحظاته ومشاهداته أهمية كبرى في تاريخ الكثير من الأماكن التي حظيت بزيارته، لأنها صورت حياة ذلك العصر، وقدمت وصفاً حياً لبلاد الشام عندما بدأت فيها حركة التحرير الإسلامية ضد الصليبيين بزعامة نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي[28]. واعتمد ابن جبير على قوة ملاحظته في تصوير الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية لهذه البلاد وكانت هذه الملاحظة القوية النافذة، مجال إطراء الأب لامانس Lammans في تحليله لرواية ابن جبير عن الشام[29].

لم يكتف ابن جبير بمجرد الوصف والمشاهدة العيانية، بل حاول حين التحدث عن مكان ما، أو أثر معماري أصيل، أن يغطي كل جوانب الموضوع، وذلك بالاستعانة بمن كتب عن هذا الأمر قبله وهو ينقل عن مؤرخ يطلق اسم ابن المعلى الأسدي[30]، مقدار ما أنفق على بناء المسجد

(27) ابن جبير، **الرحالة**: ص200.

(28) ينظر: كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ص334 ـ 335.

(29) المرجع نفسه نقلاً عن: Lammens, H. Causeries, geographiques sur la syrie Beyrouth 1911, PP. 53 - 64.

(30) لعل المقصود بهذا المؤلف هو أبو يعلى حمزة بن أسد المعروف بابن القسلاني =

الجامع في دمشق[31]، كذلك ينقل من «تاريخ» هذا المؤلف وصفاً لبعض أطراف دمشق[32] وكلامه عن المسجد على سبيل المثال، ومحاولة ضم القسم الغربي منه في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96هـ/ 705 ـ 715م) ينسجم تماماً مع ما أوردته المصادر العربية الموثوقة في هذا الخصوص[33]، ما يدل على تحرٍّ دقيق للحقيقة، ومحاولة لتقديم صورة تاريخية صحيحة لما يشاهده ويتحدث عنه، كذلك اعتمد على تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر (ت 571هـ/ 1175م) في بعض أوصاف مدينة دمشق وما حولها، وأشار إلى أن هذا التاريخ «ينوف على مئة مجلد...»[34] وينقل معلومات يمكن التأكد منها بالرجوع إلى هذا السفر الثمين في تاريخ هذه المدينة العريقة[35].

ولا يتردد ابن جبير في الاعتراف بعدم مشاهدته لمنطقة من المناطق، وأنه اعتمد على أقوال الناس في صفتها، مثال ذلك وصفه

= (ت 55/ 1160م) ولكن المطبوع من كتابه المعروف: ذيل تاريخ دمشق، تحقيق آمدوروز، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1908، لا يتضمن الكلام عن المسجد، أو أوصاف مدينة دمشق، ومن المحتمل أن ابن جبير نقل من كتاب آخر لم يصلنا لهذا المؤلف.

(31) ابن جبير، **الرحلة**، ص211.

(32) **المصدر نفسه**: ص222.

(33) ينظر: **المصدر نفسه**، ص 212، ويقارن: على سبيل المثال: البلاذري أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ/ 892م) فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، مطبعة السعادة، القاهرة، 1959، ص132.

(34) ابن جبير، **الرحلة**: ص222، ويقارن: ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت597هـ/ 1200م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، 1357 ـ 1359هـ: 10/ 261 الذي يشير إلى أن تاريخ دمشق لابن عساكر «يدخل في ثمانين مجلداً كبار».

(35) ينظر: ابن جبير، **الرحلة**: ص222، 226 ويقارن: ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت 571هـ/ 1175م) تاريخ مدينة دمشق تحقيق، صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، دمشق 1951م، مج1، ص192 ـ 208م، (دمشق 1954) ص196.

لبحيرة طبرية وذكره لمساحتها، وإشارته إلى أن «الأقوال فيها تختلف وهذا القول أقربها إلى الصحة لأننا لم نعاينها»[36] وحين يتعرض إلى بعض الأحداث، أو الظواهر التي لا يقتنع بصحتها، يبدي رأيه في ذلك بكل صراحة، وهذا ما فعله عند تعليقه على وجود مشهدين، أحدهما للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في أحد جوانب المسجد الجامع بدمشق، والآخر لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، مشيراً إلى عدم ثبوت زيارتها أو دخولها إلى دمشق من الناحية التاريخية[37].

قضى ابن جبير نحو أربعة أشهر في بلاد الشام، وأمضى في دمشق وحدها قرابة سبعين يوماً، ويستنتج من خلال روايته عن هذه البلاد الكثير من المعطيات التي يمكن تصنيفها إلى ما يأتي:

أولاً ـ الأحوال السياسية:

زار ابن جبير بلاد الشام، وكان سلطانها آنذاك صلاح الدين الأيوبي، الذي كان يتهيأ لاستعادة بيت المقدس، وكسر شوكة الصليبيين في بلاد الشام، وتعد رواية ابن جبير عن هذا البطل الإسلامي من أدق الروايات وأكثرها إنصافاً، وهي وثيقة من وثائق التاريخ المحايدة التي سجلها شاهد عيان منصف، عاصر هذا السلطان، وهو يتأهب لمنازلة حصن الكرك ومحاصرته، ومن ثم رجوعه إلى دمشق للاستجمام بعسكره ومعاودة محاصرة الحصن المذكور[38] ويمكن ملاحظة الاهتمام الكبير

(36) ابن جبير، **الرحلة**: ص254.

(37) **المصدر نفسه**: 216 ـ 227.

(38) **المصدر نفسه**: ص245، وينظر عن أهمية هذا الحصن وحصار صلاح الدين له، **المصدر نفسه**: ص 234، ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رابع (ت 632هـ/ 1239م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق، جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964، ص66، سيشار إلى =

الذي أبداه هذا الرحالة في مدح وإطراء صلاح الدين[39] وهو يتفق في هذا مع المؤرخين المعاصرين لهذا الرجل[40] ولم تقتصر نظرة ابن جبير على الحاضر الذي عايشه في بلاد الشام، بل نجد أنه يلتفت إلى الوراء، في اعتراف صريح بأهمية الأساس الذي وضعه نور الدين محمود الملقب بالملك العادل وما قام به من إنجازات، وماله من مناقب، مهدت الطريق إلى صلاح الدين للسير بهذا الاتجاه، وتحقيق الصمود الإسلامي أمام الصليبيين[41].

ولما كانت بلاد الشام تخضع في بعض أجزائها للصليبيين تضمنت رواية ابن جبير الكثير من المعلومات عن هؤلاء وبعض ملوكهم

= هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا: ابن شداد، النوادر، وعن المحلة على الكرك يقارن: ابن الأثير، عز الدين محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت 630هـ/ 1233م)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت 1979: 11/ 506 ـ 507 رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت 1968: 2/ 714 سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: رنسيمان، تاريخ.

(39) ينظر: ابن جبير، **الرحلة**: ص 226، 243 ـ 244، 232.

(40) ينظر على سبيل المثال: ابن منقذ، أبو مظفر أسامة الكناني الشيزري (ت 584هـ/ 1188م) الاعتبار، تحقيق، فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة 1930، ص164 ـ 165.

(41) ابن جبير، **الرحلة**، ص231، وعن بعض أعمال ومنجزات نور الدين محمود، يقارن: ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة (ت 555هـ/ 1160م) ذيل تاريخ دمشق، تحقيق، مدروز، مطبعة الإباء اليسوعيين، بيروت 1908، ص328، 329، 352، 353، ابن الأثير عز الدين محمد بن عبد الكريم الشيباني، (ت 630هـ/ 1233م)، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر أحمد طليحات، دار الكتب الحديثة في القاهرة ومكتبة المثنى ببغداد 1963، ص170 ـ 171 سيشار إلى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا: ابن الأثير، المقدسي (ت 665هـ/ 1266) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1962: 1/ 1/ 38 ـ 41 سيشار إلى هذا المصدر حين وروده فيما بعد هكذا: أبو شامة، الروضتين، وينظر أيضاً: عماد الدين خليل، نور الدين محمود الرجل والتجربة، دار القلم، دمشق ـ بيروت 1980، ص96 ـ 97، فما بعدها، سيشار إلى هذا المرجع حين وروده فيما بعد هكذا: خليل، نور الدين.

وشخصياتهم الشهيرة، ولا سيما بلدوين الأبرص ابن ملريك الذي يصفه على أنه ملك عكا الذي «ابتلاه الله بالجذام»[42]، وكذلك «حاجبه وصاحب الحال عوضه خاله القومس اللعين صاحب طرابلس وطبرية»[43] الذي كان أسيراً عند نور الدين محمود نحو اثني عشر عاماً، ثم تخلص من الأسر ببذل مال عظيم إلى صلاح الدين الأيوبي[44]، ويصور ابن جبير بشكل دقيق العلاقات بين الصليبيين والمسلمين في بلاد الشام في مختلف المجالات، ولا سيما علاقات التبادل التجاري بين مدن الطرفين، بغض النظر عن الحرب القائمة بينهما وتعد عبارته في وصف هذه الحالة من أشهر ما قيل في هذا المجال: «وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب»[45] وهذا تجسيد لما عايشه هذا الرحالة، الذي وصف خروجه من مناطق المسلمين في بلاد الشام إلى الأراضي المحتلة من قبل الصليبيين، ودخول سبي هؤلاء إلى المسلمين في الوقت نفسه، على أنه غاية «الاعتدال في السياسة»[46] وعدم الانغمار الكلي في مستنقع الحرب، الذي ينتفي فيه التعايش وتلبية المتطلبات الأساسية للحياة في المجتمع.

(42) ابن جبير، **الرحلة**: ص254، وينظر: رنسيمان، تاريخ: 2/ 652 ـ 653.

(43) ابن جبير، **الرحلة**: ص254، وهنا يخلط ابن جبير بين خال بلدوين، الكونت جوسلين والكونت ريموند صاحب طرابلس وطبرية، الذي هو ابن خالة بلدوين وليس خاله، ولكنه كان يتولى فعلاً إدارة الدولة وقت زيارة ابن جبير، ينظر، رنسيمان، تاريخ: 2/ 654 ـ 655، 716.

(44) ابن جبير، **الرحلة**: ص254، ويشير ابن الجوزي، المنتظم: 10/ 249، وكذلك أبو شامة، الروضتين: 1/ 610، إلى أن إطلاق ملك الإفرنج صاحب طرابلس، كان في عهد نور الدين لقاء مبالغ نقدية وعينية كبيرة.

(45) ابن جبير، **الرحلة**: ص235، ويقارن: مؤنس، تاريخ الجغرافية، ص451.

(46) ابن جبير، **الرحلة**: ص246.

ثانياً ــ الشؤون الاجتماعية:

يقدم نص ابن جبير معلومات وافية عن هذه المعطيات من خلال استعراضه لكثير من العادات والتقاليد الاجتماعية التي كانت تسود في بلاد الشام في أثناء زيارته لها، فهو يبين أهمية مسجد الجامع ودوره الاجتماعي في الحياة العامة، وتجمع الناس فيه بعد صلاة العشاء الآخرة(47) كما يعرض لبعض العادات السائدة في دمشق، ومنها وصف الجنائز وكيفية السير فيها(48)، وتقاليد استقبال الحجاج عند عودتهم من أداء الفريضة، وما يقوم به الناس من تعظيم لهم وتبرُّك بهم، ويقارن ذلك بما يشابهه في بغداد، واختلافه عند أهل المغرب(49). ويوجه ابن جبير انتقادات لاذعة لبعض عادات أهل الشام، منها استعمالهم الألقاب في الأسماء، والمبالغة بالألفاظ في وصف العلماء، والفقهاء، ومخاطبة الناس بعضهم لبعض بالتسويد والتعظيم، والمبالغة في الانحناء والركوع في أثناء السلام، كما ينتقد أيضاً طريقة مشي أهل دمشق، وأيديهم إلى الخلف، لكنه يُطري في الوقت نفسه طريقتهم في المصافحة، ولا سيما بعد صلاتي الصبح والعصر، وعند رؤية الأهلة(50).

واهتم ابن جبير بطوائف المجتمع، فتطرق إلى أحوال النصارى في بلاد الشام، واختلاطهم بالمسلمين وتعايشهم جنباً إلى جنب(51). لكنه لم يذكر اليهود، على العكس من بنيامين التطيلي، الذي كرس لهم فقرات كثيرة من رحلته، فذكر عددهم بالنسبة إلى المدن التي زارها، حتى ولو

(47) المصدر نفسه: 215.
(48) المصدر نفسه: 238.
(49) المصدر نفسه: 233.
(50) المصدر نفسه: 241 ـ 243.
(51) المصدر نفسه: 209 ـ 234.

كان شخصاً واحداً(52) كما أشار إلى تعاون بعضهم مع المسلمين في حرب الغزاة من الصليبيين، ولا سيما في منطقة تدمر(53) أما طوائف المسلمين، فنالت اهتماماً واسعاً في لدن ابن جبير، فأشار إلى أماكن وجود الإسماعيلية، ولا سيما في صفحة جبل لبنان(54) ومدينة بزاغة قبل زيارته لها بثماني سنوات(55) كما أشار إلى وجود الشيعة في عدد من مدن بلاد الشام(56) وأورد نصاً بالغ الأهمية عن تنظيمات الفتوة السنية التي تعرف بالنبوية، والتي نشأت كردّ فعل مضاد لبعض الفرق الإسلامية المتطرفة(57).

ويولي ابن جبير اهتماماً بالغاً بوصف الخانات التي نزل فيها، ويشيد بجهود صلاح الدين الأيوبي في إنشاء بعضها(58) كما يقدم وصفاً لربط الصوفية التي تدعى بالخانقاه أو الخوانق التي نالت اهتمام ولاة الأمور، فقدموا لها الأوقاف الوفيرة لسد احتياجاتها، ومساعدة ساكنيها والملتزمين بها(59)، وقد وصف ابن جبير أحوال الصوفية وسيرتهم، وعوائدهم، واجتماعاتهم، وكانت أحوالهم، كما يقول: «كلها بديعة، وهم يرجون عيشاً طيباً هنيئاً»(60) وتعد المارستانات أيضاً من أهم المرافق الاجتماعية التي نالت اهتمام هذا الرحالة، فما إن ينزل مدينة من المدن إلا ويسأل عن وجود مارستان فيها. وقد انتقد مدينة حمص وأهلها لخلوّها من

(52) رحلة بنيامين، ص95 ـ 108 ـ 117 ـ 122.
(53) **المصدر نفسه**: 118.
(54) ابن جبير، **الرحلة**: ص206، ويقارن: رحلة بنيامين، 87 ـ 88.
(55) ابن جبير، **الرحلة**: ص202.
(56) **المصدر نفسه**: ص227.
(57) **المصدر نفسه**: ص227.
(58) **المصدر نفسه**: 205 ـ 209.
(59) **المصدر نفسه**: 219، 223، وعن جهود نور الدين في مجال الأوقاف، ينظر ابن الأثير، الباهر، ص172، خليل، نور الدين ص112، 116.
(60) ابن جبير، **الرحلة**: ص231.

ذلك[61] وقدم في الوقت نفسه تفصيلات دقيقة عن مارستان دمشق، ولا سيما المارستان الحديث، الذي بناه نور الدين محمود[62] فأشار إلى مقدار نفقاته في اليوم الواحد، وإلى أطبائه ومساعديه، وطريقتهم في الحضور والالتزام بالوقت وإلى احتوائه على مكان خاص لمعالجة المصابين بالأمراض العقلية[63].

ويحفل نص ابن جبير بوصف الأوضاع الاجتماعية للمسلمين وأسرهم في المناطق التي كانت تخضع للاحتلال الصليبي، ويبين الكثير من الأمور التي تشير إلى اختلاط المسلمين بالإفرنج[64] ويبدي أسفه لإقامة بعض المسلمين في ظل الصليبيين، ولا سيما في صور، بحيث انتقد أهلها على رجوعهم إلى السكنى في المدينة «بعد أمان كُتب لهم في ذلك بشروط اشترطوها» ويرى أن المسلم لا تجوز له الإقامة في البلاد التي يسيطر عليها «الكفار» إلا «مجتازاً»[65] ويذكرنا هذا الموقف المتشدد بالفتوى المشابهة التي أصدرها بعد أكثر من ثلاثة قرون، أحمد بن يحيى الونشريسي، بعدم صحة بقاء المسلمين في الأندلس في ظل حكم النصارى، وتكفير من لا يهاجر منهم[66] من دون النظر في ظروفهم وعجزهم عن الهجرة وصعوبة مفارقة الوطن، وترك الديار التي عاش فيها هؤلاء وأجدادهم مئات السنين.

---

(61) **المصدر نفسه**: ص209.

(62) ينظر: ابن خلكان، وفيات: 5/ 185، وعن هذا المارستان ينظر أيضاً: ابن الأثير، الباهر، ص170 ـ 171، أبو شامة، الروضتين: 1/ 1/ 21، ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت 668هـ/ 1269م) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت 1965، ص628، ويقارن: خليل نور الدين ص113.

(63) ابن جبير، **الرحلة**: ص230 ـ 231.

(64) **المصدر نفسه**: ص252، ويقارن: ابن منقذ، الاعتبار، ص132 فما بعدها.

(65) ابن جبير، **الرحلة**: ص252.

(66) الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت 914هـ/ 1508م) المعيار المعرب =

ثالثاً ـ الأحوال الاقتصادية:

جذبت أسواق المدن في بلاد الشام جزءاً كبيراً من اهتمام ابن جبير، فركز عليها ووصفها وصفاً دقيقاً، مطرياً انتظام ونظافة وجمال بناء بعضها، ولا سيما أسواق منبج، وحلب، وحماة ودمشق[67]. في حين أنه انتقد أسواق مدينة حمص قائلاً: «لا رونق لأسواقها كاسدة لا عهد لها بنفاقها»[68]. ويبدو أنه كان يهتم كثيراً بأمور التجارة وطرقها، فقدم لنا صورة واضحة لأحوالها، ولا سيما مع المناطق المحتلة من قبل الصليبيين، فهو يشير إلى استمرار قوافل التجار، على الرغم من وقوع الحرب بين الطرفين، ففي أثناء منازلة صلاح الدين لحصن الكرك، ومحاصرته للصليبيين فيه كانت القوافل القادمة من مصر إلى دمشق مروراً بالمناطق التي يسيطر عليها الإفرنج مستمرة، كذلك قوافل المسلمين من دمشق إلى عكا «وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها، وهي من الأمنة على غاية، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية والدنيا لمن غلب»[69].

وكانت مدن الساحل المحتل، ولا سيما عكا تقوم بدور كبير في مجال التبادل التجاري، ففي «مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق»[70] وكان لبعض التجار الموسرين

= والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من العلماء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981: 2/ 119 ـ 136.

(67) ابن جبير، **الرحلة**: ص201، 203، 204، 107، 236.

(68) **المصدر نفسه**: ص209.

(69) **المصدر نفسه**: ص234 ـ 235.

(70) **المصدر نفسه**: ص249.

في دمشق أمناء من مدن الساحل وقد أشار ابن جبير إلى اثنين من هؤلاء التجار، وهما: نصر بن قوام، وأبو الدر ياقوت مولى العطافي، اللذان كانت تجارتهما كلها في هذا الساحل، ولا ذكر فيها لسواهما، والقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، ولهما قدر كبير عند أمراء المسلمين والإفرنج[71].

ويبدو من رواية ابن جبير التنظيم الدقيق لأمور القوافل، ونزولها في أماكن محددة، فضلاً عن طريقة ومقدار الضرائب التي تفرض على التجار والناس العابرين للحدود، فكان حصن تبنين[72] موضوع تمكيس القوافل لغير التجار، إذ يؤخذ على الرأس دينار وقيراط من الدنانير الصورية[73] في حين يعشر التجار عند وصولهم إلى حدود الإفرنج في عكا، فيدفعون قيراطاً من الدينار على بضائعهم[74]، وعند وصول هؤلاء التجار إلى عكا كان لا بد من نزولهم في «الديوان»، وهو خان معد لهذا الغرض، فيه كتّاب من النصارى، يكتبون باللغة العربية ويتكلمون بها، ورئيسهم يُعرف بـ«الصاحب» وكل ما يجبى عندهم راجع إلى الضمان. وكان ضمان هذا الديوان بحال عظيم. وقد أشاد ابن جبير بحسن معاملة القائمين على هذا المكان، على الرغم من عدم نزوله فيه، واضطراره لاكتراء بيت من امرأة نصرانية على البحر لأنه لم يكن لديه سلع[75].

(71) **المصدر نفسه**: ص253.

(72) يقع هذا الحصن على الطريق الجبلي الذي يربط بين بانياس ودمشق وصور، ينظر: ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت 626هـ/ 1229م)، ومعجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977: 2/ 14 رنسيمان، تاريخ: 2/ 155.

(73) ضربت هذه الدنانير بمدينة صور في عهد الصليبيين، وكان يتعامل بها في الشام والعراق أيام الحروب الصليبية، ينظر دوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعيمي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد 1981: 4/ 414.

(74) ابن جبير، **الرحلة**: ص247.

(75) **المصدر نفسه**: ص248.

ويظهر من نص ابن جبير، تقدم الأحوال الزراعية في بلاد الشام، فهو يشير دائماً إلى وجود البساتين والضياع وأشجار الفواكه، من ذلك مثلاً وصفه لبلاد المعرة[76] والمناطق المحيطة بمدينة دمشق وغوطتها[77]، كما يقدم تفصيلات قيمة عن أراضي المسلمين المتاخمة للحدود التي يسيطر عليها الصليبيون، فيشير إلى تقاسم المسلمين والإفرنج لغلة هذه الأراضي، واختلاط مواشيهم، بحيث كان لهم حد يسمى بحد المقاسمة من دون أن يجري حيف بينهما[78].

أما الأراضي التي كانت خاضعة للاحتلال الصليبي، فكان سكانها المسلمون يؤدون نصف الغلة، وإتاوة على كل رأس مقدارها دينار وخمسة قراريط، ويؤدون على الشجر أيضاً ضريبة خفيفة. وباستثناء ذلك، يتصرفون بحرّية في جميع أموالهم وممتلكاتهم. وكان هذا الوضع، كما يبدو من رواية ابن جبير، مناسباً ومريحاً لهؤلاء السكان، على العكس من إخوانهم من أهل المناطق المجاورة الخاضعة لسيطرة بعض العمال المسلمين الجشعين، الأمر الذي أثار مشاعر هذا الرحالة، وعجبه من جور بعض الحكام المسلمين، مقارنة بمواقف أعدائهم من الإفرنج[79].

وتفيد رواية ابن جبير أيضاً في التعرف إلى بعض الأوزان والنقود المستعملة في بلاد الشام في أثناء زيارته لها. فيشير إلى الرطل في دمشق، ويقارنه بالرطل المغربي، ويرى أنه يعادل ثلاثة من أرطال المغرب[80] كما

(76) **المصدر نفسه**: ص205.

(77) **المصدر نفسه**: ص210 ـ 211، ويقارن: رحلة بنيامين، ص115، الذي يشير إلى امتداد البساتين إلى مسافة خمسة عشر ميلاً حول مدينة دمشق.

(78) ابن جبير، **الرحلة**: ص246.

(79) **المصدر نفسه**: ص247 ـ 248.

(80) **المصدر نفسه**: ص236. وتجدر ملاحظة أن الرطل الدمشقي كان يساوي 1.85 كغم، أما وزن الرطل المغربي فيساوي نحو 562.5 غم، ينظر: هنتس، فالتر، المكاييل =

أشار أيضاً إلى الدنانير الصورية، المضروبة في مدينة صور خلال عهد الصليبيين، والتي تعادل أربعة وعشرين قيراطاً[81] وهي بحسب تقدير ابن جبير تساوي ما يعادل دينارين تقريباً من الدنانير المؤمنية[82] نسبة إلى الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي (524 ـ 558هـ/ 1229 ـ 1162م).

رابعاً ـ الأحوال الثقافية:

اهتم ابن جبير كثيراً بمدارس بلاد الشام، وحاول إحصاء عددها في كل مدينة زارها، فأشار إلى وجود مدرسة واحدة في حمص[83] وثلاث مدارس في حماة[84] وخمس أو ست مدارس في حلب[85]، ونحو عشرين مدرسة في دمشق[86] وهو يركز في وصف هذه المدارس على الشكل والهندسة المعمارية لها، من دون الدخول في التفاصيل العلمية، أو التطرق إلى المناهج وطرق التدريس. لكنه يشير في بعض الأحيان إلى المذهب الذي تعرف به هذه المدارس، مثل المدرسة الحنفية التي تتصل بالجانب الغربي من المسجد الجامع في حلب[87] والمدرسة الشافعية التي

= والأوزان الإسلامية، ترجمة، كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان 1970، ص33، 37.

(81) ابن جبير، **الرحلة**: ص247، وينظر: هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية ص10.

(82) ابن جبير، **الرحلة**: ص216، ويساوي الدينار الموحدي 2.35 غرامين تقريباً، وذلك قبل أن يضاعفه أبو يعقوب المنصور، ينظر: عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس للهجرة، دار الشروق، بيروت 1983، ص300 هامش 4. وتقدير ابن جبير قريب، لأن دنانير الذهب في المشرق كانت تزن 4.33 غرامات تقريباً، ينظر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص10.

(83) ابن جبير، **الرحلة**: ص209.

(84) **المصدر نفسه**: ص207.

(85) **المصدر نفسه**: ص204.

(86) **المصدر نفسه**: ص230.

(87) **المصدر نفسه**: ص204.

تقع على يمين الخارج من باب البريد لمسجد دمشق الجامع[88].

ومن المعتقد أن معظم المدارس، التي رآها ابن جبير، قد تم إنشاؤها خلال الحركة المدرسية التي شهدها عصر نور الدين محمود، مثال ذلك مدارس دمشق، وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ومنبج، والرحبة[89] ويأتي في مقدمة هذه المدارس، مدرسة نور الدين محمود التي أعجب بها ابن جبير أيما إعجاب[90] وهي التي شرع في بنائها سنة 568هـ/ 1172م، لكن نور الدين توفي قبل إتمامها، فأتمها بعده الملك العادل شقيق الناصر صلاح الدين، فسمِّيت بالمدرسة العادلية أو النورية الكبرى[91].

وقدم ابن جبير أيضاً وصفاً جيداً لبعض حلقات التدريس في جامع دمشق وأشار إلى الزوايا والمقصورات المخصصة لبعض المذاهب، من أمثال زاوية المالكية[92] والمقصورة الخاصة بالحنفية[93] وأشار إلى اتخاذ الطلبة من هذه الزوايا العديدة، فضلاً عن التدريس والصلاة، أماكن للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس، وهي في جملة مرافق الطلبة. وبعد الفراغ من قراءة القرآن صباحاً يستند كل معلم إلى سارية من سواري المسجد، ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن. وللمعلمين والطلاب أجور معلومة تصرف من أوقاف خاصة بها، وقد أعجب ابن جبير بهذا النظام

(88) **المصدر نفسه**: ص219.

(89) ابن خلكان، وفيات: 5/ 185.

(90) ابن جبير، **الرحلة**: ص219 ـ 231.

(91) ينظر: أبو شامة، الروضتين: 1/ 544 ـ 545، العماد الأصفهاني، محمد بن حامد (ت 597هـ/ 1200م)، سنا البقر الشامي اختصره قوام الدين الفتح بن علي البغدادي (ت 642هـ/ 1244م) تحقيق رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971، القسم الأول، ص134 ـ 135، ابن خلكان، وفيات: 5/ 187.

(92) ابن جبير، **الرحلة**: ص220.

(93) **المصدر نفسه**: ص214.

وعده من المفاخر الإسلامية[94] كما امتدح طريقة التلقين وانفصالها عن التكتيب «وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة» وكذلك تعليم الخط في الأشعار وغيرها، فيتأتى للطلاب حسن الخط «لأن المعلم له لا يشتغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم والصبي في التعلم...»[95] ويرجع إعجاب ابن جبير بطريقة أهل الشام في تعليم الصبيان، للقرآن الكريم، فضلاً عن تعليمهم الشعر وتجويد الخط، إلى تشابه هذه الطريقة مع ما كان يجري في الأندلس من اعتبار القرآن الكريم أصلاً في التعليم، مع العناية برواية الشعر، وإجادة الخط والكتابة[96].

خامساً ـ النواحي المعمارية:

شملت اهتمامات ابن جبير بالنسبة إلى هذه المعطيات، جملة المواقع التي قدم لها وصفاً تفصيلياً دقيقاً، فتحدث عن أسوار بعض المدن، مثل مدينة حمص، التي رصت بحجارة صم سوداء[97]، وقلعة مدينة حلب وأبراجها[98] ووجه اهتماماً خاصاً إلى الجوامع، ولا سيما الكبيرة منها، فوصف جامع حلب، ومنبره، ومحرابه، بدقة متناهية[99] كما قدم صورة حية لجامع دمشق واصفاً بالتفصيل مساحته وتذريعه، وعدد أبوابه، وقبابه، ومحرابه وصحنه، ومقصوراته[100] الأمر الذي يدل على

(94) **المصدر نفسه**: ص220.

(95) **المصدر نفسه**: ص220.

(96) ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/ 1405م)، مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د. ت) ص538، وينظر أيضاً محمد عبد الحميد عيسى تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربي، القاهرة، 1982، ص235 ـ 237.

(97) ابن جبير، **الرحلة**: ص208.

(98) **المصدر نفسه**: ص202 و203.

(99) **المصدر نفسه**: ص204.

(100) **المصدر نفسه**: ص212 ـ 221.

دقة ابن جبير وملاحظته القوية، واطلاعه على مختلف فنون العمارة في ذلك العصر.

ولفت انتباه ابن جبير وجود آلة لقياس الزمن في غرفة تقع إلى يمين الخارج من باب جيرون، أحد أبواب الجامع في دمشق، التي من خلالها يتم تحديد ساعات النهار والليل بطريقة فنية، أو بحسب تعبير ابن جبير «بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً»[101] وتسمى هذه الآلة «المنجانة»[102] وقد تم تصنيعها أيام نور الدين محمود من قبل رضوان بن محمد بن علي، المعروف بفخر الدين ابن الساعاتي[103] وتذكرنا هذه الآلة باختراع مشابه، توصل إليه عباس بن فرناس التاكرني، أحد علماء الأندلس (ت 247هـ/ 887م) لقياس الزمن، وتعرف بالمنقانة[104] وهو لفظ قريب مما أورده ابن جبير.

ولم يقتصر وصف ابن جبير على جامع دمشق فحسب، بل شمل اهتمامه أماكن العبادة الأخرى لغير المسلمين، مثل «كنيسة مريم» الحفيلة البناء، والتي «تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً تبهت الأفكار وتستوقف الأبصار...»[105]. كما قدم وصفاً تفصيلياً لأبواب دمشق الثمانية، محدداً مواقعها بدقة، وهذه الأبواب هي: الباب الشرقي، وباب توما، وباب

(101) **المصدر نفسه**: ص218.

(102) **المصدر نفسه**: ص219، وينظر عن هذه الساعات أيضاً: رحلة بنيامين، ص216، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، مج2. قسم1، ص47.

(103) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص661.

(104) ينظر: ابن حيان، أبو مروان بن حيان بن خلف (ت 469هـ/ 1079م)، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت 1973، 282 ـ 283.

(105) ابن جبير، **الرحلة**: ص230.

سلامة، وباب الفراديس، وباب الفرج، وباب النصر، وباب الجابية، وباب الصغير[106].

سادساً ـ أوضاع المغاربة:

يبدو من خلال نص ابن جبير الخاص ببلاد الشام مدى اهتمامه بتقصي أحوال بني جلدته المغاربة، فقدم لنا صورة واضحة جداً لهذه الفئة المهاجرة التي استقرت في هذه البلاد. وهو يصور اهتمام أهل دمشق بخاصة وتقديمهم التسهيلات اللازمة لهم. ويأتي على رأس المهتمين بهم نور الدين محمود، الذي عيَّن لملتزمي زاوية المالكية منهم بالمسجد الجامع المبارك أوقافاً كثيرة كانت تدر نحو خمس مئة دينار في العام[107] كما اهتم بفداء أسراهم، حتى يقال إنه نذر في مرض أصابه، بتفريق اثني عشر ألف دينار في هذا السبيل، ولم يقتصر فداء أسرى المغاربة على نور الدين محمود فحسب، بل ساهم فيه أيضاً أهل اليسار، والخواتين من النساء والتجار[108] وقام المغاربة بدورهم في رد هذا الجميل، فتعاون بعضهم مع نور الدين في حروبه مع الصليبيين، الأمر الذي أغضب هؤلاء على المغاربة، وجعلهم يتشددون في أخذ المكوس عليهم عندما يعبرون إلى المناطق المحتلة من قبل الإفرنج[109].

وكان المغاربة يمارسون في الغالب أنشطة دينية وثقافية فمنهم من يقوم بالتدريس عند سارية من سواري المسجد بدمشق[110] أو أمام أحد المساجد الصغيرة، أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع، أو حضور

(106) المصدر نفسه: ص229.
(107) المصدر نفسه: ص232.
(108) المصدر نفسه: ص253 ـ 254.
(109) المصدر نفسه: ص247.
(110) المصدر نفسه: ص220.

قراءه «سبع» من القرآن الكريم، أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة[111] وكان هؤلاء يتعاونون فيما بينهم لخدمة بعضهم بعضاً، وإيجاد الأعمال المناسبة للقادمين الجدد. ويشير ابن جبير إلى دور أحد المتنفذين من بقايا المرابطين المسوفين، الذي كان أميناً للربوة المباركة، ويعرف بأبي الربيع سليمان بن إبراهيم مالك، الذي كان يعمل على إيواء المغاربة والتحاقهم بأعمال منها الحراسة في بستان، أو الخدمة في حمّام، أو إدارة العمل في طاحونة، أو كفالة صبيان[112]، ويبالغ ابن جبير في مكانة هؤلاء المغاربة، ومدى ثقة الناس بهم في أشغال هذه الوظائف فيقول: «وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء، لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صيت في الأمانة، وطار لهم فيها ذكر، وأهلها لا يأتمنون البلديين..»[113].

ومن الطبيعي أن ينساق ابن جبير في رفع شأن مواطنيه لكنهم لا يمكن أن يكونوا سواء في هذا السلوك المثالي، ولا بد من وجود شواذ عن هذه القاعدة، فيشير العماد الأصفهاني[114] على سبيل المثال إلى إحدى الحالات التي تسجل خداع أحد المغاربة لاثنين من الدمشقيين. كما تشير رواية ابن الأثير إلى تذمره من وصفة أحد الأطباء المغاربة في دمشق، وعندما راجع طبيب في مارستان دمشق وشكى له ذلك، أجابه الطبيب «يا مولاي مغربي وقد أقام بالشام لا يكون إلا هكذا....»[115] وهذا يناقض مقولة ابن جبير، ويجعلنا نتحفظ من روايته، التي ربما كان فيها بعض التحيز للمغاربة.

(111) المصدر نفسه: ص215، 216، 225.
(112) المصدر نفسه: ص225.
(113) المصدر نفسه: ص225 ـ 226.
(114) سنا البرق الشامي، ص119 ـ 120.
(115) ابن الأثير، الباهر، ص171.

ويبدو أن حماس ابن جبير الشديد للمغاربة وإقامتهم في بلاد الشام، قد دفعه إلى دعوة شباب المغرب والأندلس للرحيل إلى هذه البلاد، والتغرب في سبيل العلم، من دون التفكير في أمر المعيشة: «فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخلها أيها المجتهد بسلام، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد وتقرع سن الندم على زمن التضييع، والله يوفق ويرشد، لا إله سواه، قد نصحت أن ألفيت سامعاً، وناديت أن أسمعت مجيباً، ومن يهد الله فهو المهتد»[116].

ولا يمكن أن تأتي مثل هذه الدعوة، إلا نتيجة اقتناع تام من قبل ابن جبير بملائمة بلاد الشام لإخوانه من المغاربة والأندلسيين. ومهما كان رأينا في حماس ابن جبير إزاء مواطنيه، فلا يمكن للباحث أن ينكر الأثر الإيجابي لنصه الخاص ببلاد الشام، الذي يعد بحق من أفضل المصادر الخاصة بهذه البلاد، ولا سيما أنه من النصوص التاريخية الموثوق بها، القائمة على رواية شاهد عيان معروف بالدقة والتحري.

(116) ابن جبير، **الرحلة**: ص232 ـ 233.

بغداد من خلال رحلة ابن جبير

نشر هذا البحث ضمن محاضر ندوة بغداد في التاريخ
الندوة العلمية الأولى لقسم التاريخ بكلية الآداب في جامعة بغداد
5 ـ 7 أيار 1990
بغداد ـ دار الحكمة 1991

تعد كتب الرحلات من المصادر الأولية القيّمة لدراسة تاريخ البلدان، لأنها تمثل رواية شاهد عيان، ولا سيما إذا كان صاحب الرحلة عالماً متبحراً دقيقاً في وصفه، نزيهاً فيما يكتبه من أخبار ومعلومات عن الأماكن التي يزورها ويمر بها. ويمكن أن نشير هنا إلى أبي الحسن محمد بن جبير الكناني، الذي ولد في بلنسية أو شاطبة بالأندلس عام 540هـ/ 1145م، وتوفي في الاسكندرية سنة 614هـ/ 1217م[1] حيث قام

(1) ينظر عنه: محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**. تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، 1965)، السفر الخامس، القسم الثاني ص595 ـ 621، لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1974): 2/ 230 ـ 239، أحمد بن =

برحلة مشهورة إلى المشرق، كان هدفها الرئيسي هو أداء فريضة الحج، ثم تطور إلى رغبة عارمة بطلب العلم، والسماع على الشيوخ الذين يمر بهم في مختلف البلدان. كان ابن جبير رجلاً دقيق الملاحظة، صائب النظر، يتطلع إلى المعرفة، ويهتم بتسجيل كل ما يراه بأسلوب سهل صادق يبعث على الثقة وكانت نتيجة رحلته هذه التي قام بها من الأندلس إلى المشرق سنة 578هـ/ 1183م أن خلّف لنا وثيقة من أجمل وأصدق ما خلّفه الرحالة العرب في تاريخنا الفكري[2].

ورحلة ابن جبير هذه هي الأولى ضمن ثلاث رحلات قام بها إلى المشرق لكنه لم يدوّن سواها، وقد ترك لنا وصفها على هيئة يوميات في كتاب وضعه بعد رجوعه إلى الأندلس في نحو عام 581هـ/ 1185م. وتعتمد شهرة ابن جبير الأدبية على هذه الرحلة بالذات، التي أفاد منها الجغرافيون والمؤرخون الذين أعقبوه، من أمثال ابن بطوطة، وابن الخطيب والمقريزي والمقري[3].

كانت رحلة العلماء إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي بجناحيه الشرقي والغربي، من المظاهر الحضارية الواضحة في مختلف العصور. ولم تقف الخلافات السياسية في أي وقت من الأوقات حائلاً أمام مثل هذه الرحلات. وعلى الرغم من قيام رحالة من المشرق بالتوجه إلى المغرب الإسلامي والأندلس، مثل الجغرافي ابن حوقل النصيبي، الذي قام بجولة كبيرة في أرجاء العالم العربي الإسلامي في القرن الرابع

= محمد المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1968): 2/ 381 فما بعدها.

(2) حسين مؤنس، **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس** (ط2، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1986) ص429.

(3) ينظر: أغناطيوس يوليا نوفتس كراتشكوفسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة، صلاح الدين عثمان هاشم (ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987) ص334.

للهجرة/ العاشر للميلاد، لكن كفة العلاقات بين الأندلس وبلاد المشرق كانت في صالح بلاد المشرق. فقد كانت الرحلات إلى المشرق أكثر شيوعاً، ولا سيما أن هدف معظم هذه الرحلات كان قضاء فريضة الحج أولاً، ثم تحصيل العلم والتمكن من الجوانب الثقافية التي كان ينظر بها المشرق الإسلامي ثانياً. وكان من أهم نتائج مثل هذه الرحلات هي كثرة اتصال الأندلسيين بالمشرق، وبلورة الحركة العلمية فيها وازدهارها. وكذلك تقوية العلاقات بين رجال العلم في كل من المشرق والأندلس[4].

وفي الوقت نفسه استفاد المشرق من ملاحظات بعض هؤلاء الذين قاموا بالرحلات إليه، ولا سيما أولئك الذين دوّنت رحلاتهم، مثل ابن جبير وابن بطوطة والعبدري وغيرهم، وأصبحت ملاحظاتهم ومشاهداتهم تاريخاً حياً لكثير من الأماكن التي حظيت بزياراتهم، الأمر الذي يساعد الباحث في تاريخ هذه الأماكن على أن يستفيد من هذه الملاحظات في دراسته للأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

كان خط رحلات أهل المغرب يمر في أغلب الأحوال بشمال أفريقيا ومصر وبلاد الشام، ثم الاتجاه إلى العراق وبلاد الحجاز. وهناك من سلك طريق البحر بالركوب إلى مصر، ومنها بعد ذلك إلى بلاد الشام عبر سيناء أو إلى بلاد الحجاز عبر البحر الأحمر. وكانت الرحلات تتجه دائماً إلى عواصم الأمصار الإسلامية الشهيرة، مثل القيروان في تونس، والقاهرة والاسكندرية في مصر، وبغداد، والبصرة والكوفة في العراق، ومكة والمدينة في الحجاز وصنعاء في اليمن[5].

(4) ينظر: عبد الواحد ذنون طه، أهمية الرحلات العلمية بين المشرق والأندلس، فصل من كتاب (دراسات أندلسية)، (الموصل: منشورات مكتبة بسام، 1986) ص206.

(5) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس (القاهرة: دار الفكر العربي، 1982) ص410، وينظر: جعفر حسن صادق، الرحلات العلمية من الأندلس إلى =

أما بالنسبة إلى ابن جبير، فقد سلك في رحلته إلى المشرق طريق البحر من جزيرة طريف في الأندلس إلى سبتة، ومنها إلى الاسكندرية، حيث ركب النيل إلى القاهرة. ثم غادرها إلى صعيد مصر، فوصل إلى مرفأ عيذاب، وهو المرفأ المعهود للحجاج على البحر الأحمر. ونزل جدة، وأخذ قافلة إلى مكة، حيث أقام نحو نصف عام، ثم مر بالمدينة في طريقه إلى الكوفة. وزار بغداد وسامراء فالموصل وحلب، ومنها إلى دمشق، التي أمضى فيها نحو أربعة أشهر، ثم إلى ميناء عكا، حيث أبحر إلى صقلية، ومنها إلى الأندلس، فوصل غرناطة بعد غيبة دامت نحو أكثر من عامين.

كان وصول ابن جبير إلى بغداد مساء يوم الأربعاء الثالث من صفر سنة ثمانين وخمسمائة هجرية/ 1184م. ولم يقم فيها إلا ثلاثة عشر يوماً. لكنه كما يقول حسين مؤنس[6]: «رأى في هذه الأيام القليلة ما لم ير غيره في شهور..» لأنه كان شديد الملاحظة لا يكاد يسمع عن شيء غريب إلا أسرع لرؤيته، ولا يتصل به طرف من خبر حتى يبادر إلى التأكد منه واستقصائه لذلك فقد استطاع أن يدوّن لنا عن هذه الأيام المعدودة معلومات غنية جداً عن مدينة بغداد، تناولت مختلف جوانب الحياة فيها. فأسهب في وصف خطط المدينة ومحلاتها ومساجدها، وحمّاماتها، كما قدم معلومات قيِّمة عن الخدمات الطبية التي تقوم فيها. أما مجالسها العلمية، والحياة الثقافية فيها، فقد تناولت حيِّزاً لا بأس به من وصف ابن جبير. كذلك لم ينس هذا الرحالة الأندلسي، أن يشير إلى الأحوال السياسية فيها. كما وصف الخليفة أبا العباس أحمد الناصر لدين الله بن

= المشرق في عصر الإمارة، القسم الثاني رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة الموصل، كلية الآداب، نيسان 1985).

(6) **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس**، ص432 ـ 433.

المستضيء بنور الله (575 ـ 622هـ/ 1179 ـ 1225م) الذي تمت الرحلة في عهده. وسنتحدث فيما يأتي عن أهم الملامح الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، والثقافية لمدينة بغداد من خلال مشاهدات ابن جبير.

خطط المدينة وأحوالها العمرانية:

على الرغم من أن بغداد كانت لا تزال حاضرة الخلافة العباسية في الفترة التي زارها فيها ابن جبير، لكنها تراءت له في حالة لا تتناسب والصورة الزاهية التي ربما كان قد رسمها في ذهنه عنها، فهو يقول: «هذه المدينة العتيقة قد ذهب أكثر رسمها، ولم يبق منها إلا شهيمر اسمها... وهي كالطلل الدارس والأثر الطامس أو تمثال الخيال الشاخص»[7] ولم يستوقف بصره فيها حسن أو جمال باستثناء نهر دجلة الخالد الذي يفصل بين جانبيها الشرقي والغربي، الذي يبدو «كالمرأة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبتين...»[8].

والواضح أن هذه مبالغة من ابن جبير، لأن إشارته لعدل الخليفة الناصر لدين الله، وسعادة الأمة في عهده لا يتناسبان وهذا الوصف، يضاف إلى ذلك أنه يذكر الجانب الغربي، ويشير إلى أن الخراب قد استولى عليه، ومع ذلك فهو «يحتوي على سبع عشرة محلة، كل محلة منها مدينة مستقلة، وفي كل واحدة منها الحمّامات والثلاثة والثمانية، منها بجوامع يصلى فيها الجمعة...»[9] فإذا كان هذا جانب الخراب من بغداد، فما هي الحال بجانب العمارة الشرقي؟[10] ولعل السبب في

(7) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، **رحلة ابن جبير** (بيروت: منشورات دار ومكتبة الهلال، 1981)، ص173.

(8) **المصدر نفسه**: ص173.

(9) **المصدر نفسه**: ص179.

(10) يقارن: مصطفى جواد وأحمد سوسة، دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد =

الخراب الذي رآه ابن جبير في الجانب الغربي، ولا سيما الكرخ، ناتج من كثرة الفتن والاضطرابات التي تتابعت على المدينة، وهو ما سبب هجرة الكثير من أهل هذا الجانب إلى غير عودة، بالإضافة إلى تبدل مراكز النشاط الاقتصادي والاجتماعي والفكري في بغداد، وانتقال مركز الإعمار إلى أطراف نهر عيسى غربي دجلة[(11)].

ويتناول ابن جبير وصف الجانب الغربي مشيراً إلى أهم محلاته وكبرياتها، ولا سيما محلة القُرية، وهي التي نزل فيها في ربض يدعى المربعة الواقعة على ضفة دجلة. والظاهر، كما يرى مصطفى جواد وأحمد سوسة[(12)] أنها مربعة القطانين التي كانت في الموضع الذي فيه محطة تراموای الكاظمية قرب مدرسة الكرخ الثانوية الحالية، ولهذا فهي ليست المربعة الواقعة في شارع الرشيد كما أشار إلى ذلك أحد الباحثين المحدثين[(13)]. ومن المحلات الأخرى الكبيرة في الجانب الغربي: «الكرخ وهي مدينة مسورة، ثم محلة باب البصرة، وهي أيضاً مدينة، ولها جامع المنصور رحمه الله، وهو جامع كبير عتيق البنيان... ثم الشارع، وهي أيضاً مدينة، فهذه الأربع أكبر المحلات. وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان، وهي مدينة صغيرة، فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة»[(14)].

= قديماً وحديثاً (بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، 958) ص174.

(11) ينظر: صالح أحمد العلي، بغداد مدينة السلام/الجانب الغربي (بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1985): 2/ 67.

(12) **دليل خارطة بغداد المفصل**: ص167 ـ 168.

(13) ينظر: علي محسن عيسى مال الله، «العراق في رحلة ابن جبير خاصة ورحلات العرب الأخرى» مجلة المورد، المجلد 18، العدد 4، 1989 ص59 ـ 71 الذي حدد القرية والمربعة على أنهما تقعان في شارع الرشيد (ص70 ـ 71) هامش (53 و54) علماً أن ابن جبير يقصد الجانب الغربي، وليس الجانب الشرقي.

(14) ابن جبير، **الرحلة**: ص180.

ويقصد ابن جبير هنا المارستان العضدي، الذي ينسب إلى عضد الدولة البويهي[(15)].

ويشير ابن جبير إلى محلات أخرى في الجانب الغربي، منها الوسيطة والعتابية، التي تصنع بها الثياب العتابية من الحرير والقطن المختلفان الألوان، ومنها الحربية، وهي أعلى المحلات، وليس وراءها إلا القرى الخارجة عن بغداد[(16)] ومن أهم المواقع التي أشار إليها ابن جبير في هذه المحلات قبر معروف الكرخي رضي الله عنه، وقبر الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. كما يذكر أيضاً أنه شاهد «قبر عون ومعين من أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه» بالإضافة إلى مشاهد أخرى كثيرة لم تسعفه الذاكرة بتسميتها لبعض الأولياء والصالحين من السلف الكريم[(17)].

أما الجانب الشرقي الذي أسماه ابن جبير بالشرقية، فذكر أن أهم ما فيه هو دار الخلافة، وما تحتويه من مناظر مشرفة وقصور رائعة وبساتين أنيقة، تؤلف في مجموعها نحو الربع من الشرقية أو أكثر[(18)] وقد وصف السور الكبير المحيط بها من أعلى دجلة إلى الجنوب الذي ينعطف عليها كنصف دائرة مستطيلة. وفي هذا السور أربعة أبواب هي:

باب السلطان الذي يقع أعلى النهر (وهو باب المعظم الحالي).

وباب الظفرية (الباب الوسطاني).

ثم يليه باب الحلبة (باب الطلسم).

(15) ينظر: العلي **المرجع السابق**: ص1/ 347 ـ 350.

(16) ابن جبير، **المصدر السابق**: ص180.

(17) **المصدر نفسه**: ص181.

(18) **المصدر نفسه**: ص182.

ثم باب البصلية (باب كلواذا)[19].

وأشار هذا الرحالة الأندلسي إلى الأسواق الكثيرة العظيمة في الشرقية، وإلى جوامعها الثلاثة الكبيرة وهي جامع الخليفة الذي يتصل بداره، وهو جامع كبير وفيه مرافق كثيرة واسعة وجامع السلطان، وهو خارج البلد، وجامع الرصافة، وهو على الجانب الشرقي، وبينه وبين جامع السلطان نحو ميل، كما ذكر أيضاً تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله. أما بالنسبة إلى عدد المساجد التي لا تقام فيها صلاة الجمعة في كل من الجانب الغربي والشرقي، فهو كبير جداً ولم يتمكن ابن جبير من تقديره فضلاً عن إحصائه[20].

ولم يغفل ابن جبير عن بقية المنشآت العمرانية في المدينة، ولا سيما الحمّامات والمدارس. فقد استقصى من أحد أشياخ البلد عن عدد الحمّامات فيها، فأخبره أنها تبلغ نحو الألفي حمّام بين الجانب الشرقي والغربي. وأكثر هذه الحمّامات مطلية بالقار ومسطحة به، بحيث يبدو للناظر وكأنه رخام أسود صقيل. وذكر أن هذا القار يجلب من عين بين البصرة والكوفة. كما أشار إلى مدارس بغداد التي يبلغ عددها نحو ثلاثين مدرسة، وتقع جميعاً في الجانب الشرقي[21].

إدارة الدولة والأحوال السياسية:

تمت زيارة ابن جبير لمدينة بغداد في أثناء خلافة الناصر لدين الله، الذي استمر في الحكم لمدة سبع وأربعين سنة تقريباً ويعود إليه الفضل في إنهاء النفوذ السلجوقي في العراق سنة (590هـ/ 1193م) كما أعاد نفوذ

(19) **المصدر نفسه**: ص184، ويقارن: جواد وسوسة، **المرجع السابق**: ص151، 123، 31.

(20) ابن جبير، **المصدر السابق**: ص182 ـ 183.

(21) **المصدر نفسه**: ص183.

الخلافة السياسي والإداري على الأقاليم التي اغتصبها السلاجقة في فترة الضعف والانحلال[22] وعلى الرغم من اتهام بعض المؤرخين للخليفة الناصر لدين الله بسوء السيرة والظلم، وخراب البلاد في أيامه[23] فإن ابن جبير يطلعنا على معلومات تنفي هذه التهمة بحيث يشير إلى حبه للظهور أمام عامة الناس، وإيثاره التحبب إليهم، كما يصفه أيضاً أنه كان «ميمون النقيبة عندهم قد استعدوا بأيامه رخاء وعدلاً وطيب عيش فالكبير والصغير منهم داع له»[24] ولا شك في أن هذا الوصف المبني على المشاهد الحسية يعد دليلاً قوياً مؤيداً لسياسة الناصر الحكيمة، التي أيدها بقية المؤرخين المطلعين على أحوال الدولة العباسية، من أمثال محمد بن علي بن طباطبا، المعروف بابن الطقطقي (ت 709هـ/ 1309) وغيره[25].

وقد أتيح لابن جبير رؤية الخليفة الناصر مرتين في بغداد كانت الأولى عشية يوم السبت السادس لصفر سنة ثمانين وخمسمائة، في أثناء انحدار الخليفة في دجلة من منظرته في الجانب الغربي صاعداً في الزورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرقي على الشط. والقصر المذكور هنا هو من المرجح «القصر العباسي» الذي يقع على ضفة دجلة اليسرى، الذي يعرف

(22) فاروق عمر فوزي، **الخليفة الداهية الناصر لدين الله العباسي** (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1989) ص10.

(23) أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم، المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، (بيروت: دار صادر، 1979): 12/ 440.

(24) ابن جبير، **المصدر السابق**: ص182.

(25) ينظر: **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (بيروت: دار صادر، 1966)، ص322، ويقارن: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد (ط3، القاهرة: مطبعة المدني، 1964) ص448 ـ 449، حسين أمين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي (بغداد: 1965) ص233 فاروق عمر فوزي، تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلامية 1 ـ 656هـ/ 622 ـ 1258م (بغداد: مكتبة النهضة، 1988) ص238 ـ 239.

أيضاً باسم «دار المسناة»[26] ويبدو أن ابن جبير كان في موقع قريب بحيث استطاع أن يصف الخليفة وصفاً تفصيلياً دقيقاً بقوله: «وهو في فتاء من سنة أشقر اللحية صغيرها كما اجتمع بها وجهه، حسن الشكل، جميل المنظر، أبيض اللون، معتدل القامة، رائق الرداء، سنه نحو الخمس وعشرين سنة، لابساً ثوباً مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيّمة . . .»[27] كما شاهده أيضاً في اليوم التالي، وهو يتطلع من منظرته في الجانب الغربي، بحيث كان ابن جبير يسكن بالقرب منها.

ويؤيد ابن جبير ما أشار إليه المؤرخون من استحداث منصب أو تقليد جديد في السلك الإداري الخاص بالوزارة، وهو منصب نائب الوزارة فيشير إلى عدم وجود وزير للناصر «إنما له خديم يعرف بنائب الوزارة يحضر الديوان المحتوي على أموال الخلافة وبين يديه الكتب، فينفذ الأمور . . .»[28] ويبدو أن هذا المنصب قد استحدث لاختبار الرجال المرشحين للوزارة، فمن صلح حاله رقي إلى منصب الوزارة، ومن عجز نحي عنها. وقد استكثر الناصر بخاصة من نواب الوزراء، بحيث استخدم منهم تسعة[29] وأشار ابن جبير أيضاً إلى وجود «قيِّم على جميع الديار العباسية، وأمين على سائر الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه وعلى جميع من تضمنه الحرمة الخلافية، يعرف بالصاحب مجد الدين أستاذ الدار . . .»[30] وكان يدعى لهذا الرجل على المنابر بعد الخليفة، وقلما

(26) جواد وسوسة، **المرجع السابق**: ص186 ـ 187.
(27) ابن جبير، **المصدر السابق**: ص182.
(28) **المصدر نفسه**: ص181.
(29) محمد صالح القزاز، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير 512 ـ 656هـ (النجف: مطبعة القضاء، 1971)، ص111.
(30) ابن جبير، **المصدر السابق**: ص181.

يظهر للعامة بسبب انشغاله بأمور الدولة ومنها، والتكفل بتفقد شؤونها ليلاً ونهاراً[31].

ولم يغفل ابن جبير عن ملاحظة القوة العسكرية التي عمل الناصر على إنشائها وتكوينها لمساندة الخلافة، بحيث أصبحت قوة يحسب حسابها ويعتد بها في الحفاظ على الملك وهيبة السلطان، فيقول عنها: «ورونق هذا الملك إنما هو على الفتيان والأحابيش المجابيب، منهم فتى اسمه خالص وهو قائد العسكرية كلها، أبصرناه خارجاً في أحد الأيام وبين يديه وخلفه أمراء الأجناد . . . وحوله نحو خمسين سيفاً مسلولة في أيدي رجال قد احتفظوا به . . .»[32].

ويبدو أنه كان لقائد هذا الجيش سلطة قوية ونفوذ كبير تعجب منه ابن جبير، وأشار إلى امتلاكه للقصور والمناظر على دجلة، ومكان هذا الجيش بمثابة حرس للخليفة وجيش نظامي في آن. لكن عدده لم يكن كبيراً، ولهذا لم يستطع أن يقوم بدور حاسم في الأحداث السياسية التي وقعت في البلاد[33].

بعض الملامح الاقتصادية والاجتماعية:

أشار ابن جبير في أثناء وصفه للطريق إلى بغداد قادماً من الحلة إلى وجود الكثير من القرى العامرة المتصلة والبساتين التي تسقى من ماء الفرات، بالإضافة إلى الكثير من القناطر «فلا تكاد تمشي ميلاً إلا وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات، فتلك الطريق أكثر الطرق سواقي وقناطير، وعلى أكثرها خيام فيها رجال محترسون للطريق. . .»[34] ولا

(31) **المصدر نفسه**: ص182.
(32) المصدر والمكان نفسيهما.
(33) القزاز، **المرجع السابق**: ص144.
(34) ابن جبير، **المصدر السابق**: ص171.

شك في أن توفير سبل الحماية والحراسة للطرق والمسافرين، شجع على انتعاش الحياة الاقتصادية، ولا سيما التجارة وتسويق المنتجات الزراعية التي تنتج في المناطق المحيطة ببغداد، فكثرت الخيرات والزروع ورخصت الأسعار، وسعد الناس بأيام الناصر لدين الله «رخاء وعدلاً وطيب عيش»[35].

أما بالنسبة إلى ملاحظات ابن جبير على سكان بغداد وأهاليها، فيغلب عليها طابع التحامل، ولكنه مع ذلك لم ينس أن يشيد بـ«الحسن الحريمي» الذي اشتهرت به نساء بغداد. ويبدو أن تعرض البلاد للعديد من الغزوات وتسلط الأقوام الأجنبية، كالبويهيين والسلاجقة، قد جلب الكثير من العناصر الغريبة التي اختلطت بأهل بغداد، وأثرت سلباً على العلاقات الاجتماعية، والتعامل التجاري، فكثر فيها المطففون، كما تميزت علاقات بعض سكانها بالأنفة والكبرياء على سواهم من الغرباء. وهذا أمر طبيعي في مجتمع متعدد الأجناس، وفي مدينة كبيرة يدخلها الألوف من الناس في كل يوم. والواقع أن الرحالة من أمثال ابن جبير وغيره كانوا يدخلون مثل هذه المدن الكبيرة وآمالهم واسعة في أن يجدوا فيها أكبر قدر من الاحترام والإكرام، وتوسعة العيش وحسن المعاملة. لكن صخب الحياة وكثرة الوافدين عليها في تلك العصور قد قلل الشعور بالغريب والاحتفاء به، وذلك على العكس من المدن الصغيرة التي تعامل ضيوفها الغرباء معاملة خاصة لقلّتهم. ومع هذا فقد استثنى ابن جبير علماء المدينة ومحدثيها من تحامله، وأشار إلى استمرار مثابرتهم على حض الناس على الإحسان والبر والتقوى. كما أشار إلى حضور الكثير من الناس لمثل هذه المجالس الدينية، وتأثرهم بها، الأمر الذي يؤكد وجود نسبة كبيرة ممن يرتادون مثل هذه الأماكن، ولا ينطبق عليهم وصف ابن

(35) **المصدر نفسه**: ص182.

جبير العام الذي أطلقه على أهل بغداد.

ومن جملة ما ذكره ابن جبير، كثرة الأسواق، واحتواؤها على عدد لا يحصى من الخلق. كما أورد ملاحظة أخرى تشير إلى ازدحام المدينة، وحركة الناس ليلاً ونهاراً، ولا سيما العبور إلى جانبي دجلة بواسطة الزوارق، نساءً ورجالاً هذا فضلاً عن وجود جسرين أحدهما ما يقرب من دور الخليفة، والآخر إلى الشمال منه. وقد أشار إلى انقطاع الجسر الأول بسبب انجرافه بمياه نهر دجلة ما اضطر الناس إلى التركيز على العبور بالزوارق[36].

وقد تحدث ابن جبير أيضاً عن بعض الخدمات الطبية التي تقدم في مدينة بغداد، ولا سيما في المارستان المعضدي[37] الذي يقع على دجلة، فأشار إلى تفقده من قبل الأطباء يومي الاثنين والخميس بحيث يطالعون أحوال المرضى الراقدين فيه، ويرتبون لهم ما يحتاجون إليه يساعدهم في ذلك «القومة» الذين يتولون طبخ الأدوية وتحضيرها وإعداد الأطعمة للمرضى. واختتم ملاحظاته عن هذا المستشفى بقوله: «وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية والماء يدخل إليه من دجلة»[38].

الحالة الثقافية: المدارس ومجالس الوعظ

ذكر ابن جبير وجود نحو ثلاثين مدرسة في بغداد، تقع كلها في

(36) **المصدر نفسه**: ص179 ـ 180، ويقارن: جواد وسوسة **المرجع السابق**: ص192، حيث يشير المؤلفان إلى أن الجسر المذكور هو جسر سوق الثلاثاء الذي كان موجوداً في عهد الناصر لدين الله العباسي.

(37) ينظر: عبد الحسين مهدي الرحيم، الخدمات العامة في بغداد 400 ـ 656هـ/ 1009 ـ 1258م (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1987) ص296 ـ 302.

(38) ابن جبير، **المصدر السابق**: ص180.

الجانب الشرقي. وعلى الرغم من عظمة كل هذه المدارس إلا أن المدرسة النظامية كانت تعد من أشهرها، وهي التي أنشأها الوزير الحسن بن علي بن إسحاق المعروف بنظام الملك[39] وافتتحت سنة 459هـ/ 1066م. وكانت تقع على شاطىء دجلة فوق دار الخلافة العباسية، بينها وبين المدرسة المستنصرية. يقابلها من جهة الجانب الغربي القرية التي نزل فيها ابن جبير[40] وأشار رحالتنا الأندلسي إلى الأوقاف العظيمة والعقارات التي حبست لمصلحة الفقهاء المدرسين بها، والصرف على الطلبة الذين يتلقون العلم فيها[41].

وقد أسهب ابن جبير في ذكر مجالس العلم والوعظ في مدينة بغداد، بحيث حضر بنفسه عدة مجالس أولها مجلس الشيخ الإمام أبي الخير أحمد بن إسماعيل المعروف برضي الدين القزويني، رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية (ت سنة 589 أو 590هـ/ 1193 أو 1194م)[42] وحضر في جلسه بالمدرسة النظامية بعد صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس من صفر سنة 580هـ. وكان أبو الخير القزويني يعقد مجلس الوعظ للعامة فهي ثلاثة أيام من الأسبوع، منها يوم الجمعة[43] وأشار ابن جبير إلى كيفية صعوده للمنبر، وقراءة القراء أمامه على الكراسي، وتفننهم

---

(39) **المصدر نفسه**: ص183.

(40) ينظر: ناجي معروف، علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي (بغداد مطبعة الإرشاد، 1973) ص19.

(41) ابن جبير، **المصدر السابق**: ص183.

(42) تنظر ترجمته عند: تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن عبد الكافي السبكي طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق، عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناجي (القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1968): 6/ 7 ـ 13، جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي، طبقات الشافعية، تحقيق عبد الله الجبوري (بغداد: مطبعة الإرشاد، 1971): 2/ 322 ـ 223 وينظر أيضاً: معروف، **المرجع السابق**: ص23.

(43) الأسنوي، **المرجع السابق**: 2/ 322.

في القراءة وقد أعقب ذلك خطبة الشيخ المذكور، وإجابته عن كل ما قدم إليه من أسئلة إلى المساء «فكان مجلسه مجلس علم ووعظ، وقوراً هيناً ليناً، ظهرت فيه البركة والسكينة. . .»[44] كما شهد له مجلساً ثانياً بعد صلاة العصر من يوم الجمعة التالي الموافق للثاني عشر من صفر.

وذكر ابن جبير أنه حضر مجلس الشيخ جمال الدين أبي الفضائل عبد الرحمن بن علي الجوزي، رئيس الحنبلية (ت 597هـ/ 1200م)[45] وذلك بإزاء داره على الشط في الجانب الشرقي المتصلة بقصور الخليفة وعلى مقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي. وقد نسب ابن جبير هذه الدار إلى ابن الجوزي، وهو لا يعلم أنها دار المدرسة الشاطئية التي أوقفتها السيدة بنفشا الجندلية حظية الخليفة المستضيء بأمر الله المتوفاة سنة 598هـ/ 1201م، المدفونة مع زمرد خاتون بالقرب من الشيخ معروف الكرخي. وكان في كل مدرسة دار يسكنها المدرس، فكان ابن الجوزي ساكناً في دار المدرسة المذكورة أيام حضور ابن جبير إلى بغداد[46].

وقد أعجب هذا الرحالة الأندلسي بمجلس ابن الجوزي إعجاباً كبيراً ووصف ما رأى فيه بدقة متناهية، فأشار إلى قراءة القراء للقرآن الكريم، الذين زاد عددهم على العشرين قارئاً، وكانوا يتناوبون الآيات من سور

---

(44) ابن جبير: **المصدر السابق**: ص175.

(45) تنظر ترجمته عند: أبي العباس أحمد بن محمد المعروف بابن خلكان، وفيات الأعيان وأبناء أنباء الزمان، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة د. ت): 3/ 140 ـ 142، وينظر أيضاً: حسن عيسى علي الحكيم، ابن الجوزي (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة 1988) ص22 فما بعدها.

(46) ينظر: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حيدر أباد الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية 1357 ـ 1359هـ: 10/ 258، ويقارن: جواد وسوسة، **المرجع السابق**: ص173.

مختلفات وجاؤوا على حد تعبيره «بآيات متشابهات لا يكاد المتقد الخاطر يحصيها عدداً، أو يسميها نسقاً. . .»[47] ثم ذكر خطبة ابن الجوزي التي تضمنت أوائل الآيات المقروءات على نسق القراءة لها دون تقديم أو تأخير. وكان لوقع خطبته أعظم الأثر على ابن جبير والحاضرين، الذين ابتدروه بالأسئلة، والدعاء. ولقد عد ابن جبير حضوره لهذا المجلس غنيمة كبرى يهون دونها ما لاقى من متاعب وأهوال في السفر، وعبَّر عن ذلك بقوله: «فلو لم نركب ثبج البحر، ونعتسف مفازات القفر إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة والوجهة المفلحة الناضجة، والحمد لله على أن من بلقاء من تشهد الجمادات بفضله، ويضيق الوجود عن مثله»[48].

ويبدو أن استمتاع ابن جبير بمجالس الشيخ الفقيه ابن الجوزي كان كبيراً جداً، حتى إنه حرص على حضور أقصى ما يمكن منها، فحضر له مجلساً ثانياً صباح يوم الخميس المصادف الحادي عشر من صفر، في باب بدر[49]، في ساحة قصور الخليفة ومناظره المشرفة عليه «وهذا الموضع هو من حرم الخليفة» وقد حظي ابن الجوزي بالوصول إليه والتكلم فيه ليسمعه الخليفة ووالدته ومن حضر من نسائه. وكان الباب يفتح أيضاً لعامة الناس، فيدخلون إليه. وقد خصص يوم الخميس من كل أسبوع لهذا المجلس[50] وحضر ابن جبير مجلساً ثالثاً لابن الجوزي، يوم السبت الثالث عشر لصفر، من الموضع الأول الذي أشار إليه على الشط

(47) ابن جبير، **المرجع السابق**: ص176.

(48) **المصدر نفسه**: ص177.

(49) سمي بهذا الاسم نسبة إلى بدر مملوك الخليفة المعتضد، ويقع في الجانب الشرقي، ينظر: جواد وسوسة، **المرجع السابق**: ص158.

(50) ابن جبير، **المصدر السابق**: ص177.

الشرقي (أي دار المدرسة الشاطئية) وحين يعقد ابن جبير المقارنة بين ما حضره من مجالس لبعض الوعاظ الآخرين في بغداد، والذين لم يذكر اسمهم، بالإضافة إلى ما عهده من متكلمي الغرب، وما شاهده في مكة والمدينة من مجالس، يبدي ميلاً واضحاً إلى مجلس ابن الجوزي، الذي ترك في نفسه قدراً كبيراً من الإعجاب، جعله يستصغر كل مجلس سواه[51] وهذه شهادة لها قيمتها العلمية، لأنها جاءت من رجل عالم ناقد، حضر مجالس علمية ودينية متعددة في مناطق مختلفة في العالم الإسلامي ابتداء من الأندلس ومروراً بشمال أفريقيا ومصر، إلى الحجاز والعراق وبلاد الشام، الأمر الذي يدل على مدى ازدهار الحياة الفكرية في بغداد، التي أنجبت عبر تاريخها الطويل الكثير من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان، أمثال ابن الجوزي وغيره وهذا يشير أيضاً إلى تغلغل حب مجالس العلماء عند أهل بغداد، حتى إنهم كانوا يحضرون بأعداد كبيرة للسماع والتعلم، بحيث بلغ عددهم في بعض مجالس ابن الجوزي عشرات الألوف[52].

غادر ابن جبير بغداد متوجهاً إلى الموصل بعد صلاة العصر من يوم الاثنين الخامس عشر لصفر سنة ثمانين وخمسمائة، بعد أن ظل فيها ثلاثة عشر يوماً، كانت كافية لإعطاء فكرة واضحة عن معالم المدينة الحضارية والعمرانية فيها وتعد شهادته هذه من أهم الوثائق التي يعتمد عليها في دراسة مدينة بغداد في العصور العباسية المتأخرة.

ويمكن القول في ختام هذا البحث، أن رحلة ابن جبير ووصفه

(51) **المصدر نفسه**: ص179.

(52) ينظر: المنتظم 10/ 258 حيث يشير ابن الجوزي إلى أن عدد الذين كانوا يحضرون مجلسه أكثر من الذين يحضرون مجلس ابن الخير القزويني وقدّر في مكان آخر أن عدد الحضور كان نحو مئة ألف شخص، وهذا رقم مبالغ فيه بالتأكيد، ولكنه يشير إلى شدة إقبال الناس على مثل تلك المجالس؛ ينظر أيضاً: الحكيم، **المرجع السابق**: ص38.

لمدينة بغداد، ساعدت الباحثين على تثبيت مواقع الكثير من المعالم العمرانية في المدينة. كما قدم هذا الرحالة الأندلسي تقويماً إيجابياً للخليفة الناصر لدين الله، يختلف عما أورده مؤرخ معاصر، هو عز الدين بن الأثير (ت 630هـ/ 1232م)، الأمر الذي سهل على المؤرخين اللاحقين، والكتّاب المحدثين، النظر في الروايات المختلفة عنه، والمقارنة بينهما، والحكم عليها. كذلك قدمت ملاحظاته عن مجتمع بغداد، وأحوال السوق فيها، نظرة جديدة خاصة، جديرة بالدراسة والتعمق، لمعرفة الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي دفعت بعض أهل بغداد للسير بالاتجاه الذي أشار إليه ابن جبير، أما معلوماته عن الخدمات الصحية والمدارس والمراكز الثقافية، ومجالس العلم والوعظ، التي كانت منتشرة في بغداد، فهي على جانب كبير من الأهمية ولا سيما أنه قدّم ملاحظات نقدية مقارنة مع بقية ما شاهده في أنحاء العالم الإسلامي، مبيناً رجوح كفة هذه المدينة، وامتداد جذور حضارتها الزاهرة.

جريدة المصادر والمراجع

(أ) المصادر الأولية:

* ابن الأثير: أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم (ت 630هـ/ 1232م)

1 - الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1979 (ج12).

* الأسنوي: جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن (ت 772هـ/ 1370م).

- طبقات الشافعية، تحقيق: عبد الله الجبوري، بغداد، مطبعة الإرشاد، 1971. (ج2).

* الأنصاري؛ محمد بن محمد بن عبد الملك (ت 703هـ/ 1303م).

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1965 (السفر الخامس، القسم الثاني).

* ابن جبير؛ أبو الحسن محمد بن أحمد (ت 614هـ/ 1217م).

4 - رحلة ابن جبير. بيروت، منشورات دار ومكتبة الهلال، 1981.

* ابن الجوزي؛ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597هـ/ 1200م).

5 - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1357 - 1359هـ (ج10).

* ابن الخطيب؛ لسان الدين أبو عبد الله محمد (ت 776هـ/ 1374م).

6 - الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق، محمد عبد الله عثمان، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1974. (ج2).

* ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد (ت 681هـ/ 1282م).

7 - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافية، د. ت. (ج3).

* السبكي: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن عبد الكافي (ت 771هـ/ 1369م).

8 - طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق، عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، القاهرة، عيسى البابي الحلبي وشركاه (1968). (ج6).

* السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ/ 1505م).

9 ـ تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط3، القاهرة، مطبعة المدني، 1964.

* ابن طباطبا: محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي (ت 706هـ/ 1309م).

10 ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت، دار صادر، 1966.

* المقري: أحمد بن محمد (ت 1041هـ/ 1631م).

11 ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968 (ج2).

(ب) المراجع الثانوية:

* أمين، حسين.

12 ـ تاريخ العراق في العصر السلجوقي، بغداد، 1965.

* جواد، مصطفى، وسوسة، أحمد:

13 ـ دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً وحديثاً، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1958.

* الحكيم، حسن عيسى علي:

14 ـ ابن الجوزي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1988.

* الرحيم، عبد الحسين مهدي.

15 ـ الخدمات العامة في بغداد 400 ـ 656هـ/ 1009 ـ 1258م، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1987.

* صادق، جعفر حسن.

16 ـ الرحلات العلمية من الأندلس إلى المشرق في مصر الإمارة، القسم الثاني، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل ـ كلية الآداب، نيسان 1985.

* طه، عبد الواحد ذنون.

17 ـ «أهمية الرحلات العلمية بين المشرق العربي والأندلس» فصل من كتاب (دراسات أندلسية)، الموصل، منشورات مكتبة بسام، 1986.

* العلي، صالح أحمد.

18 ـ بغداد مدينة السلام/ الجانب الغربي، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1985.

* عيسى، محمد عبد الحميد.

19 ـ تاريخ التعليم في الأندلس، القاهرة، دار الفكر العربي، 1982.

* فوزي، فاروق عمر.

20 ـ تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلامية ـ 656هـ/ 622 ـ 1258م بغداد، مكتبة النهضة، 1988.

21 ـ الخليفة الداهية الناصر لدين الله العباسي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1989.

* القراز، محمد صالح.

22 ـ الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير 592 ـ 656هـ، النجف، مطبعة القضاء، 1971.

* كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتس.

23 ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، ط2 بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987.

* مال الله، علي محسن عيسى.

24 ـ «العراق في رحلة ابن جبير خاصة ورحلات العرب الأخرى» مجلة المورد، م18، العدد 4، 1989 (ص59 ـ 71).

* معروف، ناجي.

25 ـ علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، بغداد، مطبعة الإرشاد، 1973.

* مؤنس، حسين.

26 ـ تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط2، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1986.

تكريت من خلال رحلات المغاربة والأندلسيين

نشر هذا البحث في مجلة التربية والعلم التي تصدرها
كلية التربية في جامعة الموصل
العدد العشرون 1997

هنالك العديد من أصحاب الرحلات المغاربة والأندلسيين الذين زاروا المشرق لغايات مختلفة وتركوا لنا ملاحظاتهم عن المناطق التي شاهدوها وهي ملاحظات تتفاوت في قيمتها وأهميتها تبعاً لاهتمام صاحب الرحلة وتقييده لكل ما يراه، وشدة رغبته في الاطلاع على حقائق الأشياء. إن موضوع الرحلات لم يكن جديداً على المغاربة والأندلسيين، وهو بالتأكيد لم يكن طارئاً على العرب بشكل عام، فلقد مارسوا الترحال في شبه الجزيرة العربية والبلدان المجاورة لها قبل الإسلام. لكن الإسلام وسع بدوره آفاق الرحلة، وزاد من دوافعها حتى بلغت ذروتها[1]، فأصبحت في نظر الكثيرين مسألة لا بد منها في طلب العلم والاستفادة من

(1) حسين محمد فهيم، **أدب الرحلات**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1989، ص89.

العلماء، بزيارة الأمصار الإسلامية التي عرفت بتبحرها في العلوم المختلفة. وقد عبر عبد الرحمٰن بن خلدون (ت 808هـ/ 1406م) عن هذا الرأي بشكل صريح في مقدمته المشهورة بقوله: «فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال...»[2].

وبالإضافة إلى طلب العلم والاستزادة منه، كان أداء فريضة الحج من أعظم البواعث التي دفعت المسلمين عموماً على القيام بالرحلة. وهكذا كان آلاف المغاربة والأندلسيين يندفعون في كل عام لأداء هذه الفريضة[3]. ولم يكتف بعضهم بهذا فحسب، بل انتهز الفرصة لزيارة الأماكن الأخرى الشهيرة في المشرق، مثل المسجد الأقصى في القدس، وبغداد، ودمشق، والقاهرة.

وكان النبهاء من هؤلاء الحجاج لا يكتفون بالمشاهدة فحسب، بل يدوِّنون ملاحظاتهم، ويسجلون الأحداث التي يشاهدونها. ويعمد بعضهم الآخر إلى زيارة أماكن متطرفة لإشباع ميله الغريزي في الرحلة، فيبتعد عن الخط العام لطريق الحج، ويوغل في البلاد الإسلامية وغير الإسلامية حباً في الاستطلاع، واكتشاف المجهول، والتعرف إلى مظاهر الكون، وهو ميل غذته تعاليم الإسلام التي تحث على التأمل في الكون والتعرف إلى خصائصه، والسير في الأرض.

وهكذا نجد تعدد أهداف الرحلات، وتعدد أصناف الرحالة المسلمين وتشير كتب التراجم المغربية والأندلسية إلى مئات العلماء الذين

(2) عبد الرحمن محمد بن خلدون، **المقدمة**، بيروت دار إحياء التراث العربي (د. ت) ص541، وينظر أيضاً: ص434 ـ 435.

(3) يقارن: نقولا زيادة، **الجغرافية والرحلات عند العرب**، بيروت دار الكتاب اللبناني، 1962، ص167.

قاموا بهذه الرحلات. لكن الذين دوَّنوا رحلاتهم من هؤلاء، هم نخبة ليست بالكثيرة، قياساً إلى عدد الراحلين بين أقطار العالم الإسلامي. ونخص بالذكر منهم أولئك الذين اهتموا بالجغرافية، فحرصوا على تدوين نتائج استقصائهم وملاحظاتهم الدقيقة عن المنطقة التي رحلوا إليها. ومنهم بعض زوار البقاع المقدسة الذين دفعهم شعورهم بوجوب اطلاع مواطنيهم على أخبار تلك البقاع الشريفة البعيدة. يضاف إلى ذلك أن بعض الرحالة كان يعمد من طريق تدوين رحلته إلى تخليد ذكراه، ورغبته في هداية مواطنيه وتعريفهم بالمسالك التي يقطعها الحجيج، والمخاطر التي ينبغي الحذر منها في الطريق. وهناك من أصحاب الرحلات من يدعوه تقديره للعلم وأهله، والرغبة فيه إلى إثبات سنده العلمي، فيصنف كتاباً يجمع شيوخه ويترجم لهم، ويذكر الكتب التي أخذها عنهم، ويسمّى ذلك عند الأندلسيين (البرنامج)، وعند أهل المغرب (الفهرست)[4].

وهناك فريق آخر من الرحالة، وهم قلة، سجلوا مشاهداتهم العامة المتنوعة التي تشمل كل ما يمكن أن يقال ويكتب عن البلد الذي زاروه، من سائر نواحيه الجغرافية والتاريخية والعمرانية والاقتصادية، ما يجعل القارىء ملازماً له في سفره، ومشاركاً له في مشاهداته. وعلى هذا المنوال نسج أبو بكر محمد بن العربي (ت 543هـ/ 1148م) في تقييد رحلته التي تعد من طلائع الرحلات الأندلسية المدوَّنة إلى المشرق[5]. وكذلك

(4) يقارن: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط2، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1986، ص311 وتنظر: مقدمة محقق رحلة القلصادي، السيد محمد أبو الأجفان، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، 1978، ص67 ـ 68.

(5) توجد في المكتبة الخاصة للشيخ محمد المنوني بالرباط نسخة من هذه الرحلة، ونشر إحسان عباس جزءاً منها في مجلة الأبحاث البيروتية بعنوان: رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل، ج2 و3 كانون الأول 1968 (ص71 ـ 91)، وتنظر: مقدمة حسن حسني عبد الوهاب، رحلة التجاني، ليبيا، الدار العربية للكتاب، ص ط ـ ي، أغناطيوس يوليانوفتس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي. نقله =

فعل ابن جبير، الذي سنشير بالتفصيل إلى ما يتعلق برحلته إلى العراق، وتكريت على وجه الخصوص.

والواقع أننا إذا ما استعرضنا أصحاب الرحلات المغربية والأندلسية الذين زاروا مدينة تكريت، نجد أنهم قلة من بين هؤلاء. ويكمن السبب في ذلك إلى أن عدداً كبيراً من الرحالة كانوا يكتفون بقضاء فريضة الحج وزيارة الديار المقدسة ومن ثم الرجوع إلى بلادهم دون التوغل في البلاد الإسلامية الأخرى في المشرق. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر، الرحالة محمد العبدري الذي ينتمي في الأصل إلى مدينة بلنسية Valencia. وقد خرج في رحلته من المغرب سنة 688هـ/ 1289م إلى مكة، فرافق قافلة للحج من مصر، ثم رجع إليها من طريق فلسطين، وواصل عودته ماراً بالشمال الإفريقي، ودوَّن رحلته في مدينة تلمسان[6]. وهكذا نجد أنه لم يمر بالعراق ولم تتيسر له الفرصة لزيارة مدنه الشهيرة. أما محمد بن رشيد الفقري الأندلسي المتوفى سنة 721هـ/ 1321م، فقد خرج من المرية Almeria، ومر بشمال أفريقيا ومصر والشام، لكنه لم يدخل العراق، ودوَّن رحلته المسماة «ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة»[7].

كذلك قام أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي المتوفى بباجة أفريقيا سنة 891هـ/ 1486م برحلة إلى الحجاز، وكتب هذه الرحلة بصيغة أدبية

= عن الروسية، صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، بيروت دار الغرب الإسلامي، 1987، ص331، مؤنس، الجغرافية والجغرافيين، ص395، 412.

(6) محمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية، تحقيق، أحمد جدو، قسنطينة، نشر كلية الآداب الجزائرية (د. ت) ص5، وينظر أيضاً: محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، الدار البيضاء، 1983، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط: 1/ 79 ـ 80.

(7) شهاب الدين أحمد بن محمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، الرباط، 1978: 2/ 347، 350، المنوني، **المرجع السابق**: 1/ 80.

تمتزج في غرضها عناصر العبادة والحراسة والاستكشاف[8] لكنه لم يزر العراق أيضاً.

يضاف إلى ذلك، أن معظم الرحالة الذين زاروا العراق فعلاً ودوَّنوا رحلاتهم كانوا يكتفون بالإشارة إلى إقامتهم في المراكز الرئيسية فيه مثل بغداد والبصرة والكوفة والموصل، ويذكرون أهم الشيوخ الذين تلقوا عنهم العلم في هذه المراكز. ولا يعني هذا بالضرورة أنهم لم يمروا بمدينة تكريت، فالسالك بين بغداد والموصل، لا بد من أن يمر بها، لكنهم لم يدوّنوا ذلك في تقييداتهم، باستثناء قلة منهم.

ويعد عالم النبات المعروف بابن الرومية، وهو أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله بن محمد بن مفرج الأموي الإشبيلي (ت 637هـ/ 1239م)[9]. من أشهر هؤلاء الذين مروا بتكريت ودوَّنوا تقييداتهم عنها وعن علمائها. كان هذا الرجل إماماً في الحديث، وعلماً من أعلام علم النبات والأعشاب الطبية، قام برحلة إلى المشرق، كان هدفها بالإضافة إلى أداء فريضة الحج، التحصيل العلمي في مجال اختصاصه بعلم النبات. فغادر الأندلس سنة 612هـ/ 1215م، ولقي في رحلته جملة كبيرة من أعلام الحديث من رجال ونساء، ودوّن تلك الأسماء في برنامج خاص (فهرسة). وقد أودع ابن عبد الملك الأنصاري المراكشي هذا البرنامج ضمن الترجمة الواسعة التي كتبها عن ابن الرومية[10]. وقد دوّن ابن

(8) **مقدمة رحلة القلصادي**: ص70.

(9) ينظر عن هذا العالم: جزيل عبد الجبار الجومرد، «أبو العباس بن الرومية عالم الأعشاب والنباتات الطبية ـ حياته وتراثه»، مجلة آداب الرافدين، العدد 24، الموصل 1992، ص494، 536.

(10) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، الذيل والتكملة للكتابي الموصول والصلة، تحقيق، محمد بن شريفة، السفر الأول، =

الرومية حصيلة رحلته التي قام بها في المشرق والمغرب، ومناقشاته مع علماء النبات في تلك البلاد في كتاب فريد أسماه «الرحلة» الذي فقد، شأنه شأن كل كتب ابن الرومية الأخرى، ولم يبق منه إلا مقتبسات ضمنها ابن البيطار في كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»[11].

والذي يهمنا في هذه الرحلة، أن ابن الرومية مر في طريقه من بغداد إلى الموصل بمدينة تكريت، واطلع على ما تشتهر به من نباتات وأعشاب. كما التقى علماء الحديث فيها، وسجل لنا اسم اثنين من هؤلاء، احتفظ لنا بهما ابن عبد الملك الأنصاري ضمن (البرنامج) الذي أدرجه لشيوخ ابن الرومية، وهما: عمر بن القاسم بن الفرج بن الخضر أبو عبد الله، ويحيى بن أبي السعادات سعد الله بن أبي الحسين بن أبي تمام أبو الفتوح[12]. وقد ولد أبو الفتوح هذا في تكريت سنة 531هـ/ 1136م، وسمع الحديث من أبيه وجماعة من علماء المدينة، كما سمع ببغداد أيضاً، وحدث في بلده، وخرج لنفسه أحاديث، وعمل في تكريت دار حديث. وأهل بلده يثنون عليه ويصفونه بالصلاح. روى عنه علماء كثيرون، وتوفي سنة 618هـ/ 1221م[13]. أما عمر بن القاسم، فكان إماماً

= القسم الثاني، بيروت، دار الثقافة (د. ت)، ص487 ـ 518، وقد ترجم لابن الرومية العديد من المؤرخين، منهم على سبيل المثال: محمد بن عبد الله بن الأبار، تكملة الصلة، القاهرة، نشر عزت العطار، 1956: 1/ 12، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، اختصره: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1980، ص181، لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة بتحقيق، محمد بن عبد الله عنان، ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1973: 1/ 207 ـ 214.

(11) ينظر: الجومرد، **المرجع السابق**: ص504، 510، 530، 531.

(12) الأنصاري، **الذيل والتكملة**، السفر الأول، القسم الثاني، ص496.

(13) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق، بشار عواد معروف وجماعته، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1988، الطبقة الثانية والستون (611 ـ 620هـ)، ص392 ـ 393. ويشير الذهبي إلى =

مفتياً، وفقيهاً على المذهب الشافعي، وهو أخو القاضي يحيى بن القاسم، قاضي تكريت، توفي عن اثنتين وثمانين سنة في جمادى الآخرة سنة 622هـ/ 1225م[14]. وهكذا نرى أن شهرة هذين العالمين دعت ابن الرومية للتوقف في هذه المدينة والأخذ عنهما، ومن ثم إضافة اسميهما إلى قائمة شيوخه الذين أخذ عنهم، ودوّن ذلك في رحلته.

ومن العلماء الرحالة الذين جابوا المشرق، ودخلوا بلاد الشام والعراق، ومصر، العالم القرطبي الأصل محمد بن علي بن محمد بن عبد الرحيم بن هشام الأنصاري الأوسي، الذي نشأ في مدينة ساد بالمغرب، واشتهر بعلم الحديث. رحل مرتين إلى المشرق، الأولى سنة 618هـ/ 1221م، وفيها أدى فريضة الحج ودخل العراق، ومر ببغداد وتكريت والموصل. وقد التقى في تكريت أحد الشيوخ، الذي يدعى بأبي المعالي محمد. ومن المؤسف أننا لم نستطع قراءة بقية اسمه لوجود بياض في أصل النسخة المخطوطة التي حققها محمد بن شريفة من كتاب الذيل والتكملة[15]. ورجع هذا العالم الرحالة إلى مدينة مراكش، ثم رحل عنها إلى إشبيلية Sevilla وسكن فيها مدة وكذلك في مدينة شريش Jerez de la Frontera المجاورة، ومنها غادر في رحلته الثانية إلى المشرق سنة 648هـ/ 1250م، التي كان باعثه عليها القيام بأداء فريضة الحج أيضاً. ولم يعن في هذه الرحلة بالأخذ عن أحد، كما لا يعرف إن كان قد مر بالعراق أم لا. وتوفي هذا العالم سنة 671هـ/ 1272م، ودفن في مدينة مراكش[16].

= اسمه هكذا: يحيى بن سعد الله بن الحسين بن أبي غالب محمد بن أبي تمام الشيخ أبو الفتوح التكريتي.

(14) **المصدر نفسه**، الطبقة الثالثة والستون (621 ـ 630هـ) ص110. ويشير الذهبي إلى اسمه هكذا: عمر بن القاسم بن مفرج بن درع أبو عبد الله التكريتي.

(15) ابن عبد الملك الأنصاري، السفر الثامن، القسم الأول، ص337.

(16) **المصدر نفسه**: ص338.

وهناك من الرحالة من كان يدفعه إلى جوب الآفاق شوق شديد لاكتشاف المجهول والدخول في بلاد بعيدة مجهولة الأحوال واللغات. ومن هؤلاء أحد الأندلسيين الذين كرسوا حياتهم للرحلة، وهو محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي، المعروف بأبي حامد، الذي ولد في غرناطة Granada سنة 473هـ/ 1080[17]، وغادر إلى المشرق في حدود سنة 500هـ/ 1106 ـ 1107م في رحلة طويلة شملت أولاً نواحي المغرب الأقصى، ثم مصر والشام، وبغداد التي وصلها لأول مرة سنة 516هـ/ 1123 ـ 1124م، وأقام بها أربع سنوات على وجه التقريب، وأصبح مقرباً من أحد مشاهيرها المدعو عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، الذي سيصبح فيما بعد وزيراً للمقتفي بالله العباسي سنة 544هـ/ 1149م، ويظل في الوزارة إلى 560هـ/ 1165م حيث توفي في هذه السنة. وقد لقي أبو حامد كل إكرام من يحيى بن هبيرة الذي أنزله في داره، وفتح له مكتبته. فأهدى أبو حامد في المقابل أحد مؤلفاته «المعرب عن بعض عجائب المغرب» إلى هذا الوزير، وأشار إلى ذلك في فاتحته للكتاب[18].

اتخذ أبو حامد بغداد قاعدة لرحلاته التي شملت هضبة إيران، وبلاد التركستان، وحوض نهر الفولغا، وشرق أوروبا، والمجر، وأماكن أخرى[19]. ولحسن الحظ أثبت أبو حامد تواريخ زياراته لبعض المواضع وهو ما يعين على تتبع بعض خطواته. والذي يهمنا في هذا الأمر هو

(17) تنظر ترجمته عند: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968: 2/ 235 ـ 236.

(18) محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي المعروف بأبي حامد، **المعرب عن بعض عجائب المغرب**، مخطوط أكاديمية التاريخ في مدريد رقم (XXXIV)، مجموعة جلنيجوس، الورقة A2، نقلاً عن حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص311.

(19) ينظر: كراتشكوفسكي، **المرجع السابق**: ص326، مؤنس، **المرجع السابق**: ص312.

تواجده في العراق، والأماكن التي زارها فيه، واحتمال مروره بتكريت بالذات. فقد خرج سنة 546هـ/ 1115م من خوارزم إلى الحج ماراً ببخارى ومرو ونيسابور والري وأصفهان والبصرة في الغالب، فأدى الفريضة وعاد إلى بغداد[20]، التي يبدو أنه ظل فيها حتى عام 556هـ/ 1161م، بحيث ذهب في هذه السنة إلى الموصل وظل فيها عاماً، تعرف خلاله على الكثير من أعيانها وعلمائها، ومنهم الشيخ معين الدين أبو حفص عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي، مؤلف كتاب «**وسيلة المتعبدين**»[21] وفي الموصل كتب أبو حامد كتابه الثاني الموسوم **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**[22] بناء على رجاء الشيخ عمر الأردبيلي المذكور أعلاه. وفرغ من كتابته في 3 ربيع الآخر سنة 557هـ/ 22 آذار 1162م. ثم غادر بعدها إلى حلب وظل حتى سنة 560هـ/ 1164م، ومنها رحل إلى دمشق التي توفي فيها سنة 565هـ/ 1169م وهو في الثانية والتسعين من عمره[23].

وتبرز أهمية أبي حامد في ملاحظاته الدقيقة ووصفه لما يشاهده بنفسه للأماكن، فهو في نظر مؤنس[24]، «ليس جغرافياً صرفاً أو عجائبياً خالصاً ولا رحالة فحسب، إنما هو ذلك كله..» وقد أعطته إقامته الطويلة

(20) أبو حامد الغرناطي، قطعة من كتاب المعرب عن بعض عجائب المغرب، نشرها سيزار دوبلر تحت عنوان:
Abu Hamid el - Granadian Y su Relaction de Viaje Por Tierras Eurasiaticas, (edicion del Texto Arabe con notas), Madrid, 1953, P. 44.

(21) C. Brockelman, Geshichte der srabischen literature Supplement bande, Leiden. 1938 - 1938. Vol. I. PP. 783, 84.

(22) حققه المستشرق الفرنسي جابرييل فران Gabriel Ferrand، ونشره في المجلة الآسيوية Journal Asiatique عام 1925. ولم يتيسر لي الاطلاع عليه. وظهر حديثاً بتحقيق إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب 1993.

(23) ينظر: المقري، **نفح الطيب**: 2/ 236، ويقارن: مؤنس، **تاريخ الجغرافية والجغرافيين**، ص323.

(24) **المرجع نفسه**: ص336.

نسبياً في العراق مجالاً خصباً للتعرف إلى طبيعته. لكنه كان يركز في غالب الأحيان على العجائب، فأطنب في حديثه عن الشعوب الغريبة، والأماكن العجيبة[25]. ولم تنل الأماكن المعروفة منه اهتماماً كبيراً، لهذا لا نتوقع أن نجد كلاماً كثيراً عن بغداد والموصل اللتين قضى فيهما هذا الرحالة وقتاً طويلاً نسبياً ناهيك بتكريت، التي لا بد من أنه مر بها خلال رحلاته من بغداد إلى الموصل.

ولكن من خلال استعراضنا للقسم الذي نشره سيزار دوبلر لكتاب المعرب عن عجائب المغرب، والموضوعات الأخرى في كتابه تحفة الألباب[26]، يبدو أنه كان يختار كل ما هو غريب وعجيب، مثل كلامه عن كل عقرقوف، ووصفه لإيوان كسرى، بالنسبة إلى عجائب البنيان في العراق. لهذا فمن غير المرجح أنه سجل أحداثاً ذات بال عن تكريت ولكن يحتمل أنه أقام بها بعض الوقت، وتعرف إلى مشاهير علمائها أسوة بما فعل في بغداد والموصل.

وعلى عكس أبي حامد الغرناطي، خص أبو الحسن محمد بن جبير الكناني مدينة تكريت بفتوة مهمة من رحلته، كما أشار بالضبط إلى وقت وصوله إليها ومغادرته لها. وابن جبير هو أحد الأسماء اللامعة في مجال الرحلة في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد. ولد في مدينة بلنسية Valencia أو شاطبة Jativa بالأندلس عام 540هـ/ 1145م، وتوفي في الإسكندرية سنة 614هـ/ 1217م[27]. قام هذا الرحالة برحلة مشهورة إلى

(25) ينظر على سبيل المثال: أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب (نشر دوبلر)، ص8، 19، 37.

(26) أبو حامد الغرناطي، **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، تحقيق، إسماعيل العربي، ص106، 107، وينظر: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ص326 ـ 330، **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس** ص303 ـ 357.

(27) ينظر عنه: ابن عبد الملك الأنصاري، **المصدر السابق**، تحقيق إحسان عباس، =

المشرق، كان هدفها الرئيسي أداء فريضة الحج، ثم تطور إلى رغبة عارمة بطلب العلم والسماع على الشيوخ الذين يمر بهم في مختلف البلدان، ومن ثم تسجيل كل ما يراه في أسلوب سهل صادق يبعث على الثقة. ورحلة ابن جبير هذه هي الأولى ضمن ثلاث رحلات قام بها إلى المشرق، لكنه لم يدوّن سواها، وضعها بعد رجوعه إلى الأندلس في نحو عام 581هـ/ 1185م. وتعتمد رحلة ابن جبير الأبية على هذه الرحلة بالذات، التي أفاد منها الجغرافيون والمؤرخون الذين أعقبوه من أمثال ابن بطوطة، وابن الخطيب، والمقريزي، والمقري[28].

سلك ابن جبير في رحلته إلى المشرق طريق البحر، فخرج من طريق Tarifa إلى سبتة، ومنها إلى الاسكندرية، حيث ركب النيل إلى القاهرة، ثم غادرها إلى صعيد مصر، فوصل مرفأ عيذاب على البحر الأحمر، فركب منه إلى جدة، ثم أخذ قافلة إلى مكة، وأقام فيها سنة ونصف، ومر بعد ذلك بالمدينة في طريقه إلى الكوفة، وزار بغداد وسامراء وتكريت، فالموصل وحلب، ومنها إلى دمشق، ثم إلى ميناء عكا، حيث أبحر إلى جزيرة صقلية، ومنها إلى الأندلس، فوصل غرناطة بعد غيبة دامت أكثر من عامين.

وتعد رحلة ابن جبير إلى العراق على درجة كبيرة من الأهمية[29]، ولكننا سنقتصر على مناقشة تقريره عن مدينة تكريت، الذي هو موضوعنا الرئيسي في هذا البحث. فقد غادر هذا الرحالة بغداد، التي مكث فيها

= بيروت، دار الثقافة، 1965، السفر الخامس، القسم الثاني، ص595 ـ 621، ابن الخطيب، الإحاطة: 2/ 230 ـ 239، المقري، **نفح الطيب**: 2/ 381 فما بعدها.

(28) كراتشكوفسكي، **المرجع السابق**: ص334، مؤنس، **تاريخ الجغرافية والجغرافيين**، ص429.

(29) عن رحلة ابن جبير إلى العراق ينظر: علي محسن عيسى مال الله، «العراق في رحلة =

ثلاثة عشر يوماً[30]، إلى الموصل أثر صلاة العصر من يوم الاثنين الخامس عشر لصفر سنة 580هـ/ 28 أيار 1184م، ملتحقاً بركب الحجاج المغادر إلى الموصل والشام بصحبة اثنتين من كبار النساء، وهما خاتون بنت السلطان السلجوقي غياث الدين مسعود (529 ـ 547هـ/ 1135 ـ 1152م)، وخاتون أم عز الدين مسعود أتابك الموصل (576 ـ 589هـ/ 1180 ـ 1193م)[31].

وبات الركب ليلته الأولى بإحدى قرى بغداد على مقربة من دجيل، الذي يتفرع من نهر دجلة، ثم واصل سيره باتجاه الشمال ماراً بحصن المعشوق المقابل لمدينة سر من رأى الواقعة على الجانب الشرقي من دجلة، والتي استولى الخراب على كثير من جهاتها بحسب وصف ابن جبير. وأقام الركب في هذا الموضع مستريحاً لمدة يوم، ومن ثم أسرى مع الليل إلى مدينة تكريت، التي وصلها مع الفجر من يوم الجمعة التاسع عشر من صفر من السنة نفسها، الموافق الأول من حزيران سنة 1152م[32].

ظل ابن جبير في تكريت يوماً واحداً، فهو قد وصلها مع الفجر، كما أسلفنا، ونزل هو والركب المرافق له في ظاهرها مستريحين ذلك اليوم كله، ثم غادروها في العشاء باتجاه مدينة الموصل. وتشير ملاحظات

= ابن جبير خاصة ورحلات العرب الأخرى» مجلة المورد، المجلد 18، العدد 4، بغداد، 1989، ص59، 71.

(30) عن رحلته ووصفه لبغداد ينظر: عبد الواحد ذنون طه «بغداد من خلال رحلة ابن جبير»، بحث نشر ضمن كتاب: بغداد في التاريخ، بحوث الندوة العلمية الأولى لقسم التاريخ بكلية التربية جامعة بغداد للفترة من 5 ـ 7 أيار 1990، بغداد، دار الحكمة للطباعة والنشر، 1991، ص321 ـ 335.

(31) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، بيروت، منشورات دار ومكتبة الهلال، 1981، ص184، ويقارن: أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، القاهرة، دار المعارف، 1972: 1/ 321، 2/ 346.

(32) ابن جبير، **الرحلة**: ص186.

ابن جبير عن هذه المدينة خلال هذا اليوم إلى الدقة ومدى الاستيعاب لما يشاهده ويتعرف إليه خلال جولته في المنطقة. يقول عنها بالنص ما يأتي: «هي مدينة كبيرة واسعة الأرجاء، فسيحة الساحة، حفيلة الأسواق، كثيرة المساجد، غاصة بالخلق، أهلها أحسن أخلاقاً وقسطاً في الموازين من أهل بغداد، ودجلة منها في جوفيها، ولها قلعة حصينة على الشط هي قصبتها المنيعة، ويطيف في البلد سور قد أثر الوهن فيه، وهي من المدن العتيقة المذكورة»[33].

هذا هو تصور ابن جبير عن تكريت، وهو تصور يغلب عليه طابع الوصف والمشاهدة لما يمكن أن يراه الرحالة خلال مروره بمدينة من المدن. فقد وصف اتساعها من حيث المساحة والامتداد، ووصف أسواقها وأشار إلى كثرة مساجدها، وإلى موقع دجلة منها. كما حدد موقع قلعتها على الشط، ورأى حصانتها، قياساً إلى سورها الذي أثر الوهن فيه. لكن هنالك ملاحظة تنم عن بعد اجتماعي في تقرير ابن جبير، حين أشار إلى أخلاق أهلها، ودقتهم وعدالتهم في الموازين مقارنة بأهل بغداد، الذين نالهم بنقد لاذع، وعاب عليهم كبريائهم وازدرائهم للغرباء، وتطفيفهم للميزان[34]. ويبدو أن اتساع مدينة بغداد، وكثرة العناصر الغريبة فيها التي اختلطت بأهلها وأثرت سلباً على العلاقات الاجتماعية والتبادل التجاري، هو الذي أدى إلى ملاحظة ابن جبير عنها. وهذا أمر طبيعي في مجتمع متعدد الأجناس مثل مدينة بغداد[35]. والواقع أن الرحالة من أمثال ابن جبير وغيره كانوا يدخلون هذه المدن الكبيرة وآمالهم واسعة في أن يجدوا فيها أكبر قدر من الاحترام والإكرام وحسن المعاملة، لكن صخب

(33) المصدر نفسه: ص186.

(34) المصدر نفسه: ص174.

(35) ينظر: طه، المرجع السابق: ص325.

الحياة وكثرة الوافدين عليها في تلك العصور قد قلل الشعور بالغريب والاحتفاء به، وذلك على العكس من المدن الصغيرة التي تعامل ضيوفها الغرباء معاملة خاصة لقلتهم. وهذا ما حصل لابن جبير بالتأكيد في مدينة تكريت، التي يبدو أنه نال إكرام أهلها واحترامهم وحسن معاملتهم. ولا ننسَ في هذا المجال أن القافلة التي رافقها ابن جبير كانت قافلة رسمية، تضم موكب اثنتين من كبار نساء العصر، الأمر الذي انعكس دون شك على الاهتمام بها، ومعاملة أفرادها أحسن معاملة.

وبعد نحو قرن ونصف من الزمن زار رحالة مغربي مشهور هذه المنطقة وتحدث عنها، ذلك هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة. ولد هذا الرحالة في مدينة طنجة عام 703هـ/ 1304م، وغادرها سنة 725هـ/ 1325م في رحلة طويلة امتدت عبر شمال أفريقيا إلى مصر، والشام، والجزيرة العربية، وشرق أفريقيا، وإيران، والعراق، وآسيا الصغرى، وحوض الفولغا، وخوارزم، وتركستان، والهند، والسند، وسيلان، وجزائر الهند الشرقية، والصين. وقد عاد إلى المغرب سنة 750هـ/ 1349م. وهذه هي إحدى رحلاته الثلاث، أما رحلتاه الأخريان، فالأولى إلى الأندلس، بحيث زار مملكة غرناطة، آخر دولة عربية في الأندلس، والثانية شملت بلاد السودان الغربي. وقد عاد إلى بلده، بحيث توفي في طنجة سنة 770هـ/ 1368 ـ 1369م[36].

دخل ابن بطوطة العراق قادماً من الحجاز في حدود عام 727هـ/ 1327م. وكانت البلاد تحكم آنذاك من قبل السلطان أبي سعيد بهادر 716 ـ

(36) ينظر: كراتشكوفسكي، **المرجع السابق**: ص457 ـ 460 وهامش المترجم ص460. وينظر أيضاً: زيادة، **المرجع السابق**: ص187 ـ 189.

736هـ/ 1316 ـ 1335م، وهو تاسع أيلخات مغول العراق وإيران، وآخرهم، بحيث تفرقت المملكة بعد وفاته. وكانت عاصمة هذا السلطان مدينة تبريز، أما بغداد، فكانت مدينة ثانوية لها أمير من قبل الأيلخانيين[37]. وفي وقت زيارة ابن بطوطة، كان السلطان أبي سعيد في بغداد[38]. وقد رافق ركبه إلى تبريز، ثم رجع مرة أخرى إلى بغداد بنية القيام بفريضة الحج لموسم عام 728هـ/ 1328م وكان قد تبقّى لحركة موكب الحج نحو شهرين من الزمن، فاستغلهما ابن بطوطة لزيارة الموصل وديار بكر، ومن ثم العودة إلى بغداد[39].

وتفاصيل هذه الرحلة تكاد تكون مطابقة تماماً لما رواه ابن جبير عن الطريق من بغداد إلى الموصل. فبالنسبة إلى مدينة تكريت يقول ابن بطوطة: «وهي مدينة كبيرة فسيحة الأرجاء مليحة الأسواق كثيرة المساجد، وأهلها موصوفون بحسن الأخلاق، والدجلة في الجهة الشمالية منها، ولها قلعة حصينة على شط الدجلة، والمدينة عتيقة البناء يحيطها سور يطيف بها، ثم رحلنا منها...»[40] وكما نرى فإن هذا النص يشبه إلى حد كبير جداً نص ابن جبير، باستثناء أنه لم يشر إلى المقارنة بين أهل تكريت وأهل بغداد من حيث حسن الأخلاق والقسط في الموازين. ومن المحتمل جداً أن هذا النص، وبقية نصوص رحلة هذين الشهرين الهامشية

(37) ينظر: حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته، القاهرة، دار المعارف، 1980، ص73 ـ 74، 84، خليل إبراهيم السامرائي، الأوضاع السياسية للعالم الإسلامي من خلال رحلة ابن بطوطة، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، سلسلة الموسوعة الصغيرة، 1986، ص86 ـ 88.

(38) أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواحي الطنجي المعروف بابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأقطار)، بيروت، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، 1964، ص227.

(39) **المصدر نفسه**: ص332 ـ 334.

(40) **المصدر نفسه**: ص334.

لابن بطوطة منقولة عن ابن جبير وغيره[41]، ولا سيما أن الكاتب الذي تولى تحرير الرحلة وتقييدها، أبا عبد الله محمد بن جزي (ت 757هـ/ 1355م)[42] كان على اطلاع على رحلة مواطنه الأندلسي ابن جبير، وقد وردت إشارة صريحة إلى النقل عنه، ولا سيما عند الحديث عن مدينة بغداد[43].

وإن كانت رحلة ابن بطوطة لم تضف شيئاً جديداً إلى معلوماتنا عن مدينة تكريت زيادة عما جاء به ابن جبير، فإنها قدمت لنا نصاً عظيم القيمة، يشير إلى عمق واتساع العلاقات التجارية بين تجار العراق بعامة وتكريت بشكل خاص وبقية بلاد المشرق، وذلك بالإشارة إلى تعامله مع أحد التجار من تكريت، يعرف بمحمد الدوري. وتأتي إشارة ابن بطوطة هذه ضمن عرضه لعادة أحد ملوك الهند السلطان أبي المجاهد محمد شاه الثاني بن تغلق (725 ـ 752هـ/ 1325 ـ 1351م) في إكرام الغرباء وتقبل الهدايا منهم. وقد تعود التجار على هذه الحالة، فكانوا يقرضون الغرباء ويجهزونهم بالهدايا للملك على أمل أن يردها عليهم بأضعافها، فيكسب الغريب والتاجر معاً. وحين وصل ابن بطوطة إلى هذه البلاد قرر أن يسلك هذا السبيل، وهو يذكر في هذا الصدد ما يأتي: «ولقد اشتريت من تاجر عراقي في أهل تكريت يعرف بمحمد الدوري بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرساً وجملاً عليه حمل من النشاب، فإنه مما يهدى إلى السلطان،

(41) يعكف الزميل الدكتور جزيل عبد الجبار الجومرد على إعداد بحث مستفيض عن هذا الموضوع، وسيكون للنتائج التي يتوصل إليها أهمية كبيرة في هذا المجال.

(42) تنظر ترجمته عند: ابن الخطيب، الإحاطة: 2/ 256 ـ 257، إسماعيل بن يوسف بن محمد المعروف بابن الأحمر، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، دراسة وتحقيق، محمد رضوان الداية، بيروت، دار الثقافة، 1967، ص292، 307، المقري، نفح الطيب: 5/ 526 ـ 539، المقري، أزهار الرياض: 3/ 189.

(43) ابن بطوطة، **الرحلة**: ص221، 222.

وذهب التاجر المذكور إلى خراسان، ثم عاد إلى الهند، وهناك تقاضى مني ماله واستفاد بسببي فائدة عظيمة، وعاد من كبار التجار، ولقيته بمدينة حلب بعد سنين كثيرة وقد سلبني الكفار ما كان بيدي فلم ألق منه خيراً»[44].

وهكذا نجد من خلال هذه الرحلة امتداد العلاقات التجارية ونشاط أبناء الطرق الذين يمثلهم التاجر محمد الدوري من تكريت، وقيامه بتجارة الخيل والجمال وغيرها في بلاد الهند والسند، واتساع مجال حركته إلى خراسان وحلب، الأمر الذي يدل على نشاط وحيوية بعض العراقيين في مجال التجارة الخارجية في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد. وهذا مثال واحد من رحلة واحدة، ولا شك أن هناك الكثيرين من أمثال هذا التاجر الجوال، الذين لم تتيسر الظروف للتعرف عليهم أو الإشارة إليهم من قبل ابن بطوطة أو غيره من الرحالة والمؤرخين.

(44) المصدر نفسه: ص396.

اليمن من خلال رحلة ابن بطوطة

تناول الكثير من الكتّاب والباحثين رحلة أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة (17 رجب 703 ـ 779هـ/ 1304 ـ 1378م)، بالدرس والاستقصاء. وقام بعض المستشرقين بنشر أجزاء منها، وترجمتها إلى اللغات الأوروبية، ونشروا أبحاثاً مستفيضة عنها. ولم يقصّر الباحثون العرب الذين تناولوا هذه الرحلة من جوانب مختلفة، ولا سيما من الناحية السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والجغرافية، والمعمارية. كذلك جرت دراسة عدد كبير من الأقاليم والأقطار التي تمت الرحلة إليها من خلال معطيات هذه الرحلة، وما قدمه ابن بطوطة في هذا المجال. ولقد لفتت انتباهي قلة تركيز الباحثين على منطقة جنوب غرب الجزيرة العربية، من خلال الرحلة. وأعني بلاد اليمن، حيث قدّم لنا ابن بطوطة معلومات قيّمة عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لهذا البلد، وهي جديرة بالاهتمام والتوقف عندها. كذلك لخص لنا بعض الظواهر الجغرافية التي لاحظها على هذا الجزء من الجزيرة العربية.

وبالنظر إلى ما تربطني باليمن من ذكريات، ومشاهدات، تكاد تتطابق مع الأماكن التي زارها هذا الرحالة الكبير، ولا سيما المراكز الحضرية الأساسية المتمثلة بزبيد، وتعز، وصنعاء، وعدن، والتي تمت زيارتي لها في أثناء السنة الدراسية لسنة 1999 ـ 2000م، حين كنت أستاذاً زائراً في جامعتَيْ عدن وتعز. ولهذا، فقد تحركت فيّ لهفة الباحث والمؤرخ، لوضع مادة ابن بطوطة بشأن اليمن موضع البحث والتحليل، مشيراً إلى إمكانية الاستفادة منها في دراسة تاريخ هذا البلد السياسي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي، في الحقبة التي تمت فيها الزيارة، والتي على الرغم من قصرها، فإنها تشكل رواية شاهد عيان لكثير من الأحداث التي كنّا نجهلها، أو على الأقل أنه قدّم لنا توضيحاً لها، يساعد ولا شك على سد ثغرات في تاريخ هذا البلد العريق.

ولن أتحدث هنا عن حياة ابن بطوطة، وأهمية رحلاته التي أشبعها الباحثون دراسة واستقصاءً. ويمكن أن أحيل القارىء فقط إلى بعض المراجع الأساسية، مثل ما كتبه المستشرق الروسي كراتشكوفسكي[1]، والمستشرق الإنكليزي السير هاملتون جب[2]، وحسين مؤنس[3]، ومحمود الشرقاوي[4]، وشاكر مضباك[5]، وعبد الله كنون[6]، ونقولا

(1) **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، نقله عن الروسية، صلاح الدين عثمان هاشم. ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987، ص456 ـ 471.

(2) The Travels of Ibn Battūta, translated with revisions and nots by: H. A. R. Gibb, printed in Germany, 1972. Vol. I. P. ix - xvi.

(3) ابن بطوطة ورحلاته، القاهرة، دار المعارف، 1980، ص7 ـ 30.

(4) رحلة مع ابن بطوطة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968، ص1 ـ 23.

(5) ابن بطوطة ورحلته، النجف، مطبعة الآداب، 1971، ص7 ـ 16.

(6) ذكريات مشاهير رجال المغرب/ابن بطوطة. الرباط، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة أيسيسكو، 1996، ص9 ـ 36.

زيادة[7]، وغيرهم. كما يمكن للباحث أن يجد في المقدمة التي كتبها عبد الهادي التازي، والذي بين يدي تحقيقه لهذه الرحلة، الكثير من المعلومات الخاصة بمخطوطات الرحلة، ومكانتها في الدراسات الاستشراقية، والدراسات العربية الحديثة، والدراسات النقدية للرحلة، فضلاً عن مكانتها في أدب الرحلات[8].

ولقد استوقفني في أثناء قراءتي لما دوّنه بعض الباحثين من نص الرحلة إلى اليمن ـ وهو ليس بالكثير، ولا يتضمن سوى استعراض لمراحل هذه الزيارة ـ ما كتبه الباحث الراحل حسين مؤنس، الذي أبدى بعض الملاحظات قبل المضي في الرحلة مع ابن بطوطة في اليمن، وتتبع خطواته هناك. وأول تلك الملاحظات، أنه كان لليمن سحر كبير على نفس ابن بطوطة، لأنه كان «يصر على زيارته المرة بعد المرة»، حتى وفق في النهاية إلى الزيارة. والأمر الثاني، هو ما استشعره مؤنس من كلام ابن بطوطة، بأنه «قد خاب رجاؤه، وكأنه كان يتوقع أن يرى لليمن صورة أخرى غير التي وجده عليها». ويستمر مؤنس في هذا الاتجاه فيضيف قائلاً: «وسنرى أن ابن بطوطة لن يجد في اليمن مكاناً جميلاً يعجبه إلا صنعاء، ولهذا فسيطيل الكلام عنها. ثم إننا سنرى أنه لن يطيل المقام في اليمن، بل سيسرع بالخروج منه لأنه لا يجد فيه مكاناً ينتظره»[9].

والواقع أن معطيات زيارة ابن بطوطة لليمن، لا تؤيد إلا جزءاً من ملاحظة مؤنس الأولى، وهي أنه أراد أن يزوره لأكثر من مرة. فبالإضافة

(7) **الجغرافية والرحلات عند العرب**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1962، ص187 فما بعدها.

(8) رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق، عبد الهادي التازي، الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1997، ص17 ـ 146.

(9) مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته، ص91.

إلى الزيارة الأولى، التي تمت في سنة 730هـ/ 1330م، حاول زيارته مرة ثانية بعد موسم الحج لسنة 732هـ/ 1331م، فلم يوفق إلى ذلك، بعد أن غادر إلى جدّة «برسم ركوب البحر إلى اليمن والهند. **فلم يقض لي ذلك، ولا تأتى لي رفيق...**»[10]. ولا يوجد ما يدل على أن ابن بطوطة «قد خاب رجاؤه» من اليمن، بل على العكس، وكما سنرى من شهادته، فقد أشاد بالحياة العلمية والاقتصادية في هذا البلد، وصوَّرها أحسن تصوير. ولم يقتصر في وصفه على صنعاء والإعجاب بها فحسب، بل سجل هذا الانطباع على كثير من الأماكن الأخرى. أما مسألة عدم الإطالة في المقام باليمن، فهي لا تدل بالضرورة على أنه «لا يجد فيه مكاناً ينتظره»، بل هو شأن هذا الرحالة في كثير من المناطق الأخرى التي لم يستقر فيها كثيراً، وبالعكس لو لم يجد فيه مكاناً ينتظره، لما حاول أن يرجع إليه للمرة الثانية، ولم يُوفق في ذلك، كما أسلفنا.

طريق الرحلة:

كان وصول ابن بطوطة إلى اليمن بعد نحو خمسة أعوام من بدء رحلته من مدينة طنجة (يوم الخميس 2 رجب 725هـ/ 14 حزيران/ يونيه 1325هـ). وكان قبل توجهه إلى اليمن قد أقام في مكة لثلاثة مواسم متتالية، اعتباراً من سمنة 727هـ/ 1327م إلى سنة 730هـ/ 1330م. فخرج في هذا العام قاصداً بلاد اليمن[11]. فمرَّ بِحَدّة، الواقعة في منتصف الطريق بين مكة وجُدّة. ثم وصل إلى مدينة جدّة، الواقعة على البحر الأحمر.

(10) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق، عبد الهادي التازي؛ 2/ 159. وسوف نرمز لهذا المصدر فيما بعد هكذا: (الرحلة).

(11) **المصدر نفسه**: 2/ 97.

ومن جُدة ركب البحر (لأول مرة في حياته) في مركب يسمونه (الجَلْبة). وكان الاتجاه إلى اليمن، ولكن وبالنظر إلى تغيّر، واشتداد الأمواج، اضطرت سفينتهم إلى أن ترسوا في الساحل الغربي للبحر الأحمر، في مرسى يُعرف برأس الدوائر، الذي يقع بين عيذاب وسواكن. ثم وصل إلى جزيرة سواكن بعد مسيرة يومين من رأس دوائر.

وركب البحر من سواكن إلى أرض اليمن، فوصل بعد ستة أيام إلى مدينة حَلِي، ومنها توجه إلى بلدة السرْجة، التي أقام فيها ليلة واحدة، ثم رحل إلى مرسى الحادث، وبعده مرسى الأبواب، ثم إلى زبيد. التي خرج منها إلى قرية يقال لها غسانة، ثم إلى جِبْلَة، ومنها إلى تعز، وبعدها إلى صنعاء، ثم إلى عدن التي أبحر منها إلى مدينة زيلع في الصومال الحالية. وبعد جولة في شرق إفريقيا، شملت مقديشو وكلوة، ركب البحر إلى ظفار، فأتم جولته في اليمن، ثم غادرها متوجهاً إلى عُمان.

معطيات الرحلة إلى اليمن

إن المتتبع لرحلة ابن بطوطة في اليمن، شأنها شأن الكثير من رحلاته الأخرى إلى بقية البلدان، يجد أنه يركز على معالم كثيرة في حياة هذا البلد، ابتداءً من جغرافيته الطبيعية، وانتهاءً بأحواله السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية. وليس هناك من حدٍ فاصل بين ملاحظاته هذه، لأنها تأتي من خلال معايشته للواقع الذي يحاول أن يصفه بكل دقة وتفصيل. فتختلط أحياناً هذه المعطيات بعضها ببعض. وهذا أمر طبيعي نتيجة تأثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية بالأحوال السياسية، وغيرها من العوامل الأخرى التي تشكل المعالم الرئيسية لحضارة أي بلد من البلدان، وشعب من الشعوب. ومن أجل تسهيل عملية دراسة هذه الرحلة. والاطلاع على أحوال اليمن في وقت زيارة ابن بطوطة لها، لجأنا

إلى تناول كل مظهر من مظاهر الحياة في اليمن على حدة، لتبسيط البحث، ولتسهيل الاستفادة منه لمن يريد، مع قناعتنا بأن هذه المظاهر ما هي إلا حالة واحدة، تكونت في نظر الرحالة المغربي، حين زار هذا القطر في أواخر الثلث الأول من القرن الثامن للهجرة.

أولاً ـ المظاهر الجغرافية:

ابتدأت ملاحظات ابن بطوطة من جغرافية اليمن الطبيعية، والمناطق المحيطة به، قبيل وصوله إليه، وذلك بوصفه لطبيعة البحر الأحمر، ووجود الصخور، أو الشعاب المرجانية فيه، بحيث إنها كانت تؤثر بشكل كبير على حركة الملاحة في هذا البحر. فكان الملاحون يتجنبون السفر في الليل، ويتحركون من طلوع الشمس إلى غروبها، وبعدها يُلقون مراسيهم إلى الصباح. وقد ورد مصطلح «النبات»[12] في إشارة ابن بطوطة إلى الصخور المرجانية، في طبعة دار التراث ببيروت (1968) للرحلة، وفي طبعة عبد الهادي التازي أيضاً. ويرجح حسين مؤنس[13]، أن المصطلح المقصود هو «القالات» أو «التروش». وقد تحرفت في نسخ **الرحلة** من «القالات» إلى «النبات». وهو محق في هذا الترجيح، لأن الشريف الإدريسي، سبق أن وصف الصخور المرجانية الموجودة في البحر الأحمر، وأشار إليها باسم «القالات والتروش»[14]. فكان الملاحون، بحسب قوله: «يأوون منه في كل ليلة إلى مواضع يسكنون فيها، ويلجؤون إليها خوفاً من معاطبه، وينزلون بها نهاراً، ويقلعون عنها نهاراً حالاً دائماً سير النهار وإقامة الليل»[15]. والإدريسي في هذا يؤيد ما قاله ابن بطوطة

(12) **المصدر نفسه**: 2/ 100.

(13) ابن بطوطة ورحلاته، ص94، 95.

(14) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله المعروف بالشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في افتراق الآفاق، مطبوعات المعهد الشرقي بنابولي. ص50، 135 ـ 136.

(15) **المصدر نفسه**: ص137.

من بعده. وقد أضاف ابن بطوطة سمة أخرى، تزيد من خطورة السفر في هذا البحر، وهي شدة الرياح العاصفة التجارية الشمالية الشرقية[16]. وهي التي عطلت رحلة ابن بطوطة بعد خروجه من جدّة، وصدّت مركبه عن السبيل التي قصدتها في الوصول إلى اليمن، فقذفتها إلى الساحل الغربي للبحر الأحمر، في مرسى دوائر فيما بين عيذاب وسواكن[17].

وقد تطرق ابن بطوطة إلى مناخ اليمن، وحدد صفاته الموسمية، وقرنه بشكل صحيح بمناخ الحبشة والهند[18]. وبطبيعة الحال، فإن هذا النوع من المناخ سببه وقوع اليمن على الأطراف الشمالية للمناخ الاستوائي، وفي الزاوية الجنوبية الغربية لشبه الجزيرة العربية، قريباً من الجسم المائي الكبير (أي البحر العربي والمحيط الهندي)، وهو ما أدى إلى تعرضها لرياح دافئة تسبب سقوط المطر في الصيف[19]. وقد أبدى ابن بطوطة استغرابه من نزول المطر في الصيف قائلاً: «ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل في أيام القيظ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الأوان، فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر. وأهل المدينة [صنعاء] ينصرفون إلى منازلهم، لأن أمطارها وابلة متدفقة»[20]. ومن الجدير بالذكر أن منطقة صنعاء، هي ليست الأكثر مطراً في اليمن، بل إن أغزر المناطق هي منطقة إب، التي قد يصل المعدل السنوي فيها إلى أكثر من 100 سم.

(16) الرحلة: 2/ 100؛ وينظر: خصباك، ابن بطوطة ورحلته، ص178.

(17) الرحلة: 2/ 100. ورأس دوائر يمكن أن يكون هو مرس دَرُور (Darur) على خط 19.50 شمالاً، وعلى بعد 43 ميلاً عن سواكن. ينظر تعليق جب: Gibb. Op. Cit, Vol. II. P. 362 Not. (9).

(18) الرحلة: 2/ 111؛ وينظر: خصباك، **المرجع السابق**: ص178.

(19) خالص الأشعب، اليمن/ دراسة في البناء الطبيعي والاجتماعي والاقتصادي، بغداد، دار الرشيد، 1982، ص35.

(20) الرحلة: 2/ 111.

ولكن يبدو أن ابن بطوطة تواجد في صنعاء في موسم المطر، الذي لا يزيد على 25 يوماً في هذه المدينة[21].

ولعل من أهم ما قدم لنا ابن بطوطة في مجال الجغرافية، هو وصفه الدقيق للمدن اليمنية، وعمارتها في أثناء زيارته لها، كل واحدة بحسب حجمها، وبحسبما تستحق من اهتمام. فقد أشار إلى حَلِي على أنها حسنة العمارة[22]، وإلى السرْجة على أنها بلدة صغيرة[23]، وإلى جِبْلَة، بأنها بلدة صغيرة حسنة[24]. وقال عن زبيد بأنها مدينة عظيمة ليس باليمن أكبر منها سوى صنعاء[25]. أما تعز، فهي أحسن مدن اليمن وأعظمها في

(21) الأشعب، **المرجع السابق**: ص44 ـ 45.

(22) حَلِي مدينة كبيرة على الطريق الذي يربط مكة بصنعاء، وتبعد نحو 30 ميلاً عن البحر. ومرساها عبارة عن ميناء محمي يوجد الآن في إقليم عسير. ينظر: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977: 2/ 297؛ Gibb. Op. Cit, Vol. II. P. 364 Not. (16).

(23) السرجة: ضبطها ياقوت بفتح الشين المعجمة (الشَرجة) وليس بالسين المهمل، كما جاء في **الرحلة**، وهي محطة استراحة على طريق صنعاء ـ مكة، تبعد عشر محطات قبل حَلِي. ينظر: ياقوت، معجم البلدان: 3/ 207، 334. وقد جاءت أيضاً بالشين المعجمة عند علي بن الحسن الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية: تحقيق، محمد بن علي الأكوع الموالي، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1983: 1/ 259، 2/ 98.

(24) الرحلة: 2/ 107. وتقع جِبْلة على بعد 75 ميلاً جنوب شرق زبيد، و40 ميلاً شمال تعز، وعلى بضعة أميال من مدينة إب. ابتناها عبد الله بن علي الصليحي سنة 458هـ/ 1065 ـ 1066م. ثم أصبحت عاصمة للدولة الصليحية. وللملكة أروى بنت أحمد مآثر كثيرة في هذه المدينة. ومن الملاحظة أن هذه المدينة لا تقع على الطريق المباشر الذي يذهب من زبيد إلى تعز كما يفهم من كلام ابن بطوطة، ينظر: ياقوت، معجم البلدان: 2/ 106 ـ 107، إبراهيم أحمد المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية، صنعاء، دار الكلمة، 1985، ص122؛ Gibb. Op. Cit, Vol. II. P. 368 Not. (32).
الرحلة (هامش المحقق: 2/ 107 رقم (34)).

(25) الرحلة: 2/ 103 ـ 104. أسس مدينة زبيد محمد بن عبد الله بن زياد الأموي بأمر من الخليفة المأمون العباسي عام 204هـ/ 821م. وميناؤها هو (غلافة) على بعد 25 =

نظره. وأشار إلى تقسيماتها وحاراتها[26]. كذلك نعت صنعاء بأنها قاعدة بلاد اليمن الأولى. وهي مدينة كبيرة حسنة العمارة، بناؤها بالآجر والجص، وشوارعها مفروشة كلها، فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها، وأنقاها[27]. وحين انتقل إلى عَدَن عرّفها على أنها مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم، ووصفها بأنها مدينة تحف بها الجبال، ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد. كذلك أشار إلى اتساعها، وشدة الحر فيها، وأنها لا زرع فيها ولا شجر ولا ماء. وقد ذكر صهاريجها التي يُجمع فيها الماء أيام المطر[28]. والغريب أن ابن بطوطة لم يتوسع في وصف هذه الصهاريج الضخمة التي تدل على عراقة في تقاليد بناء السدود، والتي تُدهش الزائر لها من حيث دقة عملها، وشمولها، واستيعابها للكميات

= ميلاً، شمال غرب المدينة، ينظر: نجم الدين عمارة بن علي اليمني. تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، تحقيق، محمد بن علي الأكوع الموالي. ط3، صنعاء، مطبعة العلم، 1979، ص45؛ ياقوت، معجم البلدان؛ 4/ 208؛ Gibb. Op. Cit, Vol. II. P. 366 Not. (23).

(26) الرحلة: 2/ 107. بنيت قلعة تعز في عهد الدولة الصليحية في منطقة ذات أهمية سوقية بين حصني صبر والتعكر. ووصف ياقوت وابن المجاور هذه القلعة على أنها من قلاع اليمن المشهورات. وقد بلغت أولها أيام حكم بني رسول، وأصبحت عاصمة لهم، وتوسعت فشملت عدة أحياء في لحف الحصن وجبل الصبر. ياقوت، معجم البلدان: 2/ 34؛ جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني المعروف بابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، تصميم، أوسكر لوفغرين، ليدن ـ هولندا، مطبعة بريل، 1951، ص156، 233؛ محمد محمد المجاهد، مدينة تعز غصن نضير في دوحة التاريخ العربي. تعز، المعمل الفني للطباعة. 1990، ص16 ـ 17.

(27) الرحلة: 2/ 111. وتقع صنعاء على بعد نحو 113 ميلاً شمال تعز في خط مباشر، ينظر عنها: الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق، ص53؛ ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص181.

(28) الرحلة: 2/ 111. وتقع عدن على بعد نحو 85 ميلاً جنوب شرق تعز، ينظر عنها: الإدريسي، نزهة المشتاق، ص54.

الهائلة من المياه التي تنحدر من الجبال في موسم سقوط الأنهار. وهي الآن من أهم المعالم السياحية التي تجذب السياح القادمين لزيارة هذه المدينة. وأخيراً فقد حدد ابن بطوطة موقع مدينة ظفار، بأنها في صحراء منقطعة، لا قرية فيها، ولا عمالة، على الرغم من أنها تقع على ساحل البحر، فهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي[29].

وعلى الرغم من أن ابن بطوطة لا يشير كثيراً إلى المسافات بين المدن، فإننا نلحظ أنه وضح المسافة بين عدن وظفار، فهي مسيرة شهر في صحراء، وبينها وبين عُمان عشرون يوماً. كما أشار إلى مقدار المسافة بين ظفار والهند، وحددها بشهر كامل، مع مساعدة الريح. وقد أشار إلى تجربته الخاصة في قطع هذه المسافة من مدينة قالقوط في الهند إلى ظفار في ثمانية وعشرين يوماً، بالريح الطيبة، مع عدم التوقف ليلاً ونهاراً[30]. كذلك أعطانا مقدار المسافة للسفر بين سواكن وساحل اليمن في الجهة الشرقية من البحر الأحمر، بستة أيام[31]. أما في البحر، فقد أعطانا فقط المسافة بين زبيد وصنعاء، والتي قدَّرها بأربعين فرسخاً[32]، أي ما يعادل مئة وعشرين ميلاً، أو مئتين وأربعين كيلو متراً.

ثانياً ـ الأحوال السياسية:

كانت اليمن في أثناء زيارة ابن بطوطة تخضع لدولة بني رسول،

(29) الرحلة: 2/ 123. ظفار مدينة كانت على ساحل المحيط الهندي. وقد اختفت من على الخرائط اليوم. ينظر: ياقوت، معجم البلدان: 4/ 60؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية: 1/ 181؛ الرحلة تعليق التازي: 2/ 123 هامش 178.

(30) الرحلة: 2/ 123.

(31) **المصدر نفسه**: 2/ 101.

(32) **المصدر نفسه**: 2/ 103. والفرسخ يساوي ثلاثة أميال أو ستة كيلومترات، ينظر: ڤالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة، كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، 1970، ص94.

التي خَلَفَت الأيوبيين في الحكم سنة 626هـ/ 1229م. وقد جاء هؤلاء إلى هذه البلاد مع الأيوبيين، وامتد نفوذهم من حضرموت إلى مكة. وظل حكمهم لليمن سائداً لمدة أكثر من قرنين. وهم ينتسبون إلى أول ملوكهم علي بن رسول، الذي ينتهي نسبه إلى جبلة بن الأيهم ملك الغساسنة[33]. وكانت هذه الدولة تعترف بالولاء لدولة المماليك في مصر[34]. وعند دخول ابن بطوطة أرض اليمن كان ملكها من هذه الأسرة هو السلطان المجاهد نور الدين علي ابن السلطان المؤيد داود ابن السلطان المظفر يوسف بن علي بن رسول، الذي حكم اليمن ما يقارب الخمسة وأربعين عاماً (721 ـ 766هـ/ 1321 ـ 1364م). وقد عاصر هذا السلطان كلاً من محمد بن قلاوون المملوكي، وابنه الناصر حسن[35]. وقد فرضت هذه الدولة سيطرتها على ظفار، وحضرموت، وشبام، وتهامة، وعدن، وكانت عاصمتها تعز، التي عدّها ابن بطوطة من أحسن مدن اليمن وأعظمها، وأشار إلى أنها تتكون من ثلاث محلات؛ إحداها يسكنها السلطان ومماليكه، وحاشيته، وأرباب دولته، وقد نسي ابن بطوطة اسم هذه المحلة المهمة، التي هي الحي الملكي بثعبات[36]. أما المحلة الثانية،

(33) ينظر: شمس الدين أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي الأنصاري، العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، ط2، مصورة عن المخطوطة، دمشق، دار الفكر، 1981، ص190؛ تاج الدين عبد الباقي اليماني، بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق، مصطفى حجازي، القاهرة (د. ت)، ص85.

(34) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، 1963: 5/ 31 ـ 32.

(35) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط1، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1967: 4/ 215؛ خليل إبراهيم السامرائي، الأوضاع السياسية للعالم الإسلامي من خلال رحلة ابن بطوطة، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، سلسلة الموسوعة الصغيرة، 1986، ص55 ـ 56.

(36) ينظر: المجاهد، مدينة تعز، ص26، 72؛ ويقارن: الرحلة، تعليق عبد الهادي التازي: 2/ 107 هامش (35)، الذي رجح بأنّ اسم المحلة الأولى هي (المعزية).

فقد أشار إليها ابن بطوطة باسم «عُدَيْنة»، التي كان يسكنها الأمراء والأجناد (ذو عدينة: وهي تمثل الآن المدينة القديمة)[37]. وأشار إلى المحلة الثالثة باسم «المحالب»، التي يسكنها عامة الناس، وفيها السوق العظمى. وهي تسمية لم يرد لها ذكر عند غير ابن بطوطة. ويحتمل أن اللفظة قد تضمنت عن حي «المحاريب»، الذي هو بين سائلة المداجر والسور الغربي للمدينة[38].

وقد أُتيح لابن بطوطة أن يقابل السلطان المجاهد نور الدين علي ابن السلطان المؤيد هزبر الدين داود ابن السلطان المظفر يوسف بن علي بن رسول. وذلك بترتيب خاص من قِبل قاضي المدينة صفي الدين الطبري المكي، الذي اصطحبه معه يوم الخميس، وهو اليوم الذي يجلس فيه السلطان لعامة الناس. وقد وصف لنا ابن بطوطة مراسيم الدخول على هذا السلطان، وكيفية السلام عليه، وذلك «أن يمس الإنسان الأرض بسبابته، ثم يدفعها إلى رأسه ويقول: أدام الله عزك»[39]. وقد فعل القاضي هكذا، وقلده ابن بطوطة، ثم جلس القاضي على يمين السلطان، وجلس ابن بطوطة بين يديه، فسأله عن بلاده، وعن السلطان أبي سعيد المريني سلطان المغرب، وعن سلطان مصر، وملك العراق، وملك اللّور، فأجابه عن ذلك.

كذلك وصف ابن بطوطة مجلس السلطان، وكيفية جلوسه، وجلوس حاشيته، فأشار إلى أنه كان يجلس فوق متكأ عالٍ مفروش بالحرير، وعن يمينه ويساره الجند المسلحون بمختلف أسلحة العصر، في ترتيب منظم، ثم الحجّاب، والوزراء، وكبار رجالات الدولة. فإذا قام

(37) المجاهد، مدينة تعز، ص72.
(38) **المرجع نفسه**: ص72.
(39) الرحلة: 2/ 109.

السلطان أو جلس، صاحوا صيحة واحدة: «بسم الله». ثم يدخل عليه من يأذن له، فيسلم ويقف في الموضع الذي خُصِصَ له، ولا يتعداه، ولا يجلس إلا من أُمِرَ بالجلوس. ويقدم الطعام في هذا المجلس، وهو نوعان: طعام للعامة، وطعام للخاصة. فأما الطعام الخاص، فيأكل منه السلطان، وقاضي القضاة، والكبار من الشرفاء والفقهاء والضيوف. وأما الطعام العام، فيأكل منه بقية الشرفاء، والفقهاء، والقضاة، والمشايخ، والأمراء، ووجوه الأجناد. ولكل من المجموعتين مكان لا يتعداه إلى غيره، ولا يزاحم أحد منهم أحداً. وهنا يشير ابن بطوطة إلى أن هذا الترتيب هو نفسه في بلاد ملك الهند، ويتساءل، مبيناً عَدم معرفته، هل أن سلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن، أم أن سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند[40] وعلى الرغم من عدم استطاعته الإجابة عن هذا السؤال، فإن روايته هذه تبقى فريدة من نوعها عن مراسيم بلاط السلاطين الرسوليين في اليمن، وهي رواية موثوقة، معززة بشهادة شاهد عيان، ناقد، فاحص، يسمع ويرى، ويقارن.

وبعد وصوله إلى صنعاء قادماً من تعز، لا ينسى أن يشير إلى أن صنعاء كانت قاعدة بلاد اليمن الأولى، ويشيد بعمارتها وجوامعها. لكنه لا يشير إلى أميرها، أو إلى أمير عدن التي زارها بعد ذلك. علماً أنه نوّه بأمير مدينة أصغر منهما كثيراً، هي مدينة حَلِي، التي أشار إلى سلطانها عامر بن ذؤيب من بني كنانة، الذي كان من الفضلاء الأدباء الشعراء. لكن إشارته إلى هذا الحاكم مبررة، لأنه كان على اتصال سابق به، بحيث رافقه من مكة إلى جدّة، بعد انتهاء موسم الحج في سنة 730هـ. فلما وصل إلى مدينته، كان من الطبيعي أن يكرم ابن بطوطة، وينزله في ضيافته، حتى إنه خصص له مركباً من مراكبه لينقله إلى بلدة السرْجة،

(40) **المصدر نفسه**: 2/ 109.

التي تقع على الطريق بين مكة وصنعاء[41].

ويورد لنا ابن بطوطة معلومات على درجة كبيرة من الأهمية عن سلطان ظفار، الملك مغيث ابن الملك الفائز، الذي هو ابن عم سلطان اليمن الرسولي المجاهد نور الدين علي بن داود. ويبين لنا نوعية العلاقة التي كانت سائدة بين هذا الملك، وأبيه من قبل، وبين سلطان اليمن، فقد كان عليه أن يقدّم هدية، يبعثها له في كل سنة. ويبدو أن ملك ظفار قد استبد بحكم هذا الإقليم، وامتنع عن إرسال الهدية، فبعث إليه السلطان المجاهد نور الدين جيشاً بقيادة ابن عم له، لينتزع ظفار منه. لكن هذه الحملة لم تتم، لتعرُّض قائدها ومجموعة من أصحابه لحادث سقوط حائطٍ عليهم، أدى إلى مصرعهم جميعاً، الأمر الذي جعل السلطان يعدل عن رأيه في محاربة ظفار وحصارها. وهذه الحملة التي لم يتطرق إليها أحد من المؤرخين المعاصرين لتلك الحقبة[42]، هي من إضافات ابن بطوطة لتاريخ العلاقة بين ظفار وتعز. وهو يسوقها كمثل على حرمة هذه المدينة، وعجائبها بحيث لا يقصدها أحد بسوء، إلا عاد عليه مكروه، وحيل بينه وبينها[43].

وفي نص ابن بطوطة تفصيلات كثيرة عن ملك ظفار، ومراسيم خروجه ليوم الجمعة ومقابلاته للمواطنين. وقصر هذا الحاكم في داخل المدينة يُسمى الحصن، وهو عظيم، وفسيح، والجامع بإزائه. وكان من عادته أن تُضرب الطبول والبوقات، وغيرها من الآلات الصوتية على بابه كل يوم بعد صلاة العصر. وتأتي العساكر كل يوم اثنين وخميس إلى بابه،

(41) **المصدر نفسه**: 2/ 102.

(42) ينظر: .Gibb. Op. Cit, Vol. II. P. 384 Not. (78) والرحلة: 2/ 125 هامش التازي رقم (85).

(43) **المصدر نفسه**: 2/ 125.

فيقفون خارج المشور ساعة، ثم ينصرفون. ولا يخرج السلطان ولا يراه أحد إلا في يوم الجمعة. فيخرج للصلاة، ثم يعود إلى قصره، ولا يمنع أحداً من دخول المشور. وأمير الحرس الخاص (الجندار) قاعد على بابه، وإليه ينتهي كل صاحب حاجة أو شكاية، فيأخذها إلى السلطان، ويعود بالجواب عنها في الحال.

أما كيفية ركوب هذا السلطان وخروجه خارج قصره، فتتم بمراسيم خاصة، يقوم فيها بامتطاء جمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش بالذهب. ويركب مع السلطان نديمه في المحمل، بحيث لا يُرى. وإذا خرج إلى بستانه، وأحب ركوب الفرس، ركبه ونزل عن الجمل. وكان يرافقه في هذا ثلة من الجند المسلحين والمماليك. ولا يجوز في هذه المواكب أن يعارض أحد السلطان، لشكاية أو غيرها. ومن يقوم بذلك يتعرض للضرب المبرح، ولهذا يتحاشى الناس موكبه إذا خرج، ويفرون عن الطريق التي يسلكها[44]. وكان لهذا السلطان وزير لا يُحسن الوزارة، هو الفقيه محمد العَدَني، الذي كان بالأصل معلم صبيان، فعلَّم هذا الملك القراءة والكتابة، فعاهده على أن يستوزره إن مَلَكْ. فلما مَلَكْ استوزره، فكان له الاسم، والحكم لغيره. ويبدو أن ابن بطوطة قد ظل مدة لا بأس بها في ظفار، ليشاهد، أو يسمع كل هذه المعلومات، على الرغم من قذارة أسواقها ونتانتها. وهي الصفات التي لا يحبها هذا الرحالة ويسارع بالخروج من الأماكن التي تتميز بعدم النظافة. وفي أي حال، فنحن لا نستطيع تحديد المدة التي بقيها في هذه البلاد، لكننا نعلم أنه غادرها من طريق البحر إلى عُمان يوم 27 ذي القعدة سنة 731هـ/ الأول من أيلول 1331م[45].

(44) **المصدر نفسه**: 2/ 129 ـ 130.

(45) **المصدر نفسه**: 2/ 130، تعليق التازي هامش رقم (97).

ثالثاً ـ الأوضاع الثقافية والدينية:

تشير شهادة ابن بطوطة عن هذه الأوضاع إلى أن أهل اليمن كانوا متدينين، حريصين على الفرائض والعبادات، ينقطع كثير منهم إلى الزهد. ويتجلى هذا الأمر بشكل واضح في وصفه لما وجده في جامع مدينة حَلِي. فيشير إلى أن جامع هذه المدينة كان من أحسن الجوامع، يقيم فيه جماعة من الفقراء المنقطعين إلى العبادة، منهم الشيخ الزاهد العابد قبولة الهندي، الذي زاره ابن بطوطة في خلوته المتصلة بالمسجد، فلم يجد فيها شيئاً إلا إبريق الوضوء، ومائدة من سعف النخيل، فيها كسر خبز شعير يابسة، وملح وزعتر. فإذا جاءه زائر قدّم بين يديه ذلك. وكان أصحاب هذا الشيخ يأتون بما لديهم من زاد من غير تكلف، ويجتمعون للذكر بعد صلاة العصر إلى المغرب. ثم يستأنفون ذلك إلى صلاة العشاء إلى ثلث الليل، ثم يعودون مرة أخرى فيتهجدون إلى الصبح، ثم يذكرون إلى أن تحين صلاة الإشراق، ثم ينصرف بعضهم ويبقى بعضهم الآخر حتى يصلّي الضحى، وهذا دأبهم أبداً. ويبدو أن ابن بطوطة قد أُعجب جداً بطريقتهم في العبادة، حتى إنه صرح برغبته في البقاء معهم «وكنت أردت الإقامة معهم باقي عمري فلم أُوفق لذلك والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه»[46]. ولم يُفصح ابن بطوطة لماذا لم يُوفق إلى ذلك. والظاهر أنه ظل معهم لبعض الوقت، لكنه لم يتمكن من الاستمرار على هذا النوع من الحياة الزاهدة الخشنة، وهو الرجل الذي يحب رؤية الناس والدنيا، وحب التجوال، والإقبال على الحياة دون طمع أو ترف.

وأشار ابن بطوطة إلى التقائه عدداً من علماء اليمن وفقهائها، وهم في رأيه أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق. منهم سلطان حَلِي

(46) **المصدر نفسه**: 2/ 102.

عامر بن ذؤيب الكناني، الذي كان شاعراً وأديباً، ومنهم خلق كثير في مدينة زبيد، أشار إلى أسمائهم، وهم الشيخ العالم الصالح محمد الصنعاني، والفقيه الصوفي المحقق أبو العباس الأبياني، والفقيه المحدث أبو علي الزبيدي. كما اجتمع أيضاً بالفقيه القاضي أبي زيد عبد الرحمن الصوفي، وهو أحد فضلاء اليمن[47].

والحقيقة أن العصر الذي زار فيه ابن بطوطة اليمن كان عصر تشجيع للعلم والمعرفة، ولا سيما أن ملوك وأمراء بني رسول، ونساءهم، كانوا مهتمين جداً بإنشاء المدارس والزوايا والمساجد، لنشر العلم والمعرفة[48]. ولقد أحصيت على سبيل المثال أكثر من عشرين مدرسة أنشئت في كل من زبيد وتعز، أشار إليها الخزرجي في كتابه **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**. ولكن يبدو أن إقامة ابن بطوطة القصيرة نسبياً في اليمن لم تتح له زيارة بعض هذه المدارس، أو الإشارة إليها. مثال ذلك المدرسة الأشرفية، ومدرسة مريم، والمنصوريات الثلاث، والدعاسية، والعاصمية في زبيد[49]، والأشرفية، والأفضلية، والمظفرية، والمنصورية في تعز[50].

وقد أشار ابن بطوطة إلى سماعه بالعابد الخاشع أحمد بن العُجَيل اليمني المتوفى قبل وصول ابن بطوطة إلى اليمن سنة 690هـ/ 1291م.

(47) **المصدر نفسه**: 2/ 105 ـ 106.

(48) ينظر: عبد الرحمن بن عبد الله الحضرمي، زبيد/ مساجدها ومدارسها العلمية في التاريخ، دمشق، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية بصنعاء والمعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق، 2000، ص39 ـ 40؛ عبد الله محمد الحبشي، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول، صنعاء، منشورات وزارة الإعلام، ط2، 1980، ص59، فما بعدها.

(49) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**: 1/ 82، 155، 288، 350؛ وينظر: الحضرمي، **المرجع السابق**: ص157، 180، 206.

(50) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**: 1/ 223، 337، 345، 2/ 27، 115، 180.

والذي كان إماماً من أئمة المسلمين في الفقه والأصولين والنحو واللغة والفرائض[51]. وقد وصفه ابن بطوطة على أنه من «كبار الرجال وأهل الكرامات»[52]. وأشار إلى إحدى محاوراته التي سمعها عن أهل زبيد، وجرت بينه وبين علماء الزيدية حول القضاء والقدر. فكانت الغلبة فيها للشيخ العُجَيل القائل بالقدر، وذلك بسبب كرامته، بحيث أجلس الخصوم المجادلين. وقال لهم: قوموا من أماكنكم إن استطعتم، فلم يستطيعوا القيام حتى أضرت بهم الشمس وضجّوا مما نزل بهم، فأعلنوا توبتهم، وإيمانهم بالقدر، فأخذ الشيخ بأيديهم، فقاموا[53].

ويبدو أن ابن بطوطة قد أُعجب جداً بكرامات هذا الشيخ، الأمر الذي دعاه إلى زيارة قبره في قرية الغسانة، خارج زبيد، والتي أُطلق عليها اسم «بيت الفقيه»، الذي لا تزال تُعرف به نسبة إلى الفقيه أحمد بن العُجَيل. ولقد لقي هناك ابن هذا الفقيه، أبا الوليد إسماعيل، الذي استضافه عنده لمدة ثلاثة أيام، سافر بعدها في صحبته إلى زيارة أحد العلماء المشهورين، وهو الفقيه أبو الحسن علي بن أبي بكر بن محمد الزيلعي، الذي كان من كبار الصالحين ويكرمه أهل اليمن، ويكبّرون من شأنه، ويزورونه في طريقهم إلى الحج. وكان هذا الفقيه يقيم بمدينة جبلة، وله فيها زاوية، استضافهم فيها لمدة ثلاثة أيام[54].

ومن الملاحظ أن نص ابن بطوطة يقدم معلومات تختلف عما يقدمه الخزرجي بالنسبة إلى وفيات بعض الأعلام، أمثال إسماعيل بن أحمد بن

(51) ينظر عنه: **المصدر نفسه**: 1/ 218 ـ 221.
(52) الرحلة: 2/ 106.
(53) **المصدر نفسه**: 2/ 106.
(54) **المصدر نفسه**: 2/ 107.

العُجَيل، الذي أشار الخزرجي إلى وفاته عام 717هـ/ 1317[55]، والفقيه أبي الحسن الزيلعي الذي ذكر بأن وفاته كانت في مكة لآخر ذي الحجة من عام 729هـ/ 1329م[56]. ولو صحّت هذه التواريخ، لما أمكن لابن بطوطة أن يلتقي كليهما، لأن الأول توفي بحسب الخزرجي قبل نحو ثلاثة عشر عاماً من وصول ابن بطوطة إلى اليمن، والثاني قبل نحو عام. فهل يمكن رد رواية ابن بطوطة الذي أشار إلى لقائه بهما فعلاً؟ وهذا يدعونا إلى مراجعة تواريخ الوفيات التي يذكرها الخزرجي، وعدم أخذها دون تدقيق وتمحيص.

وقد التقى ابن بطوطة في تعز قاضي القضاة الإمام المحدّث صفي الدين الطبري المكي[57]، الذي لا تتوافر لدينا معلومات عنه في المصادر الأخرى، فأقام في داره لمدة ثلاثة أيام، ثم أدخله لمقابلة السلطان علي ابن داود الرسولي. ولا يشير ابن بطوطة إلى التقائه علماء في صنعاء وعدن، باستثناء قاضي مدينة عدن الصالح سالم بن عبد الله الهندي، الذي كان من خيار القضاة وفضلائهم[58]. لكنه في الوقت نفسه أشاد بتدين أهل عدن وتواضعهم، وصلاحهم، ومكارم أخلاقهم. كذلك تحدث ابن بطوطة عن زاوية الشيخ الصالح العابد أبي محمد بن أبي بكر عيسى، التي كانت معظّمة عند أهل ظفار. وقد بات فيها ابن بطوطة في ضيافة الشيخين أبي العباس أحمد وأبي عبد الله محمد ابني الشيخ أبي بكر المذكور. كذلك اتصل بقاضي ظفار الصالح أبي هاشم عبد الملك الزبيدي[59]. وقد

(55) **العقود اللؤلؤية**: 1/ 345.
(56) **المصدر نفسه**: 2/ 54.
(57) الرحلة: 2/ 109.
(58) **المصدر نفسه**: 2/ 113.
(59) **المصدر نفسه**: 2/ 126.

أشار إلى مدينة الأحقاف[60]، التي تبعد بحسب وصفه مسيرة نصف يوم عن ظفار، وقال إنها منازل عاد، وذكر وجود زاوية فيها قبر مكتوب عليه: هذا قبر هود بن عابد عليه أفضل الصلاة والسلام. وهذه الزيارات والاتصالات تدل بالتأكيد على حرص ابن بطوطة على لقاء علماء هذا البلد، فضلاً عن رغبته الجامحة في التعرف إلى المعالم الدينية والمساجد والزوايا فيه. لكنه، وكما أسلفنا، لم يستطع الوصول إلى عدد كبير من المدارس والزوايا، لقصر مدة زيارته لليمن.

رابعاً ـ الأوضاع الاجتماعية:

لم يتطرق ابن بطوطة كثيراً إلى التكوين الاجتماعي للسكان في اليمن، على الرغم من أنه ابتدأ زيارته بالحديث عن هذا الموضوع، حين أشار إلى وجود طائفتين من العرب في مدينة حَلِي، وهم بنو حرام، وبنو كنانة[61]. والجماعة الأولى هم قبيلة من نهد اليمن، والثانية ترجع في الأصل إلى شمال الجزيرة العربية[62]. كما أشار إلى أولاد الهبي، الذين يسكنون في بلدة السرجة، وهم ينتمون إلى الشريف عز الدين هبة بن الفضل العلوي[63]. لكن ابن بطوطة ذكر من جهة ثانية، تنوع وتعدد

---

(60) هناك خلاف في تحديد مكان الأحقاف، ومن المعتقد أنها هي بالذات حضرموت الحالية؛ ينظر: الرحلة: 2/ 126 هامش التازي رقم (89). أما قبر هود الذي أشار إليه ابن بطوطة، فهو يقع على بعد 40 ميلاً شرقي مدينة تريم بحضرموت و300 ميل غربي ظفار: Gibb. Op. Cit, Vol. II. P. 386 Not. (83). وقد أشار ابن بطوطة إلى زيارته لهذا القبر في أثناء حديثه عن جامع دمشق: الرحلة: 1/ 310. ولكنه لم يؤكد في كلامه هنا عن ظفار هذه الزيارة، واكتفى بترجيح وجود القبر بالأحقاف لا في دمشق، لأنها بلاده.

(61) الرحلة: 2/ 102.

(62) عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، دمشق، المطبعة الهاشمية، 1949، 1/ 237، 3/ 996.

(63) الرحلة: 2/ 102 ـ 103؛ وينظر: عمارة اليمني، المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، ص66 هامش المحقق (1)؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية: 1/ 97، 123، 130.

الأجناس التي كانت تتواجد في اليمن، أمثال: الزاهد قبولة الهندي الساكن في قلبي، والقاضي سالم بن عبد الله الهندي الأصل في عدن، والتجار الهنود والمصريين الذين كانوا في عدن أيضاً[64]، وكذلك قاضي القضاة صفي الدين الطبري، المكي الأصل، في تعز[65]. وقد أشار أيضاً إلى «العرب»، الذين ربما قصد بهم البدو أو الأعراب المتواجدين خارج مدينة عدن، والذين كانوا يمنعون الماء عن أهل عدن حتى يصانعوهم بالمال والثياب[66].

ولا يستخدم ابن بطوطة في كلامه عن اليمن أسلوب التعميم، بل يصف أهل كل منطقة، أو مدينة، بما لديه من قناعة تولدت من طريق تعامله معهم[67]. فأولاد الهبي في السرجة مثلاً، قوم لهم فضل وكرم، اشتهروا بفعل الخيرات، ولا يماثلهم في ذلك إلا الشيخ بدر الدين النقاس الساكن ببلدة القحمة التي تبعد نحو تسعة أميال شمال مدينة زبيد. أما أهل زبيد، فلهم لطافة الشمائل، وحسن الأخلاق، وجمال الصور. ويتوقف ابن بطوطة عند جمال نساء زبيد قائلاً: «ولنسائها الحسن الفائق الفاتن وهي وادي الحُصَيب الذي يُذكر في بعض الآثار أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ في وصيته: يا معاذ إذا جئت وادي الحُصَيب فهرولْ!!»[68]. وقد أورد ابن المجاور، أن هناك مكاناً يبعد عن زبيد بنحو فرسخ (ثلاثة أميال: يُسمى المُسَلِّب. وقد سُمي بهذا الاسم لأن نساءه يسلبون العقول من حسنهم وجمالهم وظرافتهم، وأشار إلى البيت الآتي:

---

(64) الرحلة: 2/ 113.

(65) المصدر نفسه: 2/ 109.

(66) المصدر نفسه: 2/ 111.

(67) المصدر نفسه: 2/ 103.

(68) المصدر نفسه: 2/ 105.

سَقَى الله رَبَاتِ الحُصَيْبِ ورَبْعها فما الحُسْنُ إلاّ ما حَوَتْهُ رُبوعُها

لكنه، وكما يبدو، لا يتفق مع ابن بطوطة بشأن جمال نساء زبيد، بل نساء اليمن بعامة، فهو يقسم بالله الرحمن الرحيم قائلاً: «ما رأيت في جميع اليمن سهلها وجبلها وجهاً حسناً يعتمد عليه النظر، ولا فيهم ظرافة، ولا لطافة، ولا ملامة، ولا حلاوة، إلا اسم بلا جسم، لا ترى إلا عجائز سوء خبيثات الأبدان، قليلات الأدب، ذوات آراب، وسخي اللسان، قذري الأكل»[69]. ومن الواضح أن هذا الكلام فيه تجنّ سافر على نساء اليمن. ولا يوجد فرق زمني شاسع بين عصر الرجلين لتقلب الموازين هكذا من الجمال والحسن الفائق إلى القبح الظاهر، لأن ابن المجاور توفي سنة 690هـ/ 1219م، أي قبل زيارة ابن بطوطة لليمن بأربعين عاماً. ولا يمكن لابن بطوطة أن يكتب ما كتبه لولا تأكده من كلامه، وهو الخبير بالنساء، الذي طاف العالم المعروف آنذاك، ورأى الحُسْن والقُبح في كل مكان. والواقع أن ما لمسناه، ورأيناه في مناطق تعز وإرب، يدل على وجود نسبة لا بأس بها من الجمال الفائق، الظاهر أحياناً، والمتخفي وراء النقاب في غالب الأحيان.

ويصف ابن بطوطة مشاركة النساء في هذه المدينة في المناسبات الاجتماعية، ولا سيما في عيد «سبوت النخل المشهورة»[70]. وهذا يؤيد شهادته في رؤيتهن والاطلاع على جمالهن عن كثب، بحيث يخرج أهل

(69) تاريخ المستبصر، ص246.

(70) اشتهرت زبيد بسبوت النخل. والسبوت معناه الاحتفال بأيام النخيل، بحيث يخرج المجتمع يومي السبت والاثنين. وكان الرسوليون ينزلون من تعز للنزهة ثلاثة أشهر بالنخيل في أراضيهم بنخل وادي زبيد في العذيب والحجف والكاذية، ويخرج معهم السكان. وتقام في أيام السبوت الاحتفالات بالطبول والمزامير، والمسابقات على الخيول والهجن. ويُحتفل في آخر يوم من انتهاء ثمر النخيل، وهذا يسمى السبوت، ويُعرف الآن بالخمس. ينظر: الحضرمي، زبيد، ص27.

زبيد «في أيام البُسْر والرطب في كل سبت إلى حدائق النخيل، ولا يبقى في المدينة أحد من أهلها، ولا من الغرباء. ويخرج أهل الطرب، وأهل الأسواق لبيع الفاكهة والحلاوات. **وتخرج النساء ممتطيات الجِمال في المحامل، ولهن مع ما ذكرناه من الجَمال الفائق والأخلاق الحسنة والمكارم»**[71] ويضيف ابن بطوطة: أن للغريب مزية عند نساء زبيد، «فلا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا [يقصد المغرب] فإذا أراد السفر خرجت معه وودّعته، وإن كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها، وإذا كان مقيماً فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة لأنهن لا يخرجن عن بلدهن أبداً ولو أُعطيت إحداهن ما عسى أن تُعطاه على أن تخرج عن بلدها لم تفعل»[72]. ومن المستغرب بعد كل هذا الوصف والإعجاب، أن ابن بطوطة لم يفكر في الزواج من إحدى نساء زبيد، وهو الذي لم يكن يتوانى عن انتهاز أي فرصة للاقتران بالنساء في أثناء رحلاته وزياراته للمناطق والأقاليم الأخرى من شمال أفريقيا إلى الهند والصين!

وقد وصف ابن بطوطة أهل مدينة تعز بأنهم «ذوو تجبر وتكبر وفظاظة»، وفي محاولة تحليلية لطبيعة البشر، عمم هذا الوصف على جميع سكان العواصم التي يسكنها الملوك[73]. ويؤيد أو يطابق ابن بطوطة في هذا الوصف لسكان مدينة تعز الجندي[74]، الذي يورد رواية تعكس أخلاق العامة في المدينة، واستعدادها العجيب للفوضى والبطش ما كان

(71) الرحلة: 2/ 105.

(72) **المصدر نفسه**: 2/ 105.

(73) **المصدر نفسه**: 2/ 107.

(74) القاضي أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن يوسف الجندي، السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق، محمد بن علي الأكوع، بيروت، شركة دار التنوير للطباعة والنشر، 1989: 2/ 592.

ذلك ممكناً. وعلى الرغم من هذه الأوصاف، فإن كاتب هذا البحث لم يجد عند أهل تعز اليوم، والذين عاش بين ظهرانيهم نحواً من خمسة أشهر، الفظاظة، والتجبر، والتكبر، بل على العكس، وجد الكثير من صفات الشهامة واللطف، وحسن معاملة الغريب. وبطبيعة الحال، فإن أحداث العصور الوسطى، وما رافقها من ويلات وحروب ومآسٍ، يمكن أن تدفع الناس إلى العنف والقسوة والهمجية. وهذا الأمر هو الذي يمكن أن نلحظه بوضوح من رواية الجندي أعلاه.

ويسهب ابن بطوطة في الحديث عن مجتمع مدينة عدن التجاري، ويصف أهلها ما بين تجار، وحمالين، وصيادي السمك. ويورد حكاية في تنافس هؤلاء التجار، وفي إقامة الدعوات لغيرهم، فيذكر على سبيل المثال، أن التاجر الذي نزل عنده، وهو ناصر الدين الفأري، كان يحضر طعامه في كل ليلة نحو عشرين من التجار، وله غلمان وخدّام أكثر من ذلك. وقد وصف أهل عدن بالتدين، والتواضع، والإحسان إلى الغريب، والتصدق على الفقير، وأنهم يزكّون أموالهم، ولهم مكارم أخلاق[75].

ويتحدث عن بعض المظاهر الاجتماعية في ظفار، منها مثلاً لباس النساء من باعتها للسواد، وأكثرهن من الخدم. أما لباس بقية الناس، فهو الفوط التي يشدونها في أوساطهم بدلاً عن السراويل. وأكثرهم يشد فوطة في وسطه، ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر. وغالبية أهل ظفار رؤوسهم مكشوفة، لا يلبسون العمائم[76]. وهم يغتسلون في اليوم مرات متعددة، ولهم في كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال. والغالب على أهلها رجالاً ونساءً، المرض المعروف بداء الفيل، وهو انتفاخ القدمين،

(75) الرحلة: 2/ 113.

(76) **المصدر نفسه**: 2/ 125.

وأكثر رجالهم مبتلون بالأدر والعياذ بالله[77]. ومن عادات أهل ظفار الحسنة في نظر ابن بطوطة، التصافح في المسجد إثر صلاة الصبح والعصر، يستند أهل الصف الأول إلى القبلة، ويصافحهم الذين يلونهم، وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة، يتصافحون أجمعون[78].

ويشبّه ابن بطوطة أهل ظفار بأهل المغرب في شؤونهم، وهو يعتبر ذلك من الغرائب، ويضرب مثالاً على ذلك ما رآه في منزل خطيب مسجد ظفار الأعظم، عيسى بن علي، فقد شاهد هناك جواري لهن أسماء خدم في المغرب: إحداهن اسمها بُخَيْت، والأخرى زاد المال، ويقول إنه لم يسمع بهذه الأسماء في بلد سواها. كذلك يشبه أهل ظفار أهل المغرب في وجود سجادة من الخوص معلقة في كل دار من دورهم، يصلّي عليها صاحب البيت، كما يشترك أهل البلدين في أكلهم للذرة. وهذا التشابه كله يؤيد في نظره القول بأن صنهاجة وسواها من قبائل المغرب أصلهم من حمير[79].

ومن عادات أهل ظفار تعظيمهم لزاوية الشيخ الصالح العابد أبي محمد بن أبي بكر عيسى، الذي أشرنا إليه آنفاً. فكانوا يأتونها غدواً وعشياً، ويستجيرون بها، فإذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه. وصادف في الأيام التي كان فيها ابن بطوطة، أن استجار بها كاتب

(77) **المصدر نفسه**: 2/ 124.

(78) **المصدر نفسه**: 2/ 124.

(79) هذا الاعتقاد مبني على الأسطورة التي تتحدث عن غزو التبابعة لشمال إفريقيا والمغرب الأقصى. واستقرار جيوشهم هناك. وقد أنكر ابن خلدون هذه الأسطورة، وبين زيفها. ينظر: مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار إحيار التراث العربي (د. ت)، ص12 ـ 13؛ وينظر أيضاً:

(80) Gibb. Op. Cit, Vol. II. P. 385 Not؛ الرحلة: 2/ 125 (هامش التازي رقم (86)).

السلطان، وأقام فيها حتى وقع الصلح بينهما. ومن شدة إكرام الضيف واحترامه في ظفار، التبرك بالماء الذي تُغسل به أيدي الضيوف الذين يتوسمون فيهم الخير، فيشربون منه، ويسقون أهلهم وأولادهم، كما حصل لابن بطوطة حين كان في ضيافة ابني الشيخ أبي بكر المذكور، وكذلك في ضيافة القاضي الصالح أبي هاشم عبد الملك الزَّبيدي، الذي كان يتولى خدمته وغسل يديه بنفسه، ولا يكل ذلك إلى غيره[80].

وكانت تربة سلف السلطان الملك المغيث هي الأخرى معظّمة عند أهل ظفار، ويستجير بها من طلب حاجة فتقضى له. وكان من عادة الجند أنه إذا تم الشهر، ولم يأخذوا أرزاقهم استجاروا بهذه التربة، وأقاموا في جوارها إلى أن يُعطوا أرزاقهم[81].

وعلى الرغم من حديث ابن بطوطة المستفيض عن التنبول، الذي هو نبات القات. أو شيء شبيه به، وقوله عنه إنه كان شائعاً في جنوب الجزيرة العربية، وشرق أفريقيا والهند، ويزرع بكثرة في ظفار[82]. لكنه لم يشر إلى أي مجالس لتخزين القات في اليمن، الأمر الذي يدل على أن استخدام هذا النبات لم ينتشر بعد بشكل واسع النطاق في عهده، كما حصل فيما بعد، وحتى الآن.

خامساً ـ الأوضاع الاقتصادية:

تطرق ابن بطوطة إلى مختلف المجالات الاقتصادية المعروفة في أثناء زيارته لليمن. وكان أوضح عرض له، هو التجارة، التي لاحظها بشكل ملموس في هذه البلاد. وكانت ملاحظته الأولى عن قيام تجار من

(80) الرحلة: 2/ 126.

(81) **المصدر نفسه**: 2/ 126.

(82) **المصدر نفسه**: 2/ 127.

أهل اليمن بامتلاك المراكب البحرية الكبيرة، واستخدامها في النقل. وقد أورد لنا اسم أول هذه المراكب التي سافر على متنها من جدة، وهي التي تسمى بالجِلْبة (جمع جِلاب وجِلَبْ). وهذه السفن متوسطة الحجم، اشتهر أهل اليمن وسواحل البحر الأحمر ببنائها. وهي ذات عمق، يستخدم باطنها لخزن الطعام والماء والبضائع، وظهرها لركوب المسافرين[83]. وكانت هذه الجِلْبة التي ركب بها ابن بطوطة ملكاً لرشيد الدين الألفي اليمني الحبشي الأصل[84]. وقد حرص ابن بطوطة على ذكر صاحب المركب الثاني الصغير، الذي انتقل بواسطته من ظفار إلى عُمان في نهاية رحلته إلى اليمن، وهو علي بن إدريس المصيري من أهل جزيرة مصيرة، الواقعة على مقربة من ساحل عمان[85].

وبالنظر إلى وقوع اليمن في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، وأنه محوط من الجنوب والغرب بالبحار، كان لا بد من أن تتجه الأنشطة التجارية فيه إلى البحر. وقد لحظ ابن بطوطة ذلك بدقة، وشخّص الثغر البحري الرئيسي لهذه البلاد، وهو ميناء عدن، الذي اعتبره «مرسى أهل اليمن»، وتحدث عن طبيعة سكانه التجارية، وأشار إلى الكبار منهم الذين لهم أموال عريضة، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه، لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال. كما أشار إلى أحد هؤلاء التجار، الذي استضافه، وهو ناصر الدين الفأري الذي أسلفنا الحديث عنه وعن دعواته اليومية لعدد كبير من التجار للعشاء في منزله[86].

(83) ينظر: مؤنس، **المرجع السابق**: ص92.

(84) الرحلة: 2/ 98.

(85) **المصدر نفسه**: 2/ 130. وجزيرة مصيرة الواقعة بالقرب من ساحل عمان، مسكونة، وبها أشجار نخيل، طولها نحو 40 ميلاً، وعرضها 10 أميال. ينظر: ياقوت، معجم البلدان: 5/ 144.

(86) الرحلة: 2/ 113.

وتطرق ابن بطوطة إلى تجارة اليمن الخارجية من طريق ميناء عدن، الذي تأتيه المراكب العظيمة من موانىء الهند، أمثال كُنْباية (Cambay) وتانة (Tana) على مقربة من بومباي، وكولم (Quilon) في الطريق الجنوبي للهند، وقالقوط (Calicut)، وفندرانية (Fandalayini) في شمال قاليقوط، وسندابور (Beypare) جنوب قاليقوط، ومنجور (Mangalore)، وفاكنور (Baccanor)، وهِنَور (Hanavar)، والشاليات، وغيرها[87]. كذلك أشار إلى بعض تجارة اليمن الخارجية من طريق ظفار، التي يصدر منها الخيل العتاق إلى الهند[88]. ويجلب من طريقها الأرزّ والقطن من الهند أيضاً[89]. أما في مجال التجارة الداخلية، فقد أورد لنا إشارة واحدة إلى مجموعة من التجار الذين يسكنون مدينة السرْجة، وهم أولاد الهبي الذين أسلفنا الإشارة إليهم. وكانوا يتنقلون بين هذه المنطقة، وصعداء (صَعْدَة)، التي كانت مدينة آهلة يقصدها التجار من كل بلد[90]. وكانت لهؤلاء التجار سفنهم الخاصة التي تعمل أيضاً على طريق الحج. وقد ازدادت أموالهم وتجارتهم أيام وجود ابن بطوطة في اليمن[91].

وباستثناء صيد السمك الذي كان يعمل به قطاع كبير من أهل ظفار، فإن التجارة كانت هي الغالبة عليهم و«لا عيش لهم إلا منها». لهذا فقد كان استقبال المراكب القادمة، وتوديعها، هو الشغل الشاغل لهذه المدينة. ويورد لنا ابن بطوطة وصفاً دقيقاً لكيفية استقبال السفن التي ترسو في الميناء. فما إن يصل مركب من المراكب، حتى يتوجه عبيد السلطان إلى

(87) المصدر نفسه: 2/ 113، وينظر: هامش المحقق التازي رقم (43).

(88) المصدر نفسه: 2/ 123.

(89) المصدر نفسه: 2/ 124.

(90) تقع صعدة إلى الشمال من صنعاء على بعد 243 كم، وعلى ارتفاع 2261 متراً عن سطح البحر. ينظر عنها: ياقوت، معجم البلدان: 2/ 406.

(91) الرحلة: 2/ 103.

الساحل، ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله، وللربان، وهو الرئيس، وللكراني، وهو كاتب المركب. «ويؤتى إليهم بثلاثة أفراس فيركبونها وتضرب أمامهم الطبول والأبواق من ساحل البحر إلى دار السلطان، فيسلمون على الوزير، وعلى أمير الحرس الخاص (أمير جندار). وتُبعث الضيافة لكل من في المركب ثلاثاً. وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان، وهم يفعلون ذلك استجلاباً لأصحاب المراكب...»[92]. ومن الواضح، وكما أدرك ذلك ابن بطوطة، أن هذا الأجراء، ما هو إلا ضرب من ضروب الدعاية والإعلان لجذب أهل المراكب، وتشجيعهم للتوجه إلى ظفار، وما يجر ذلك إلى ازدياد التبادل التجاري مع البلاد التي تنتمي إليها هذه السفن.

أما بالنسبة إلى صيد السمك، فأكثر سمك منطقة ظفار الذي كان يُصطاد زمن تواجد ابن بطوطة هو السردين، الذي كان في غاية الضخامة والسمن. وكانوا يستخدمونه في طعامهم، كما يعلفون به دوابهم وغنمهم أيضاً. ويلحظ أن ابن بطوطة استخدم لفظة (السردين)، الذي رجح الدكتور التازي أنها ربما كانت من أصل إغريقي[93]. ولكثرة ما يباع من هذا السمك وغيره في أسواق ظفار أضحت قذرة جداً، ونتنة الرائحة، وكثيرة الذباب[94].

ولم يلحظ ابن بطوطة الكثير من الصناعات، أو بالأحرى، لم يتحدث كثيراً عن الصناعات في اليمن، باستثناء إشارته إلى صناعة الزيت والحليب والعسل، المستخرجة من جوز الهند. وقد جاءت هذه الإشارة ضمن حديثه عن النارجيل. ومن المرجح أنه كان يقصد بلاد الهند، لكثرة

(92) المصدر نفسه: 2/ 124.

(93) المصدر نفسه: 2/ 124 هامش المحقق رقم (82).

(94) المصدر نفسه: 2/ 123.

هذا المنتوج فيها، وليس اليمن. كذلك أشار باختصار إلى صناعة الثياب التي كانت تنتج من الحرير والقطن والكتان، ووصفها بأنها ثياب «حسان جداً»[95]. ولا شك في أنه كانت تتوافر في مناطق أخرى من اليمن بعض الصناعات الأخرى، ولا سيما صناعة السفن التي ألمح إليها في أثناء حديثه عن شجرة جوز الهند، والحبال المصنوعة من قشرة ثمرها، وهي التي تربط بها المراكب[96]. كذلك لم يُشِرْ إلى العملة المستخدمة في هذا البلد، سوى عملة ظفار، التي وصفها على أنها دراهم من النحاس والقصدير، وهي لا تُنفق أو تستعمل في سواها من الأماكن[97].

وقد أشاد ابن بطوطة بالأوضاع الزراعية في اليمن، فوصف كثرة البساتين، والمياه، والفواكه، والنخيل. وخصّ بعض المدن التي زارها بوصف دقيق لما يتوافر فيها من الفاكهة والبساتين، ولا سيما زبيد، وجِبْلة، وصنعاء، التي لم ينس الإشارة إلى اعتدال هوائها، وطيب مائها، الأمر الذي أثّر على كثرة الأشجار والزراعة فيها[98]. وتطرق إلى زراعة الذرة في ظفار، وأشار إلى كيفية سقيها من آبار بعيدة، يؤخذ ماؤها بواسطة الدلاء، ويُجمع في صهاريج خاصة، تُسقى منها الحقول. وقد ذكر أيضاً وجود القمح في ظفار، و«يسمونه العَلَس وهو في الحقيقة نوع من السلّت»[99]. لكنه لم يشرح أماكن زراعته، وهل أنه كان يُسقى مثل الذرة بواسطة الآبار. أم بوسائل أخرى. وأشار إلى بساتين الموز الكثيرة في ظفار، وثمره غالباً كبير الجرم. وقد وُزنت ثمرة واحدة منه بحضوره،

(95) المصدر نفسه: 2/ 124.

(96) المصدر نفسه: 2/ 128.

(97) المصدر نفسه: 2/ 124.

(98) المصدر نفسه: 2/ 105، 107، 111.

(99) المصدر نفسه: 2/ 124.

فكان وزنها ثنتي عشرة أوقية[100]. ووصف طعم هذا الموز بأنه طيب. وشديد الحلاوة. كذلك أشار إلى نباتي التنبول، والنارجيل المعروف بجوز الهند. وهذان المنتوجان لا يوجدان إلا في بلاد الهند، أو في مدينة ظفار. لشبهها بالهند، وقربها منها، بحسب قوله. وكذلك يوجد في مدينة زبيد في بستان السلطان شجيرات من النارجيل. وقد أشرنا سابقاً إلى نبات التنبول، الذي هو نبات القات، أو شيء شبيه به، ويُغرس كما تُغرس دوالي العنب، أو يُغرس مجاوراً لشجر النارجيل، فيصعد فيها كما تصعد الدوالي. وقد أسهب في شرح كيفية زراعة هذين المنتوجين، وكيفية استخدامهما، وخاصيتهما، وما ينتج منهما من صناعات، ولا سيما صناعة الزيت والحليب والعسل. وكلام ابن بطوطة عن التنبول والنارجيل، وما ينتج منهما، كلام عام، وفيه تركيز على انتشارهما في الهند، وتأكيد على أنه سيذكرهما أيضاً عند حديثه عن بلاد الهند. وأغلب الظن أنه ساق الكلام عنهما، بمناسبة وجود بساتين لزراعتهما في اليمن، وليست بالتأكيد من الكثرة والشمول، كما هي في الهند. ولهذا فقد اضطر لذكرهما تماشياً مع السياق، فهو يقول: «وإذ قد وقع ذكر التنبول والنارجيل فلنذكرهما ولنذكر خصائصهما»[101].

(100) ليس لدينا كم كان يعادل الوزن الصافي للأوقية في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية أيام زيارة ابن بطوطة لها. ولكن الأوقية الشرعية في مكة في صدر الإسلام كانت تعادل 40 درهماً، أي ما يساوي 125 غراماً. وفي القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد، كانت الأوقية المكية تساوي نحو 27.08 غراماً. ينظر: فالنترهانتس، **المرجع السابق**: ص19. فإذا أخذنا بالمقياس الأول يكون وزن الموزة نحو 1500 غرام. أما المقياس الثاني، فهو في حدود 333.6 غراماً. وربما كان الوزن الثاني هو الأكثر انطباقاً على ما قاله ابن بطوطة، لأن معدل الوزن الحالي للموزة الواحدة في أيامنا يراوح ما بين 150 ـ 200 غرام تقريباً.

(101) الرحلة: 2/ 127 ـ 129.

جريدة المصادر والمراجع

(أ) المصادر الأولية:

* الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله المعروف بالشريف الإدريسي.

1 - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبوعات المعهد الشرقي بنابولي.

* ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي.

- رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق، عبد الهادي التازي، الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1997.

* الجندي، القاضي أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن يوسف الجندي.

- السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق، محمد بن علي الأكوع، بيروت، شركة دار التنوير للطباعة والنشر، 1989.

* الخزرجي، شمس الدين أبي الحسن علي بن الحسن الخزرجي.

4 - العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، نشرته وزارة الأعلام اليمنية على شكل تصوير للمخطوطة، وتولت تصويره دار الفكر في دمشق، 1981.

5 - العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق، محمد بن علي الأكوع الحوالي، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1983.

* ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد.

6 - مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار إحياء التراث العربي (د. ت).

* عمارة اليمني، نجم الدين عمارة بن علي اليمني.

7 - تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، تحقيق، محمد بن علي الأكوع الحوالي، ط3، صنعاء، مطبعة العلم، 1979.

* القلقشندي، أحمد بن علي.

8 - صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، 1963.

* ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي.

9 - صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، تصحيح،

أوسكر لوفغرين، ليدن - هولندا، مطبعة بريل، 1951.

* اليماني، تاج الدين عبد الباقي اليماني.

10 - بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق، مصطفى حجازي، القاهرة (د. ت).

* ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي.

11 - معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977.

(ب) المراجع الثانوية:

* الأشعب، خالص.

12 - اليمن/ دراسة في البناء الطبيعي والاجتماعي والاقتصادي، بغداد، دار الرشيد، 1982.

* الحبشي، عبد الله محمد.

13 - حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول، صنعاء، منشورات وزارة الأعلام، 1980، ط2.

* حسن، حسن إبراهيم.

14 - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط1، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1967.

* الحضرمي، عبد الرحمن بن عبد الله.

15 - زبيد، مساجدها ومدارسها العلمية في التاريخ، دمشق، المركز الفرنسي للدراسات اليمنية بصنعاء والمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، 2000.

* خصباك، جعفر.

16 - ابن بطوطة ورحلته، النجف، مطبعة الآداب، 1971.

* زيادة، نقولا.

17 - الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1962.

* السامرائي، خليل إبراهيم.

18 - الأوضاع السياسية للعالم الإسلامي من خلال رحلة ابن بطوطة، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة/ سلسلة الموسوعة الصغيرة، 1986.

* الشرقاوي، محمود.

19 - رحلة مع ابن بطوطة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968.

* كحالة، عمر رضا.

20 - معجم قبائل العرب، دمشق، المطبعة الهاشمية، 1949.

* كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتس.

21 - تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسية، صلاح الدين عثمان هشام، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987.

* كنون، عبد الله.

22 - ذكريات مشاهير رجال المغرب/ابن بطوطة، الرباط، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (أيسيسكو)، 1996.

* المجاهد، محمد محمد.

23 - تعز غصن نضير في دوحة التاريخ العربي، تعز، المعمل الفني للطباعة، 1995.

* المقحفي، إبراهيم أحمد.

24 - معجم البلدان والقبائل اليمنية، صنعاء، دار الكلمة، 1985.

* مؤنس، حسين.

25 - ابن بطوطة ورحلاته، القاهرة، دار المعارف، 1980.

* هنتس، ڤالتر.

26 - المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة، كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، 1970.

27 - The Travels of Ibn Battüta, translated with revisions and nots by: H. A. R. Gibb, printed in Germany, 1972.

المحتويات





يتضمن هذا الكتاب مجموعة من الدراسات الخاصة من الرحلات بين الغرب الإسلامي والمشرق.

وبالنظر إلى أهمية الرحلة التي تمثل مظهراً من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية، وإلى دورها في الربط بين ثقافة المشرق والمغرب، جاءت الفكرة لجمع هذه الأبحاث، ونشرها ضمن كتاب واحد.

وكمثال لتنوع أهداف الرحلة في العالم الإسلامي عبر العصور، جاء تنوع هذه الأبحاث، التي تشير إلى مختلف الأسباب الرئيسية التي دفعت العلماء إلى الرحلة كطلب العلم وأداء فريضة الحج والسياحة والتجارة بحيث أعطت نماذج من رحلة ابن بطوطة أو ابن جبير وغيرهما صورة عن التواصل الحضاري والثقافي بين المشرق والمغرب.

من مواليد مدينة الموصل 1943.

حصل على البكالوريوس في التاريخ بدرجة جيد جداً (قسم الشرف) من كلية التربية بجامعة بغداد عام 1965.

نال شهادة الدكتوراه في تاريخ المغرب والأندلس من جامعة اكستر (Exeter) بالمملكة المتحدة عام 1978 م.

مؤلفاته :

- العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي
- الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا و الأندلس
- أصول البحث التاريخي
- دراسات أندلسية
- دراسات في التاريخ الأندلسي
- دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها
- دراسات في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي
- دراسات في تاريخ وحضارة المشرق الإسلامي
- موسى بن نصير
- ابن عذارى المراكشي
- حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس
- نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس
- الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق
- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس / بالاشتراك مع اخرين
- تاريخ المغرب العربي / بالاشتراك مع اخرين

ردمك ISBN 9959-29-219-9





موقعنا على الانترنت:
www.oeabooks.com